

هندسة اللغة

دراسة في هندسية اللغة العربية من خلال
الاستعمال القرآني

إعداد

د. صلاح شفيق

الطبعة الأولى

٢٠٢٢

الإهداء

إلى : اللغة العربية ..

تلك اللغة الباسلة التي تنافح عن نفسها .

العاقلة التي تأبى التناقض .

الهندسية التي تتيه على كل لغات العالم بالتقنين

الصارم فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً
وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ

الرعد - ١٧

مقدمة

يتميز القرآن الكريم عن سائر الكتب السماوية بسمات ينفرد بها: فهو أولاً عربي، أنزله جبريل عليه السلام من السماء السابعة إلى السماء الأولى كاملاً في ليلة واحدة هي ليلة القدر { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ }^(١) { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ }^(٢) .

والفعل المعبر عن الإنزال لكامل القرآن دفعة واحدة هو الفعل (أنزل) كما رأيت في الآيتين السابقتين ، ثم بعد ذلك نزله من السماء الأولى على محمد صلى الله عليه وسلم منجماً على مدى ثلاثين وعشرين سنة ، والفعل المعبر عن ذلك هو الفعل (نزل)^(٣) بالتشديد: { فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ }^(٤) ، { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ }^(٥) ، وفي كلتا الآيتين المنزل هو جبريل عليه السلام. { وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ }^(٦) ، وأهل مكة يفهمون ذلك لذلك يستعملون الفعل (نزل بالتضعيف) : { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ }^(٧) ،

١ سورة القدر . الآية (١) .

٢ سورة الدخان . الآية (٣)

٣ تكرر الإشارة إلى التنزيل في آيات كثيرة النحل . الآية (١٠٢)

٤ سورة البقرة . الآية (٩٧)

٥ سورة النحل . الآية (١٠٢)

٦ سورة محمد . الآية (٢)

٧ سورة الزخرف . الآية (٣١)

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ { (١) . وسوف تقف على الفارق بين الاستعمالين في قوله تعالى في سورة آل عمران عندما جمع الفعلين في آية واحد فأشار إلى التنزيل (التدرجي) بالنسبة للقرآن ، والإنزال دفعة واحدة بالنسبة للتوراة والإنجيل: { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ } { (٢) .

وبذلك نزل القرآن الكريم مرتين ، مرة من السماء إلى السماء وكان كاملاً ونزل مرة واحدة (الإنزالي السماوي) ، والأخرى من السماء إلى الأرض ونزل أجزاء حتى اكتمل (التنزيل الأرضي) ليتطابق الكتابان لأنهما في النهاية كتاب واحد . وهو عربي في الإنزال الأول ، أي هو لما نزل إلى السماء الأولى في تلك الليلة المباركة كان عربياً بدليل قوله تعالى في سورة يوسف: { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا } { (٣) ، فهو عربي في السماء وهو عربي الآن بين أيدينا .

فهو نزل عربياً واستمر عربياً ، فلا تجوز الصلاة بقراءة آياته بلغة أخرى، فما المترجمات للقرآن إلا ترجمات لمعانيه ، لكنها لا تُعدُّ قرآناً وربما من خلال هذه الدراسة سنفهم لماذا لا تصلح الترجمة من العربية للقرآن الكريم ، والقرآن بذلك هو الكتاب السماوي الذي ظل باللغة نفسها التي نزل بها .

والقرآن ينفرد - إلى جوار أنه نزل عربياً ، واستمر عربياً - بأن الله عز وجل لم يتركه للبشر يحفظونه ، بل تعهد هو بحفظه فقال في سورة الحجر: { إِنَّا حَمْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } { (٤) وذلك لأنه ترك الكتب السابقة

١ سورة الحجر . الآية (١)

٢ سورة آل عمران . الآية (٣)

٣ سورة يوسف . الآية (٢)

٤ سورة الحجر . الآية (٩)

لأهلها ليحفظوها كما أخبرنا في سورة المائدة: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }^(١) (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ) { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ }^(٢) .

فقوله (بِمَا اسْتُحْفِظُوا) يفيد أنه تركها لهم ليحفظوها . ولأن القرآن هو العهد الأخير بين السماء والأرض ، فلم يشأ الله أن يترك كتابه الأخير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل حفظه بنفسه ، ولذلك نرى مع ضعف المسلمين وشدة أعدائهم فإن القرآن معصوم ، وكلما ازداد ضعف المسلمين ازداد هذا الكتاب انتشاراً لأنه كتاب الله فلا علاقة له بتقدم أو تخلف المسلمين .

فلم يترك الله القرآن الكريم للمسلمين برغم ما يتميزون به من مهابة لكتاب الله ، ويتجلى ذلك في حرصهم الشديد على حفظ أحاديث رسوله وتنقيتها من الدخيل ، إلى حد أن هناك أناساً نذرت حياتها لتلك المهمة ، ناهيك لو كان هذا كتاب الله ، ومع ذلك وبرغم وجود هؤلاء الرجال الذين يموتون من أجل عدم تحريف كلام الرسول إلا أن الله تعهد بحفظ القرآن ، ربما لأنه يدرى أن الحرب على الإسلام ستكون أشد مما يتصور رجال الإسلام .

لقد كانت معجزة محمد هي القرآن الكريم ، لذلك بقيت معجزته بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، فهو النبي الوحيد الذي ظلت معجزته بعده . إن معجزة الأنبياء جميعاً لم تبق معهم ، لكن القرآن كلام الله . فهو مرتبط به

١ سورة الحجر . الآية (٩)

٢ سورة المائدة . الآية (٤٤)

، لذلك نرى أن القرآن هو أسبق الكتب ، وهو أيضاً سيبقى مهما حدث . أما كونه أسبق الكتب السماوية ، فحقاً هو أسبق من التوراة والإنجيل ، أسبق في الوجود ، لكنهما يسبقانه في النزول: { وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ } (١) .

انظر إلى قوله تعالى (فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) أي أن الزبور الذي نزل قبل النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من خمسة عشر قرناً ، كُتِبَ بعد الذكر (القرآن الكريم) . وأما أنه باق إلى الأبد فلأنه كلام الله ، قد يرفع من الأرض ، لكنه لا يزول ، لأن كلام الله مرتبط بالله ، والله حي لا يموت .

إن اللغة تفرّق بين الميِّت بتشديد الياء وهو الإنسان الذي لم يموت لكنه صائر إلى الموت ، محكوم به عليه . فإذا مات أصبح ميِّتاً بتخفيف الياء . فهو ميِّت في حياته ، ميِّت في موته ، أما الله فهو الحي الذي لا يموت ، والقرآن حياة: { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا } (٢) فهو روح نزل به الروح الأمين ليكون حياة للإنسان .

وسوف تتعجب لما ترى من يحاول أن يتحدى القرآن الكريم ببعض تراكيبه ، ليضع المسلمين في مأزق ، فلا يستطيعون تغليب استعمالته لأنها في الأصل تراكيب قرآنية ، ولو سكتوا لكان في ذلك اعترافاً منهم بأن هناك من استطاع أن يأتي بسورة من مثله ، وقد كانت لي دراسة سابقة للرد على هذه المحاولات (٣) ، والعجيب أن كل كلمة مما استخدمها المتحدث كانت خاطئة بينما هي في مكانها في القرآن في قمة الإحكام ، أي أن تلك الكلمات في القرآن تتسم بالحياة ، فإذا نقلت من مكانها إلى تربة غريبة يحولها من أشجار مثمرة إلى جذوع نخل خاوية .

١ سورة الأنبياء . الآية (١٠٥)

٢ سورة الشورى . الآية (٥٢)

٣ صلاح شفيق . ليس هكذا القرآن يا هذا . دار الإيمان . الاسكندرية . ٢٠١١ .

ويتميز القرآني بما أسميه التوضع وهو أن تتبوأ الكلمة مكانها فلا يصلح أن يسد مكانها أي كلمة أخرى ، فلا تصلح إلا هي ، وكأنها ترس في آلة لولم تضع الترس المحدد لا يمكن أن تعمل الآلة ، وكأن هذا المكان لا ينبض بالحياة إلا مع هذه الكلمة ، فكلمة نسوة في سورة يوسف لا يصلح أن يحل محلها كلمة نساء ، ولا كلمة قرودة يمكن استبدالها بقرود ، فكلتا الكلمتين وزن فعلة وهو وزن يعني فئة مخصوصة تمتاز عن جنسها العام بصفات خاصة ، فالنسوة هي الفئة الاجتماعية المترفة اللاتي يقتلن الفراغ ، والقرودة هي نوع من القرود ممسوخ خاسئ لا يتمتع بانطلاق القروود وخفتها .

كذلك {فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} ^(١) تختلف عن {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا} ^(٢) ، فالأولى خاصة بجهنم التي تفرع القادمين إليها بالفتح بغتة ، والثانية معها واو الحال خاصة بالجنة فتلك حالتها عندما جاءوها أي كانت مفتوحة قبل حضورهم .

إن اللغة العربية مدينة للقرآن الكريم ، لأن اللغة بقدرات مستخدميها ، فلماً تهيأ لغة ذلك الحظ العظيم بأن يقع عليها اختيار رب العزة لتكون اللغة التي يستخدمها ، فقد تهيأ لها أعظم المستخدمين ، ومن ثم كان الكتاب منجم ذهب لهذه اللغة ، فقد أخرج المستخدم الأكبر منها كل إمكاناتها ، وبذلك كشف لنا كنوز العربية وأوقفنا على قوانين في العربية ما كنا لنستطيع أن نصل إليها .

ولو أن العلماء انشغلوا بالتنقيب عن تلك القوانين لكان خيراً لنا من انشغالهم بمحاولة إثبات أن القرآني عربي ، وما حاجتنا إلى إثبات ما هو مثبت .

لقد كشف لنا القرآن الكريم أن تلك اللغة لغة علمية ، لا فوضى فيها ، ولا

١ سورة الزمر . الآية (٧١)

٢ سورة الزمر . الآية (٧٣)

تناقضة حتى يمكن تسميتها باللغة العاقلة ، وأن لكل كلمة تقنينها العلمي:
 انظر كلمات (أموات ، موتى ، ميتون) : إن ثلاثتها في القرآن الكريم ،
 لكنك لا يمكنك أن تضع كلمة مكان الأخرى ، وإلا كنت ممن يحرّون الكلم
 عن مواضعه . بينما لو ترجمت هذه الكلمات إلى لغات أخرى سترجم بكلمة
 واحدة ، ولهذا ستفقد الفروق الفارقة بين بعضها البعض التي تزر بها في
 العربية ، ولهذا قلنا لا يمكن ترجمة القرآن الكريم ، وانظر إلى تلك العلمية
 في هذه الاستعمالات: من خلال التقنين العلمي لكل مفردة

موتي: الموت بين حياتين (مرحلة القبر قبلها حياة وبعدها حياة) مثل :
 يحيي الله الموتى ، فلا يجوز أن تقول يحيي الله الأموات أو الميتين .

ميتون: هم الذين على قيد الحياة ولم يموتوا بعد ، لكنهم محكوم عليهم
 بالموت ، فيحملون بذرة الموت المخلوق بداخلهم ، وقد قال الله لرسوله ومن
 معه: { إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ } ^(١) وكانوا على قيد الحياة .

أموات: لم تدخلها الروح ، فهي تدل على الخلو التام من الحياة ، فلم
 يدخلها حياة ، فهي الموت اللازم للجماذ ، وجاءت مرتين لنفي أن يكونوا
 الشهداء قد أصبحوا أمواتاً لا يشعرون ، فهم في منزلة أعلى ، فهم ليسوا
 موتي كالموجودين في القبور ، وليسوا ميتين كالذين على قيد الحياة وسينتهون
 إلى القبور ، لكنهم أحياء .

وجاءت لإثبات الموت للأصنام التي يعبدها المشركون ، فأثبت لها هذا
 الموت الحسي وأكده بعد الحياة فقال عنها أموات غير أحياء . وانظر إلى
 قوله تعالى لما استعملها عن الإنسان في سورة البقرة:

● ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿البقرة﴾ .

وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا : قبل الولادة (وهم تراب) .

فَأَحْيَاكُمْ : بعد الولادة .

ثُمَّ يُمِيتُكُمْ : دخول القبر .

فالتعبير عنا بكلمة أموات في المرحلة الزمنية التي تسبق الولادة لتشهد بأن الكلمة تفيد اللاحياة .

وهكذا استوعبت هذه الجموع الثلاثة مراحل الإنسان ، فنحن أموات قبل الولادة ، ميتون بعد الولادة ، موتى ونحن في القبر ننتظر البعث .
إنها لغة علمية مقننة في المفردة والتراكيب .

وهي ليست علمية فحسب ، لكنها لغة هندسية ، وأقصد بهندسية تقنين الاستعمالات ، وبخاصة الاستعمالات الجائزة ، فكل استعمال تبيحه له العربية الجواز ، نجد القرآن لا يترك الأمر على عواهنه ، ويستفيد من الجواز هكذا حسبما اتفق ، بل تجده عند إباحة التفريع يقنن التفريع ، فيجعل لكل فرع من الفرعين المباحين وقتاً أو مسلكاً ثابتاً لا يستخدمه إلا في هذا المسلك .

وأرى أن العتبة الأولى للأحكام يجب أن تتبع من فهم دلالة الكلمة لغويًا ، وهذا لا يتم بعيداً عن القرآن الكريم .

وأرى أنه برغم كثرة الكتب التي تناولت كتاب الله وعظمة العلماء الذين تناولوا الكتاب إلا أنه لم يتوافر له دراسته دراسة علمية تنطلق من قانونه الخاص . وما أكثر ما يقترب العالم من الوجهة الصحيحة للمقصد القرآني من الاستعمال ثم ينصرف عنها بسهولة شديدة لرواية سابقة لا يخضعها

للدراسة ، ولا يعرف هل هي صحيحة أم لا ، وحتى لو كان من نقلها له أستاذه ، فهل توقّف عنها فقد تكون زلة عالم ، إن البحث العلمي المتجرد هو من لا يضيف على الشيء مكانة صاحبه ، فهو ينظر لما فعل بعين القداسة ، فيكون حب أستاذه يغطي عينيه ، وكما قال الإمام الشافعي:

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ
وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبَدِي الْمَسَاوِيَا

فما أجدرنا أن يكون العالم ينظر لتراث أستاذه بعين السخط ، إذن لكان أكثر حبا لهذا الأستاذ .

وقد امتلأت كتب التراث بكثير من الإسرائيليات أتقلت كاهل التراث ، وأخفت بريق الذهب فيه بترابها الذي تراكم عليه ، وذلك لأن العالم كان يتحرز أن يترك علماً خشية أن يضيع ، وأرى أن الصواب أن يكون أكثر تحرّزاً فيما ينقله في كتابه إلى الأجيال القادمة ، لأنها ستكتسب قداسة بمكانته ، فإن كانت باطلاً فهي تمتلك حصانة ، وتعيش طويلاً وهي الباطل بعينه .

وأرى أن العالم الكبير قد يخالفه الصواب لو استخدم منهجاً خاطئاً ، لكن يقيناً يستطيع تلميذه أن يصل إلى الصواب لو اتبع المنهج الصحيح .

فلا تستقيم لك حقيقة إلا إذا أعطيتها هي نفسها حقها . ولا يدوم باطل اكتسب وقفته الطويلة من مكانة عالم ، فلن يلبث أن ينهار مهما طال الزمن ، لكن الحق أن يكون في ذات الشيء ، وليس في ثوب ألبسه إياه أحد المقدسين ، مهما بلغت مكانته .

وأرى أن المنهج الصحيح هو وحده ما يوصل إلى نتائج صحيحة ، وكم من علماء عقولهم من ذهب نجد رأيهم مردوداً بأدلة ماحقة ، لماذا ؟ لأن العالم

الكبير برغم عقله العظيم لم يتبع منهجًا صحيحًا . والمنهج الصحيح هو ما يأخذ بيدك إلى الصواب .

وأرى أن من أبجديات المنهج الصحيح في دراسة كتاب الله ما يأتي:

(١): الاستقصاء مع كل استعمالات الكتاب ، فلا قانون يُستنبط أبدًا من بعض الاستعمالات ، فماذا لو كان إحدى هذه الاستعمالات تتناقض مع القانون ، بالاستقصاء تطمئن إلى قانونك ، وتقف على أرض صلبة ، وتعرف ما يمكن أن يعترض عليك به ، وكيف تردُّ عليه ، وأرى أن كثيرًا من الآراء التي استمرت لوقت طويل ثم تهافت خاوية على عروشها سببها أن صاحبها خانه الاستقصاء فخانته الحقيقة .

وكم سمت وأنا صغير أن الجلوس يختلف عن القعود ، في أن القعود من الوضع واقفًا (رأسيًا) أما الجلوس فمن الوضع نائمًا . ثم وجدت الله عز وجل يأمرنا أن نفسح في المجالس ، وهنا عرفت أن القانون لا يمكن أن يكون صحيحًا لأننا لن نتواجد في المجالس من وضع النوم .

وكذلك ما قيل إن الريح تحتلف عن الرياح في أن الريح تكون في الشر لأنها من جهة واحدة فتدمم ما يقابلها ، أما الرياح الجمع فمتقابلة يكسر بعضها حدة بعض ، وهنا يصطدم القانون مع قوله تعالى: {وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَّيَّةٍ} ^(١) فهذا الاستعمال لم يطرق سمع من وضع القانون ، وإلا ما وضعه .

وقد أفادني منهج الاستقصاء جدًّا في تصويب ما أصل إليه ، وتجنبي ما يكسر القواعد ، أذكر مثلاً لما فرقت بين القرية والمدينة ، وقلت إن كل التجمعات قرى لأن أصل الكلمة: التجمع ، فإذا أصبح في القرية سلطان يدين له الناس بالولاء والخضوع والطاعة أصبحت مدينة ، فلا مدينة إلا عاصمة

١ سورة يونس . الآية (٢٢)

السلطان ، وقد وجدت القانون متسقاً مع اللغة والاستعمال ، فاعتمدته وقلته في ندوة ما ، فإذا بأحد الحاضرين من حفظة القرآن لا يشغله في الندوة إلا أن يستحضر كل استعمالات الكلمة ليتأكد مما أقول ، ثم وجدته يبتسم وكأنه وجد كنزاً ، وقال لي أمام الحاضرين: فما قولك بكلام ملكة سبأ ؟؟ : { قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً }^(١) ألم تكن ملكة يدين لها الناس بالخضوع والولاء والطاعة ، فلماذا لم تستعمل كلمة (مدينة) ؟؟ لكني كنت مسلحاً بسلاح الماضي: الاستقصاء ، ولم يفاجئني بهذا الاعتراض ، فقد وقفت عنده قبله ، وكنت على وشك الانصراف عن قانوني ، لولا أنني وجدته لا يعارضه كما اتضح في ردي على المعارض:

إذا قلت له: فهي هي تتكلم عن مكانها هذا وقت سلطانها أم بعد أن تفقده ؟؟ إن هذا المثل تحديداً يحمل بصمة زمنية لا يمكنك أن تتعامل معه بدونها ، فالملكة لا تتحدث عن هذا المكان وقت سلطانها ولكن بعد زوال سلطانها ، فهي إن كانت الآن مدينة فهي في الوقت الذي سيدخل فيه الملوك إليها ويسلبونها منها لن تكون إلا قرية فقدت سلطانها بدخول الغازي واحتلالها ، وستكون الملكة إما مقتولة أو أسيرة ذليلة .

قلت له: فهل وقتها ستظل المدينة مدينة تخضع لهذه السلطانة الأسير أو القتل بالطاعة والولاء ؟ شكرني الرجل ، وشكرت ربي على نعمة الاستقصاء ، ولولاها لتهدم كل ما قلته خلال الندوات التي استمرت ثلاث ساعات حتى لو كان كله صحيحاً ما عدا هذه .

نفعني الاستقصاء لأنني أخذت وقتاً لأصل إلى اتساق هذه الكلمة الشاردة عن قطيعها مع القطيع ، فالتزامن كان مهماً في فهم المعنى ، فالملكة تعيش في مدينة ، وهي مدينة لأنها ذات سلطان عليها يخضع لها الناس بالولاء ، لكنها

١ سورة النمل . الآية (٣٤)

لا تتكلم عنها وهي على هذه الحال ، بل تتكلم عنها عندما تصير في المستقبل عكس ذلك ، فهذه المدينة التي هي مدينة لحالتها هذه ستؤول غداً إذا انقلب الحال إلى عكس معناها فتصبح قرية .

ولذلك كان السؤال حاسماً هل هي تتكلم عن مدينتها وقت خضوعها لسلطانها أم تتكلم عنها بعد زوال سلطانها عنها ؟

فاليوم: بلقيس ملكة ، ومملكتها مدينة وهي في سلطانها .

الغد: ليست ملكة ، وتحول المكان إلى قرية فقدت سلطانها .

لأن الكلمة لم تطلق على المكان وقت التكلم ، لكنها تتكلم عنه في المستقبل ، وشتان بين وضع المكان في الزمنين: الأول لا حرب وهي صاحبة الكلمة على مدينتها ، والثاني: حرب سقطت فيها المدينة واستبيحت . فلا يمكنك إذن أن تغفل الظرف الزمني .

منهج الاستقصاء هو ما أعطاني الوقت الطويل لأقف على متانة القانون ، وأن هذا المثال لا يهدم القانون ، بل يرسخ وجوده .

ومرة أخرى توصلت من خلال دراستي اللغوية للقرآن الكريم بأن نوحاً عليه السلام لا يمكن أن يكون هو آدم الأصغر أو آدم الثاني ، وأن كل البشرية امتدت من ذريته . وأيضاً كنت مستعداً بما يعترض عليّ به ، ليس إلا قوله تعالى: { وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ } ^(١) ، لكنني كنت أملك أكثر من خمس أدلة قرآنية على كلامي وحديث صحيح يقطع بما أقول ، ولا يمكن أن يتناقض القرآن مع بعضه البعض ، لذلك قلت إن تأويل نص واحد قابل للتأويل أجدر من تأويل نصوص عدة لا تحتل التأويل .

ومرة أخرى وجدت النص يرفع في وجهي ، ويقول لي: هذا ردُّ قاطع على

أن ذرية نوح فحسب هي الباقية! ولا يدري أن القرآن يصرح بذرية المحمولين مع نوح ، ويقول لنوح عليه السلام: { أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَعَكَ }^(١) فقولهُ أمم مهن معك تقرر أن من معه سيصيرون أمماً ، فقيل لي: لعل المقصود: الأمم التي حملها من غير البشر ، فقلت ، لكن (من) عاقلة . كما أن الآية لها بقية تتحدث عن عذاب بعض الأمم التي معه: { وَأُمَّمٌ سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَتَا عَذَابٌ أَلِيمٌ }^(٢) ، فهل الحيوانات تُعذَّب ؟

وانتهى الاعتراض سريعاً إذ طلب توضيح الآية التي اعترض بها ، قلت له: هذه الآية قيلت في سياق تقابلي ، فصيغت بأسلوب قصر تقابلي ، أي هناك مواجهة بين نوح وقومه ، فأخبر عن نوح ببقاء ذريته في مقابل ذرية قومه التي غرقت ، لكن هذا لا يمنع أن يكون هناك ذريات أخرى من غير أعدائه باقية .

كان هذا بفضل منهج الاستقصاء الذي يتيح لك الوقت الكافي لتعرف من أين يأتيك الهجوم وتستعد له ، ولا يحصل أحد على انتصار وهمي عليك وأنت ربما على صواب ، فالاستقصاء يعطيك الوقت الكافي للاستعداد .

(٢) ومن أعمدة منهجي في دراسة القرآن أيضاً هو معرفة القانون الداخلي للقرآن الكريم ، فالأطباء يعالجون أي عضو بمعرفة كيف يعمل ، كذلك رأيت أن القرآن الكريم يعرف جيداً ما يفعل ، فكان من المهم معرفة السر وراء استعماله لهذه الكلمة هنا ، واستعماله لأخرى هناك ، لذلك أنا أرى أن خير أداة لمعرفة الحقيقة أن تقف على سر الخلطة كما يقولون ، وأرى أنه ليس هناك خير من القرآن ليعرفك تقنيات استعمال تعابير العربية ، فالقرآن من يعلمك الاستعمال الصحيح ، وهذا لا يتم إلا باستقراء كل

١ سورة هود . الآية (٤٨)

٢ سورة هود . الآية (٤٨)

الاستعمالات لتعرف الرابط الذي يجمع بينها أو يفارق .

وقد وجدت أن القرآن الكريم مثلاً في استعمال كلمة المرأة يطلقها على البنت التي لم تتزوج ، وعلى المرأة المتزوجة ، وعلى الأرملة التي مات زوجها ، وهنا لأن المستعمل خبير يعرف ما يفعل ، فهناك رابط ما بين هذه الاستعمالات ، وبالدراسة ستصل حتماً إلى السر: وقد وجدت أن القرآن يطلق كلمة المرأة على أنثى البشر: إذا كانت بعيداً عن الزوجية ، لذلك فهي تطلق على البنت التي لم تتزوج ، لأنها بمفردها ، ليست بذات زوج ، وتطلق على الأرملة والمطلقة لأنهما أصبحتا بلا زوج ، وتطلق أيضاً على المتزوجة إن كانت في زواجها كغير المتزوجة ، فلا تملك أساسيات الانسجام الزوجي ، وسترى القرآن يعلمك أن الزواج السوي هو ما كانت فيه:

١. وحدة العقيدة ، فإن كان أحد الطرفين كافراً فهي امرأة لأن أحدهما في شقاء مع الآخر مثل امرأة لوط وامرأة نوح وامرأة فرعون .
٢. عدم العفة أو الخيانة الزوجية: مثل امرأة العزيز .
٣. وفاة الزوج وهي حبلى مثل: امرأة عمران .
٤. عدم الخصوبة والعجز عن الإنجاب مثل امرأة زكريا ، وامرأة إبراهيم ، وسوف ترى أن امرأة زكريا لما يستجيب الله لدعائه سيطلق عليها زوج .
٥. النشوز: مثل امرأة أبي لهب .

وهكذا كان هناك رابط موجود دوماً يربط بين كل الاستعمالات ، لكنه بحاجة إلى من يصل إليه ، لكنه موجود ، مثل كل قوانين الطبيعة موجودة لكنها تنتظر من يصل إليها . وهل ما وصل إليه نيوتن وغيره لم يكن موجوداً قبلهم .

وجدت أن كلمة امرأة في كل استعمالات القرآن هي أن تكون مفردة بلا زوج، سواء قبل الزوج أو بعده ، أو أثناء وجودها معه لكن فاقدة لانسجام الحياة معه فكانها معه وحدها لأنه زواج مبتور أي ليس بزواج .

وهكذا عرفنا أن المرأة هي كل ما ليس زوجاً بمفهوم الله للزواج . وبذلك لو قرأت القرآن ووجدته يقول: امرأة تملكهم عن ملكة سبأ فاعرف أنها بلا زوج .

فالقرآن إذن يقنن استعمالاته ، وما عليك إلا أن تصل إلى الرابط الذي يربط كل هذه الاستعمالات دون أن تشذ واحدة ، واعلم أن القرآن الكريم يحمل في ذاته سر الاستعمال ، كما كانت الأرض تحمل في ذاتها الجاذبية حتى انتبه إليها نيوتن .

وهكذا ستجد كنوزاً من جماليات العربية في القرآن الكريم ، وما عدم وصولنا إليها إلا لقصور فينا أو تقصير .

واعلم أن المستعمل متقن لعمله ، فادرس استعماله لتعرف القانون الداخلي الذي يحكم استعماله ، إن القرآن نفسه هو مفتاح كنهه .

(٣) ومن أعمدة المنهج أيضاً إلى جوار العمودين السابقين (الاستقصاء ، ومعرفة القانون الداخلي للاستعمال القرآني) الوقوف على الانحرافات اللغوية ، فكل لحن مخالف ما اعتادته الناس إنما هو تصحيح لغوي ، فهو دعوة لتعرف الصواب .

(٤) البدء من المقدمة الأولى ، فلا يمكن أن تبدأ بحثاً علمياً من المقدمة الثانية ، فكل ما تصل إليه من نتائج لن يكون صحيحاً إذا كانت المقدمة الأولى التي سلمت بصحتها ولم تناقشها غير صحيحة ، وأذكر أن إهمال الكثيرين لهذا المبدأ كان نعمة ساقها الله لي ، فعند دراستي لذي القرنين ،

وجدت الجميع ينصرف عن ملك معين هو أولى الملوك بأن نرشحه ليشغل تلك الشخصية ، هذا الملك الذي لم يصف الله ملكاً لأحد في القرآن مثل ملكه هو سليمان الحكيم إذ وهبه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع ذلك ولعجبي الشديد أجد الكثيرين إن لم يكن الجميع منصرفين عنه ، يبحثون في كل من يظهر فيه علامة عظمة ، بينما الذي يجمعت كل صفات العظمة غير مطروح للبحث ، وسرعان ما فهمت أن السبب مقولة يتيمة لم يدرسها أحد هي قولهم ملك العالم اثنان مؤمنان: سليمان وذو القرنين ، فكان كل من يعتمد تلك المقدمة ويبحث بعدها يستبعد بدهة سليمان لأنه آخر غير ذي القرنين ، ولأني أومن بوجوب البدء من المقدمة الأولى ، وجدت أن القولة لا تتجاوز أحد التابعين ، وأنها قولة متهافئة غير صحيحة ، وهنا لما افترضته ليكون ذا القرنين وجدت كل كلمات من آيات سورة الكهف الخاصة به تكاد أن تنطق باسمه .

وأنا لا أعجب لما وصلت إليه ، لكني أعجب ممن سبقونا كيف لم ينتبهوا إليه وهو كالشمس التي لا يجب ألا تختفي عن هذه المنصب . وكما قلت إن صحة المنهج هي ما تأخذ بيدك إلى الحقيقة التي ربما تظل مئات السنين أمام أعين ذات بصر مذهل ولا يرونها لسوء المنهج .

(٥) اعتماد مبدأ الوحدة: بمعنى لا تقول أن سبب فتح تاء نعمة كذا ، لكن سبب فتح تاء امرأة أو شجرة كذا ، لا بد أن يكون السبب عاماً للجميع ، وأن تتسجم جميع الكلمات مفتوحة التاء في نظام واحد كما تتسجم حبات العقد في نظامه .

ومن مبدأ الوحدة أنك إذا قررت أن الأب يأخذ نصيبه في الميراث من أصل المال ، أن يكون هذا حال الأب ، تتغير نسبته ، لكنها لا بد أن تكون فيها جميعاً من أصل التركة . فهذا المبدأ يضمن عدم التناقض .

وهذا المبدأ يتبعه: وجوب التقنين: فلا جواز في القرآن الكريم ، لا تقل لي إن جمع التفسير وتوابعه يجوز فيه التذكير والتأنيب ، فهل يمكنك أن تقول في قوله (وقال نسوة) : وقالت نسوة ؟؟ فأين الجواز إن إذن كان لا يجوز لك إلا الوجه المستعمل . ستجد أن للقرآن قانونه الخاص مع كل جوازات اللغة العربية .

(٦) الوقوف على سر خصوصيات القرآن ، وهي الأحرف الوظيفية مثل نون كن ، ومتى توضع ومتى تحذف ، أو تاء تستطيع ، أو لام التفرغ مثل قوله: فيكيدوا لك ، بدل من: فيكدوك . وأن تكون هذه الأحرف مما يوجب أن يفسح لها المجال لمعرفة دلالتها .

(٧) الوقوف على سر الرسم القرآني من خلال حجب الألف أو إثباتها مثل (كتاب ، كتب) للكلمة نفسها ، وكذلك حذف ياء المتكلم ، أو استعمال تاء التأنيث مربوطة أو مفتوحة ، أو كتابة الهمزة المتطرفة على السطر أو على واو ، أو كتابة ألف زائدة ، أو كتابة الكلمة بشكلين مثل (طغى ، طغا) .

(٨) الوقوف على تقنيات القرآن ومنها

- الاحتباك الذي أسميه المذكور المسكوت عنه ، فالقرآن لا يقول كل ما شيء ، فالشيء الذي يمكن بالتفكير فيه تصل إليه لا يقوله لك .
- ومنها الوقوف على سر استخدام الجموع متى يستعمل بعد عدد واحد مثل سبعة سنابل وسنبلات ،
- وكذلك معرفة سر مخالفة القرآن الكريم للاستعمال الاعتيادي للأعداد ، ولماذا يقول أزواجًا ثلاثة وليس ثلاثة أزواج ؟ ما القانون الذي يحكم الاستعمال العددي ؟؟

• وكذلك الوقوف على الكنايات مثل معدودة ومعدودات ، وأخرى وأخر: وكلها وصف لجموع .

• ومن التقنيات أيضاً المزاوجة ذات الوجهين كأن يصف الكلمة فيكون هذا الوصف تعريفاً لها يمنع اللبس . مثل قوله: الحي الذي لا يموت ، فقطع بأن لا حي إلا الله .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ القصص: ٢٠

وكذلك المغايرة: فلماذا يقول: { وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ } (١) (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى) في سورة القصص ، ويقول في سورة يس: { وَجَاءَ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى } (٢) ٩٩

(٩) تنحية الروايات ، ودراسة النص بشكل مجرد ، ثم بعد ذلك فرز الروايات والاستئناس بها وليس الاعتماد عليها ، واعتماد مبدأ ماذا لو كانت غير صحيحة ؟؟ لقد درست كتباً كثيرة في بحثي عن ذي القرنين فوجدت نفسي في تيه أشبه بتيه بني إسرائيل ، لا يملك المبحر فيها إلا أن يخبط خبط عشواء في الظلام ، فإذا خرجت منها ترى النور . ولا يمكن بحال أن يصل الأمر أن ينسب أحدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً يقول فيه إن الاسكندر المقدوني هو ذو القرنين . وحدث ولا حرج عن كتب التراث وهي تتناول الذبيح فتجدها أكثر إسرائيلية من كتب بني إسرائيل في نسبة الذبيح لإسحاق عليه السلام . وكذلك في سورة يوسف وذكر أولاده بينما القرآن يصفه بأنه هلك ، وهلك في سورة النساء يفسرها القرآن: ليس له ولد ، كذلك الحكايات الكثيرة عن ذبح يحيى عليه السلام على يد غانية ، والقرآن بكلمة واحدة يكذب أنه يموت مذبوحاً أو مقتولاً ، يقول: وسلام عليه

١ سورة القصص . الآية (٢٠)

٢ سورة يس . الآية (٢٠)

يوم ولد ويوم يموت { وَسَلَّمُ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا } (١) ، أي أنه سيموت ولا يقتل ، وكذلك سيموت في سلام .

(١٠) يجب على الباحث أن يكون صاحب قرار مثل قبضان السفينة التي تتعرض للخطر فعليه أن يقرر أي اتجاه يتجه إليه ، فلا يصلح أن يقدم لنا الباحث عشرة آراء في تعليل شيء ، إن صح واحد منها فباقيها باطل . عليه أن يحسم قراره ، ويختار سبباً واحداً يحمل وجهة نظره .

لقد عملت دراسة عن سبب تسمية ذي القرنين بذلك في خمس وعشرين تفسيراً من أوائل التفاسير وكان المتوقع أن تقدم لي خمسة وعشرين سبباً أو أقل ، عندما يشترك اثنان في تبني سبب معين ، لكنني وجدت أنهم قدموا (١٧٢) سبباً أي بمتوسط سبعة أسباب لكل واحد . فلو كل واحد اختار سبباً واحداً حتى لو كان على خطأ فسيسهل على من يأتي بعده ليصل إلى الصواب .

وهذا الكتاب يحاول أن يكشف كيف استخراج القرآن الكريم من اللغة العربية كنوزها ، ومن هذه الكنوز بيان هندسياتها ، وهذه الهندسة تبدو في مباحث هذا الكتاب .

مدينة ٦ أكتوبر . في الأول من يونيو ٢٠٢٢ م .

(١)

العدد بعد المعدود

جاء الاستعمال القرآني للأعداد متوافقاً مع الاستعمال التقليدي ، وهو استعمال العدد قبل المعدود ، لكن هناك تعبيرات قرآنية جاء فيها العدد بعد المعدود ، وهنا عند تفرع الاستعمال إلى فرعين لابد إيماناً بهندسية اللغة أن ندرس القانون الداخلي للاستعمال القرآني لنفهم السر وراء اختيار أي من الاستعمالين دون الآخر .

وقد جاءت المخالفة للطريقة الاعتيادية لاستعمال الأعداد في القرآن الكريم في خمسة استعمالات ، منها استعمال مكرر أي أربعة استعمالات ، ونرى أن سر المغايرة أن العدد يتقدم إذا كان هناك احتمال أن يكون غيره ، تقول : جاء خمسة رجال ، لكن لا مانع لو أنهم جاءوا على غير هذا العدد ، فالعدد يتقدم لأنه يحتمل أن يكون هذا العدد أو غيره ،

● ﴿ فَكَفَّرْنَاهُ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ ﴾ (٨٩) (المائدة) .

تقدم العدد لأنه رب العزة يمكنه أن يستعمل أي عدد آخر ، فالاحتمالات متاحة ، كان يمكن أن يفرض عليهم الكفارة بهذا العدد أو غيره .

لكن العدد يتأخر عن معدوده إذا انكسرت كل الاحتمالات الأخرى ، فلا يصلح إلا هذا الاستعمال دون غيره . ولنتقف عند الاستعمالات القرآنية التي جاء فيها تأخر العدد عن المعدود ، وهل هي فعلاً منعدمة كل الاحتمالات الأخرى أم لا ؟

الاستعمال الأول :

• ﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيْلٍ عَشْرٍ ۝٢ ﴾ (الفجر) .

الفجر هنا هو فجر عيد الأضحى يقسم الله به ، وهو رأى ابن عباس وعكرمة ، وعطاء . ويقسم الله بهذا الفجر تحديداً لأن هذا الفجر هو فجر عيد النحر ، فهو أروع أيام الدنيا كلها .

وفجر عيد الأضحى يأتي يوم العاشر من ذي الحجة ، وهذا اليوم يسبقه تسعة أيام ، لكنه من حيث الليالي تسبقه عشر ليالٍ ، ذلك لأن الليل يأتي قبل النهار في اليوم ، ونحن نصلي التراويح في اليوم المتمم لشعبان دلالة على أن شهر رمضان بدأ من ليلته أي من بزوغ هلاله . وإذن فهي عشر ليالٍ لا يمكن أن تزيد أو تنقص في أي سنة من السنين . وهنا انكسرت كل الاحتمالات الأخرى ، فلا يمكن أن يأتي فجر العاشر من ذي الحجة إلا ويسبقه هذا العدد من الليالي دون غيره . فكل الاحتمالات غير الاحتمال المستعمل منعدمة .

وهناك رأي شائع بأن تلك الليالي العشر قد تجوز أيضاً لأواخر رمضان ، ويستقوون برأيهم هذا على أن ليلة القدر تقع في هذه الليالي ، وأنا أقطع بأن اللغة تأبى ذلك ، وذلك لأن رمضان قد يأتي ثلاثين يوماً فتكون الليالي عشراً ، وقد يأتي تسعة وعشرين يوماً فتكون أواخر الثلث التالي تسع ليالٍ ، وقد قطع الله بأن الليالي عشر ، أي لا تتغير في كل سنة ، فلذلك نستبعد الليالي المتغيرة التي تكون مرة تسعاً ، وأخرى عشراً . أي أن تلك الليالي خاصة

بليالى ذي الحجة التي تسبق فجر العاشر من ذي الحجة أي عيد النحر .
وكما ترى جاء العدد بعد معدوده لأنه لا تصلح أي احتمالات أخرى ، فلن تأتي
سنة تكون الليالى المتقدمة على عيد الأضحى أكثر أو أقل من عشر .

الاستعمال الثاني :

● ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (الزمر) .

جاء العدد أيضًا بعد المعدود : (فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ) وذلك لأن كل أرحام
النساء متحدة في تلك الظلمات ، فلا يمتاز رحم عن آخر ، كل الأرحام لها
العدد نفسه من الظلمات :

ظُلُمَاتٍ ١. الظلمة الأولى : تجويف أنبوب الرحم . (ظلمة مرحلة التلقيح) .

٢. الظلمة الثانية : ظلمة تجويف الرحم (ظلمة طور العلقه) .

٣. الظلمة الثالثة : ظلمة الأغشية والسائل الأمينوسي . (١)

وبذلك جاء العدد بعد المعدود لكسر أي احتمال آخر ، فهي ثلاث ظلمات
لا تزيد ولا تقل ؛ لأن مجيئها قبل المعدود يعنى احتمالية التزايد ، وأنها
ثلاثة لكن هناك حالات أخرى فيها أربعة ، أو أكثر ، فقولنا ثلاث ظلمات
يعنى احتمالية أن يكون الأمر ثلاث ظلمات أو أربع ظلمات ، لكن القول
(ظلمات ثلاث) يعنى أن العدد توحد العدد بالمعدود ، وأنه بنية الموصوف
ذاته لا يستقيم الموصوف من دونه ، وأن هذه الظلمات لا تكون إلا ثلاثاً . أي
انعدمت كل الاحتمالات الأخرى .

الاستعمال الثالث :

● ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (الواقعة) .

جاء العدد بعد المعدود أيضًا لكسر أي احتمال آخر ، فالأزواج ثلاثة

١ عدنان الشريف ، من علم الطب القرآني ، ص ٨٢ .

فحسب لا يمكن أن تكون أقل من ذلك أو أكبر ، ذلك لأننا نتحدث عن سكان الدارين في الآخرين ، وسكان النار نوع واحد فحسب هم أصحاب المشأمة ، وسكان الجنة نوعان : أصحاب اليمين ، والسابقون ، لأن للجنة منزلتين . فلا يمكن أن يكون العدد غير ذلك ، وقد فصلت سورة الواقعة الأزواج الثلاثة ، وما يعيننا هنا هو أن كل الاحتمالات المخالفة للاستعمال المذكور منعدمة . لهذا كان الاتجاه لاستعمال العدد بعد معدوده .

الاستعمال الرابع :

- ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ ﴾ (٤٤) ﴿ (الإسراء) .
- ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٨١) ﴿ (المؤمنون) .

جاء العدد بعد معدوده مرتين : (السَّمَوَاتُ السَّبْعُ) وهذا لا يكون إلا أن كان ليس هناك إلا هذا الاحتمالا ، وأن كل الاحتمالات الأخرى هي والعدم سواء . لكننا سنرى هناك استعمالات قرآنية عن عدد السماوات ، ونرى أن العدد فيها يسبق المعدود أي أن الاستعمالين قد وردا في القرآن ، والمعلوم أن أحد الاستعمالين يقتضى وجود الاحتمالات الأخرى ، والاستعمال الآخر يتنافى مع وجود احتمالات أخرى غيره ! وهذا كما يبدو لا يجتمعان ، لكن فلنر .

جاء العدد (سبع) قبل سماوات في الآيات الآتية :

- ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٩) ﴿ (البقرة) .
- ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ (١٣) ﴿ (فصلت) .
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ (١٢) ﴿ (الطلاق) .
- ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ (٣) ﴿ (الملك) .
- ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ (١٥) ﴿ (نوح) .

أما القول بالتناقض لأن قانون الاستعمال كما وضعناه يعني إتاحة

الاحتمالات الأخرى إذا كان العدد يسبق معدوده ، وكسر الاحتمالات الأخرى إذا كان العدد بعد معدوده ، وهو ما يفيد أنه لا يمكن الجمع بينهما ، فهو قول قد يبدو صحيحاً ظاهرياً ، لكن عند التعمق نرى أنه يمكن الجمع بين صورتين متناقضتين للشيء نفسه في زمانين . أي يكون هذه في وقت ، والأخرى في وقت آخر .

وهنا نرى أن الله عز وجل لما شاء خلق السماوات ، فلم يكن هناك ما يضطره لأن يخلقها سبباً ، بل كانت كل الاحتمالات متاحة ، وله من القدرة أن يخلقها في أي عدد ويخلق لها ما يجعل صالحة بهذا العدد المختار ، لذلك ولأن كل الاحتمالات متاحة وله المشيئة في أن يختار ما يشاء جاء العدد قبل المعدد فقال (خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ) ، لكن بعد أن تم الخلق واكتمل الكون المتناسق الذي لا ترى في خلقه من تفاوت أو فطور ، هنا أصبح العدد لا يصلح غيره ، فالسماوات بعد خلقها لا يمكن أن تكون إلا سبباً ، لذلك قال (رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ) لأنه لا تكون إلا كذلك ، وقال : (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ) لأن السماوات المسبحة ليست إلا هذا العدد ولا يمكن أن تكون أقل أو أكثر من ذلك ، أي استحالة الاحتمالات الأخرى ، لذلك جاء بالعدد بعد المعدود .

إنها هندسة اللغة .



(٢)

أخر ، أخرى

* جمع أخرى وآخر، فما الآخر أو الأخرى ؟ سنتحدث عن المذكر ، والمؤنث يتبعه في كل ما نقول : فالآخر هو ثاني الاثنين ، فإذا أبهمتها معاً فكلاهما يصلح أن يقال عليه أحد التي تفيد عدم التحديد ، لذلك إذا أردت الكلام عنهما فأيهما بدأت لا يمكنك أن تقول عنه : إلا أحدهما (لأنك تتحدث عن أحد غير المحددين ، وكلاهما كذلك) فإذا أردت ذكر الثاني ، فأنت بتحديد المبهم الأول أصبحت ممايزاً له ، فلا يصلح إلا كلمة (الآخر) ولهذا يتلزم ذكر (أحدهما ، الآخر) . فإذا أردت أن تذكر أحدهما بوصف ، فيظل الثاني إذا لم تصفه أيضاً يحمل كلمة الآخر ، وهكذا نقف على التعريف العلمي لكلمة الآخر : هو المجهول الثاني ، ولا يأتي إلا بعد ذكر توأمه سواء جاء هذا التوأم الأول محددًا أو مبهمًا . ويمكنك أن تقول : هو ثاني المجهولين غير المذكور أولاً .

*وقد تقول فماذا لو كان العدد أكثر من اثنين أي مبرر لوجود كلمة أخرى:

كلمة «الأخرى» عكس الآخر ، والجمع: «أخر» ممنوع من الصرف لأنه صفة على وزن فُعْل ، ومعناها : فهي مقابل كلمة إحداها . .فهي ثانية الاثنين ، فإن كنت تسمع لامرأتين ، يمكنك بعد أن فرغت من قول الأولى أن تقول : فلتتقدم الأخرى ، ويمكنك وأنت تكلم تلك الأخرى

أن تقول لها ، لكن الأخرى (تقصد الأولى) قالت كذا ، وبذلك تصلح الأخرى لتشير إلى أيٍّ منهما .

وتقنين استعمالها : أنها تقصد ثانية الاثنتين ، وذلك إذا ذكرت الأولى مثل المجموعة الآتية :

وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشَاءُ الْآخَرَى	أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى
وَأُخْرَى كَأَفْرِ	آيَةً أُخْرَى
وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا	وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى
وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ	وَمِنْهَا نَخْرَجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى
وَيُرْسِلُ الْآخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى	ثُمَّ نَفُخْ فِيهِ أُخْرَى
وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا	وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى
وَلِي فِيهَا مَثَابٌ أُخْرَى	ءَالِهَةً أُخْرَى
وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَنْ رَضِعْ لَهُ أُخْرَى	وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْآخْرَى

فكل الأمثلة السابقة مذكورٌ فيها «الأولى» ، لذلك عبر بكلمة «أخرى» عن الثانية تحديداً . أما إذا لم يحدد الأولى ، فكل منهما تصلح أن يكون في الوقت نفسه : إحداهما ، والأخرى . { فَتَذَكَّرَ إِحْدَهُمَا الْآخْرَى } (١) ، فكل منهما تصلح أن تكون «إِحْدَهُمَا» وكل منهما تصلح أن تكون «الْآخْرَى» . فالأخرى مقابل إحداهما .

فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَهُمَا عَلَى الْآخْرَى وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى

فالأمثلة السابقة : كلمة «أخرى» تدل على واحدة من اثنتين لا تعرف أيهما من الآخر ، فكل منهما يصلح أن يُقال عنها : «إحداهما» و

١ سورة البقرة ، الآية (٢٨٢) .

«الأخرى». فهي أخت نفسها ، ويجوز أن تطلقها على أي من الاثنتين .
وقد يقول أحدهم : إن كانت «الأخرى» تعني واحدة من اثنتين فكيف
جاء بها القرآن تعبيراً عن واحدة من الثلاثة في قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتُمْ
أَلَّتْ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ } ^(١) ولعله يقول : ألا ترى ألا ترى أن
كلمة الأخرى زائدة ؟

وأقول : فلو كان معنا على سبيل المثال سبع مسائل ، واحدة منها صعبة
والباقي سهل ، جاز استعمال كلمة الأخرى على أي المجموعتين لأنهما
في هذه اللحظة ليسوا جمعاً ، بل مجموعتين ، فتقول : إن المسألة الأولى
صعبة أما المسائل الست الأخرى فلا صعوبة فيها . تصلح الأخرى هنا
، لأن المسائل الست أصبحت كأنها واحدة . والأمر نفسه في كلامي : إذ
يصلح الأخرى بعد الست إذا كان كانت الست نسقاً واحداً .. في مقابل
الأولى ، فكأننا ليس عندنا إلا اثنتان ، الأولى .. يمكن أن تقول عنها
«إِحْدَيْهُمَا» والست إذا كانت نسقاً واحداً .. تقول عنها «الْآخِرَىٰ» التي
تقابل : إحداهما .

ولربما قال لي : لكنك لم يكن عندك تقابل ، فالأمثلة السبعة كانت
نسقاً واحداً ؟

نعم كلها نسق واحد ، لكني لما عالجتها : شرحت واحداً ، وبقي
الستة ، فكان المثال الأول المشروح نسقاً ، وسائر الأمثلة التي لم تشرح
بعد نسقاً ثانياً ، ومن ثمَّ يجوز أن تستعمل «الْآخِرَىٰ» للتعبير عن النسق
الثاني مهما كان عدده .

والأمر نفسه في القرآن الكريم : جمع ربُّ العزة «أَلَّتْ وَالْعُزَّىٰ» في

١ سورة النجم ، الآية (١٩-٢٠) .

نسق ، فكانتا معاً مجموعة واحدة ، وأصبحت «وَمَوَّة» أخرى بالنسبة لهما معاً ، فصَحَّ وصفها . وهي الثالثة . بالأخرى : لأن الثلاثة اثنتان منهما في مجموعة واحدة ، فنحن أمام اثنتين لا ثلاثة ، وقد جمع الله عزَّ وجلَّ (أَلَّتْ وَأُلْزِي) في نسق ، فأصبحاً معاً مجموعة ، «وَمَوَّة» أخرى بالنسبة لهما معاً .

و في سفر التكوين :

٣ ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالَعَةٌ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ قَبِيحَةٌ الْمَنْظَرِ وَرَقِيقَةٌ
اللَّحْمِ ، فَوَقَفَتْ بِجَانِبِ الْبَقَرَاتِ الْأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ^(١)

. ٢٠ فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الرَّقِيقَةَ وَالْقَبِيحَةُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْأُولَى السَّمِينَةَ . هذا حلم الملك يتحدث عن سبع بقرات ويصفها بالأولى لأنها في نسق واحد (السمينه) فتكون البقرات السبع الرقيقة والقبيحة هي الأخرى ، وهي سبع .

فالتعبير التوراتي يستخدم لفظة الأولى (والأولى مماثلة للأخرى) فهي مقابلها في المعنى ، فإذا كانت الأخرى تطلق على إحدى الاثنتين فالأولى تُطلق على الأخرى منهما .

وهكذا يا عزيزي ، كلمة الأخرى تصلح أن تطلق على أكثر من واحدة إذا كان يجمعهن نسق واحد لتكون بمجموعها في مقابل الأولى «إحداهما» .

* فماذا عن الجمع : وكيف يكون الجمع وقد قلنا أنه لا يكون إلا الثاني ؟؟
فأما مبرر وجود في الجمع ، فليس إلا أن يستمر الكلام عن الثنائية ، أي تكون هناك مجموعتان ، وتكون المجموعة الأولى : أحداهما ، والثانية هي الأخرى .

١ الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، العدد ٢٠ ، الأصحاح (٤١) ، العدد (٢) .

فإذا أردت الإشارة إلى أفراد أي مجموعة منهما : فأفراد المجموعة الأولى :
أول ، والثانية آخر . وهما كلمتان على وزن فُعْلٌ ومنوعتان من الصرف للصفة
ووزن فُعْلٌ ، ولا يزامهما غيرهما .

لكن تتمتع اللغة العربية في هذا السياق بتقنية رائعة عند وصف أفراد الجمع
: فيمكنك أن تصف أفراد الجمع بالنعته الجمع (آخر) ويمكنك كذلك أن
تصف أفراد الجمع بالنعته المفرد (أخرى) ، وطبعاً لأن اللغة مهندسة ولا
تمت للفوضى بصلة فهناك تقنين لكلا الاستعمالين كشفه عنه القرآن ، أو
نقول هدانا القرآن لمعرفة تقنيات لغتنا الهندسية .

أما التقنين الذي يفرق بين الاستعمالين فهو : مجانسة مفردات الجمع أو
تباينها ، فإن كانت المفردات متباينة ، كل منها في واد جاء بالوصف (أخرى
) ليكشف أنها برغم جمعها إلا أنها لا يجمعها رابط ، بينما يستخدم الجمع (آخر)
في وصف الجمع إذا كان مفرداته يربطها رابط :

* { فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ }^(١): جاء وصف الجمع بالصفة الجمع (أخر) لأن
مفردات الجمع يشبه بعضها بعضاً ، فالأيام التي ستصومها
عوضاً عن أيام الفطر في الصيام أي يوم لا يختلف عن
الأخر.

* { وَأُخْرُ مُتَشَبِهَةٌ }^(٢): جاء وصف الجمع بالصفة الجمع (أخر) لأن مفردات
الجمع هي آيات القرآن الكريم وهي تشبه بعضها بعضاً .

١ سورة البقرة . الآيتان (١٨٤) ، (١٨٥) : { أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ } . { وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ }^(١٨٥) .

٢ سورة آل عمران . الآية (٧) : { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ
وَأُخْرٌ مُّتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ
تَأْوِيلِهِ }^(٧) .

* { وَأُخْرَى يَأْسَتِ }^(١): جاء وصف الجمع بالصفة الجمع (أُخْرَى) لأن مفردات الجمع هي السنبلات الرامزة لسنوات الشدة ، وهي سنوات يشبه بعضها بعضاً .

فكما ترى لم يأت النعت الجمع (أخر) إلا وكانت مفرداته تشبه بعضها بعضاً . أي يربطها رابط واحد ، فالأيام التي يتم التعويض بها عن الأيام التي أفطر بها الإنسان لا يختلف بعضها عن بعض ، وكذلك الآيات القرآنية يشبه بعضها بعضاً ، والسنبلات التي رآها الملك في عهد يوسف كان يشبه بعضها بعضاً لأنها كلها ترمز إلى أعوام متشابهة في الشدة .

أما العدول في وصف الجمع إلى النعت المفرد (أخرى) فهذا يتطلب أن تكون مفردات الجمع لا يشبه بعضها بعضاً ، كما سنرى :

* { ءَالِهَةٌ أُخْرَى }^(٢): جاء وصف الجمع بالصفة المفرد (أُخْرَى) لأن مفردات الجمع لا يشبه بعضها بعضاً ، فالآلهة التي يشركونها مع الله سبحانه وتعالى لا إله منها يشبه الآخر ، فهناك الأصنام التي وصل عددها حول الكعبة وحدها قبل الإسلام ٣٦٠ صنم وكانهم يخصصون صنماً لكل يوم من أيام السنة ، وهناك النجوم ، والنار ، البقرة الشمس ، القمر ، بعض المخلوقات مثل الملائكة ، وعيسى بن مريم ، وعزير .

١ سورة يوسف ، الأيتان (٤٣ ، ٤٦) : { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَأْسَتِ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُبِّي } . { وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَأْسَتِ }
{ ٤٦ }

٢ سورة الأنعام ، الآية (١٩) : { وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأَنَّكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ أَيْنُكُمْ لَتَشْهَدُوا أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ }
{ ١٩ }

* { مَثَارِبُ أُخْرَى }^(١): جاء وصف الجمع بالصفة المفرد (أُخْرَى) لأن مفردات الجمع لا يشبه بعضها بعضاً ، ولا يربط بينها رابط ، فكأنها برغم الجمع مفردة ، فمنافع العصا التي يستفيد منها موسى عليه السلام متنوعة ليست من جنس واحد . قد يكون بعضها أفضل من الآخر

مما سبق نرى أن القرآن استخدم لفظة الجمع لوصف (الأيام ، الآيات ، سنبلات) : أَيْكَاهُ أُخْرَ ، وَأُخْرُ مُتَشَبِهَةٌ ، وَأُخْرَ يَأْسَتْ . وذكر الموصوف في (الأيام) وحذفه في الآيات والسنبلات . وعند وصف المآرب ، الآلهة : استخدم الله لفظة المفردة (أُخْرَى) لا الجمع (أُخْرٌ).

وهكذا ترى هندسية اللغة العربية متمثلة في هذا التفريع ، باستعمال وصف وصف مفرد للجمع ، أو وصف جمع له من المادة نفسها ليشير إلى موقف مفردات الجمع من بعضها البعض ، وهكذا نتعرف على القانون الهندسي للجمع ذي المفردات المتنافرة التي لا يربطها رابط وهي أن تستعمل النعت (أخرى) وللجمع ذات المفردات المتجانسة التي يربطها رابط بأن تستعمل النعت (أخر) .



١ سورة طه ، الآية (١٨) : { قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَثَارِبُ أُخْرَى } .

(٣)

معدودة ، معدودات

تستعمل اللغة العربية كلمة معدودة أو معدودات لوصف الجمع ، وقد استخدم القرآن كلتا الكلمتين لوصف الجمع ، ولأن تلك اللغة هندسية ، فلا يمكن أن يكون الاستعمال خبط عشواء ، وما هو إلا له قانون محدد يحكم كلا الاستعمالين .

في البداية نقول إن استعمال كلمة معدودة أو معدودات هو للتكنية بالكلمة دون ذكر العدد ، أي هي بديل للعدد المعزوف عن ذكره . والقانون الذي يحكم ذلك هو معادلة التمييز ، أي أن الكناية العددية تكون مفردة أو جمعاً بموافقة التمييز ، فالعدد الذي تمييزه جمع (من ١٠.٣) تكون الكناية المعادلة له هي الصفة الجمع ، والعدد الذي تمييزه مفرد (فوق العشرة) تكون الكناية المعادلة له هي الصفة المفرد .

أي أن كلمة (معدودات) الجمع تعادل العدد الذي تمييزه جمع ، أي من ثلاث إلى عشرة أي تفيد القلة . وهذا ما جعل الذهن الجمعي اللغوي يقول : إن الجمع السالم جمع قلة .

وكلمة (معدودة) المفردة تعادل العدد الذي تمييزه مفرد ، أي فوق العشرة .

وانظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَشَرَّوهُ بِمَنْ بَحْسِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ (يوسف).

يتحدث عن الثمن الذي بيع به يوسف (دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) مما يعني أنه بيع بأكثر من عشرة دراهم.

وقال الطبري : أصغر أوزانهم كان الأوقية ووزنها أربعون درهما ، فدل على أنها كانت أقل من الأربعين^(١). وذكر الزمخشري : عن ابن عباس: كانت عشرين درهماً. وعن السدي: اثنين وعشرين^(٢) ، وعلل الرازي للقول الأخير بقوله : والإخوة كانوا أحد عشر فكل واحد منهم أخذ درهمين إلا يهوذا لم يأخذ شيئاً^(٣).

والذي قال كانت اثنين وعشرين يشير إلى عدد الإخوة (أحد عشر) يغفل أن بنيامين شقيق يوسف لم يكن معهم .

وأرى أن العدد فوق العشرة ودون الأربعين ، فهو فوق العشرة لاستعمال كلمة معدودة لا معدودات ، وهو دون الأربعين ؛ لأن الأربعين هي الأوقية وهي أصغر أوزانهم .

• { دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ }^(٤) : إن وصف الجمع المعدود بكناية عن العدد لا بد أن يماثل نظام التمييز ، فالوصف إذا جاء مفرداً دل هذا على أن العدد يفوق العشرة ، لأن التمييز يأتي مفرداً بعد العدد عشرة . (نقول عشرة دراهم ، وخمسة عشر درهما) . فقوله { مَعْدُودَةٍ } مفردة فلا يمكن ترجمتها إلا بعدد تمييزه مفرد ، وهذا يعني أنه باعوا يوسف بدراهم تزيد عن عشرة دراهم .

وانظر إلى قوله تعالى :

١ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٣ / ١٥)

٢ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤٥٣ / ٢)

٣ تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٤٣٤ / ١١٨)

٤ سورة يوسف : { وَشَرَّوهُ بِمَنْ بَحْسِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ }.

● {وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [البقرة]

الذكر هو التكبير، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بالتكبير بمنى مع كل حصة يرميها، وعلى فراشه، وفي ممشاه، وفي أدبار كل صلاة. والأيام المعدودات هنا هي أيام التشريق: بدليل قوله (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ) فدلَّ التعبير بالأيام الموصوفة بالجمع إلى عدد من (٣-١٠).

وقد ذكر الإمام الطبري: وهي أيام رمي الجمار. أمر عباده يومئذ بالتكبير أدبار الصلوات، وعند الرمي مع كل حصة من حصى الجمار يرمي بها جمرَةً من الجمار^(١).

وقال الطبري: وإنما قلنا: إنَّ "الأيام المعدودات"، هي أيام منى وأيام رمي الجمار لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فيها: إنها أيام ذكر الله عزَّ وجلَّ^(٢).

وهكذا نجد أن الكناية العددية (فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ) تعبر عن عدد قلة لأن أعداد القلة تميزها جمع، فجاء بوصف جمع معادل لها.

* وقد سميت أيام التشريق بذلك: لأنه بعد نحر الذبائح في يوم النحر، يشرقون لحومها وينشرونها على مواقع الشمس لتيبس، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر، ومن الذكر في هذه الأيام التكبير.

* وقد وصفت الأيام نفسها بوصف آخر هو (فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) ليجمع لتلك الأيام صفتي الكم والكيف، فهي من حيث الكم قليلة (مَّعْدُودَاتٍ) ومن حيث الكيف معلومة بمعنى محددة (مَّعْلُومَاتٍ)، ولا تغنى إحداهما

١ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٠٨/٤)

٢ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢١١/٤)

عن الثانية ، فلو قال معدودات وحسب ، لكان المعنى قليلة لكن لا نعلم ما هي ؟ ولو قال معلومات لكان المعنى محددة ولا نعرف عددها .

* ويبقى سؤال لماذا اختار كل من الوصفين في موضعه فجاء الوصف بالكم أولاً في سورة البقرة ، وجاء الوصف بالكيف ثانياً في سورة الحج ، وذلك لأن في سورة البقرة يحدث تقسيماً فيها فكان المناسب الحديث عن العدد ، وكان الحديث عن شهرتها مناسباً في السورة الخاصة بالفريضة .

وهي ثلاثة أيام بدليل أن الاستثناء جعلها في يومين .
وصف الجمع بكناية عددية يحيل إلى عدد تمييزه جمع أي العشرة فما تحتها ، ووصف الجمع بكناية عددية يحيل إلى عدد تمييزه مفرد أي فوق العشرة .
فكلمة (مَعْدُودَاتٍ) هنا تشير إلى يوم عبد النحر ، وأيام التشريق الأربعة ، فمجموعها خمسة أيام .

وانظر إلى المغايرة في استعمال التعبيرين في قولي اليهود :

• { وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } . سورة البقرة (٨٠)

• { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } . سورة آل عمران (٢٤)

فما قاله اليهود ينحصر في عددين : (٧ أيام) ، (٤٠ يوماً) ولأنهم يكذبون ، فقد ذكر الله قولهم واختلاف القولين ، لكنه عزف عن ذكر الرقمين وكنى عنهما بالتقنية اللغوية : الكناية العددية من خلال معادلة الصفة للتمييز ، فجاء التعبير عن العدد (٧) الذي تمييزه جمع بنعت جمع (معدودات) ، وجاء التمييز عن العدد (٤٠) الذي تمييزه مفرد بنعت مفرد (معدودة) .

[آل عمران]	{ ٢٤ }	مَعْدُودَاتٍ	{ 1 }	مغايرة:
[البقرة]	{ ٨٠ }	مَعْدُودَةٌ	{ 2 }	

الصورة الأولى 1 { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ }^(١) جاء بالنعته الجمع

كناية عن عدد تمييزه جمع أي من (٣-١٠) وهو إشارة إلى قولهم أنهم لن يعذبوا إلا سبعة أيام لأن الدنيا على زعمهم سبعة آلاف سنة ، وأنهم سيعذبون في النار بمعدل يوم واحد عن كل ألف سنة ، فنزلت آية سورة آل عمران تكذبهم .

الصورة الثانية 2 { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةٌ }^(٢) جاء بالنعته

المفرد كناية عن عدد تمييزه مفرد أي عدد فوق العشرة ، وهو إشارة إلى قولهم أنهم لن يعذبوا إلا أربعين يوماً في مقابل عبادتهم العجل تلك المدة أو لأن جهنم مسيرة أربعين يوماً . وقد عزف القرآن عن ذكر الرقم لكذبه ، وقال لهم تعقيباً عليه : (قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

لقد قال اليهود قولين بشأن دخولهم النار ، فمرة قالوا إن الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإن الناس ستعذب في النار سبعة أيام ، بمعدل يوم واحد في النار عن كل ألف سنة ، ومرة أخرى قالوا : سنعذب أربعين يوماً لأننا عبدنا العجل أربعين يوماً فسنعذب عن كل يوم يوماً ، وما يعيننا هنا أن ثمة قولين بشأن دخولهم جهنم :

الأول : سبعة أيام .

١ سورة آل عمران : { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا

يَفْتَرُونَ } { ٢٤ }

٢ سورة البقرة : { وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ

يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } { ٨٠ }

الثاني: أربعون يوماً .

ونزل القرآن يحكي مقاتلهم ، معبراً عن الأولى بجمع القلة (مَعْدُودَاتٍ) وعن الثانية بالمفرد الذي يعني أكثر من عشرة (مَعْدُودَةٌ) . وبذلك جاء القرآن دقيقاً كامل الدقة ، فعبر عن قولهم (أربعين يوماً) بكلمة (مَعْدُودَةٌ) المفردة لتواكب التمييز (يوماً الدال على الكثرة) وعبر عن قولهم (سبعة أيام) بكلمة (مَعْدُودَاتٍ) الجمع لتواكب التمييز (أيام الدال على القلة) .

ومن المغايرة السابقة نجد هذا التقنين اللغوي في استخدام (معدودة ، معدودات) كناية عن العدد بتطبيق تقنية معادلة التمييز . ويكون الوصف الجمع مطابقاً لعدد تمييزه جمع ، والوصف المفرد مطابقاً لعدد تمييزه مفرد .

هذان قولان لليهود عن مدة تعميرهم في النار، ولم يشأل الله عز وجل أن يذكر العددين اللذين ذكرهم اليهود لأنهم كاذبون فيما يقولون، ولذلك كني عن العددين بالكناية الوصفية. أما العددان اللذان عزف عن ذكرهما القرآن، فكانا العددين (سبعة) ، (أربعون).

فالقرآن يحكي مقاتلهم التي ذكروا فيها مكثهم في النار، وقد قالوا قولين، أحدهما سبعة أيام وعللوا ذلك بأن الدنيا عمرها سبعة آلاف سنة، وأنهم سيقضون يوماً في النار عن كل ألف سنة، والقول الثاني الذي قالوه في مرة أخرى هو: سنمكث في النار أربعين يوماً لأننا عبدنا العجل أربعين يوماً قسنمكث في النار يوماً عن كل يوم عبدنا فيه العجل. وثمة رواية أخرى في تعليل الأربعين يوماً هي أن النار طولها مسيرة أربعين يوماً ، فهم سيعذبون بقدر قطعهم للنار وكان النار شارع سيمشون فيه حتى نهايته .

ولم يشأ القرآن أن يذكر القولين فكنى عن كل منهما بكناية تساويه،

فاستعمل تقنية معادل التمييز، ذلك لأن تمييز العدد يكون مفرداً إذا زاد عن عشرة فقط، تقول: أحد عشر رجلاً، تسعون رجلاً، مائة رجل، ألف رجل، خلاف ذلك، أي في أعداد القلة من عشرة فما تحتها فتمييز العدد جمع: تقول: عشرة رجال، سبعة رجال، ثلاثة رجال، إذن لو أردت ألا أذكر العدد، وأكني عنه بالوصف، فالأمر مقنن، فالوصف المفرد يعادل العدد الذي تمييزه مفرد، والوصف الجمع يعادل العدد الذي تمييزه جمع.

أي أن العدد ٤٠ يوماً، لو أردنا أن نعبر عنه بكلمة أيام موصوفة، فالوصف لا بد أن يكون مفرداً لأن تمييز الأربعين مفرد، فتقول أيام معدودة، لكن لو أردت العدد سبعة، فالتكنية بالأيام الموصوفة تستوجب أن يكون الوصف جمعاً لأن العدد سبعة تمييزه جمع، فتقول أيام معدودات.

وهكذا كان قول اليهود بأن النار لن تمسهم إلا (أَيَّامًا مَّعْدُودَةً) ^(١) هي المعادل الكنائي للعدد (٤٠) لأن النعت مفرد يعادل التمييز المفرد، وقولهم إلا (أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ) ^(٢) هي المعادل الكنائي للعدد (٧) لأن النعت جمع يعادل التمييز الجمع.

① { وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً } [البقرة]

② { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ } [آل عمران]

وانظر أن القول ٤٠ يوماً .. التمييز فيه مفرد ، فلو أردت أن تعبر عن هذا الرقم دون أن تذكره : ما الكتابة الصالحة للتعبير عنه ؟؟ إن تمييزه يقود إليه ، لأن العرب لما وضعوا التمييز جعلوا الجمع (للقلة : حتى العشرة) والمفرد للكثرة لما فوق العشرة ، أي أنك لو عبرت بتمييز مفرد فأنت تشير إلى الكثرة أي ما فوق العشرة ، وأن عبرت بتمييز جمع فأنت تشير إلى القلة

١ سورة البقرة، الآية (٨٠).

٢ سورة آل عمران، الآية (٢٤).

أي العشرة فما دونها . إذن الكناية المعبرة عن الأيام الأربعين تكون بالمفرد ، وبالأيام السبعة تكون بالجمع ، وهكذا لما أخفى القرآن العدد وكنى عنه بكلمة أيام فهذا ستكون الأيام معدودات أو معدودة ، فالمعدودات تعادل التمييز الجمع أي تعادل الأعداد من (٣-١٠) ، والمعدودة تعادل التمييز المفرد أي تعادل الأعداد فوق العشرة .

عبادة العجل	٤٠ يوماً	مَعْدُودَةٌ	① البقرة
نسبة من عدد أيام الدنيا	٧ أيام	مَعْدُودَاتٌ	② آل عمران

وقد تسأل لماذا ذكر قولتهم (٤٠ يوماً) في سورة البقرة ، وذكر العدد (٧) في سورة آل عمران ، ولماذا لا يكون العكس ؟

والإجابة إن سورة البقرة تكشف جرائمهم العديدة ، وبخاصة عبادة العجل ، فاختصت بطول المدة ليناسب ضخامة جرمهم ، ولأن عبادة العجل التي ذكروا أنهم سيمكثون في النار بسببها هي سبب قولتهم بالأربعين ، أما في سورة آل عمران فذنبهم المذكور لا يساوي جرمهم في عبادة العجل وهو كذبهم في النسبة الألفية (يوم في النار عن كل ألف سنة) .

وهكذا لما أخفى القرآن العدد وكنى عنه بكلمة أيام فهذا ستكون الأيام معدودات أو معدودة، فالمعدودات تعادل التمييز الجمع أي تعادل الأعداد من (٣-١٠)، والمعدودة تعادل التمييز المفرد أي تعادل الأعداد فوق العشرة.

وهكذا يقدم لنا القرآن قانوناً للكناية العددية، ولا يترك الجواز في فوضى، فكعاداته مع كل نهر لغوي جائز أن يتفرع إلى فرعين أن يقن اتجاهه في كل فرع. وهو هنا:

• الكناية المعبرة عن العدد القليل أن تصف الجمع بجمع يعادل تمييز

أعداد القلة (من ٣-١٠).

• الكناية المعبرة عن العدد الكثير أن تصف الجمع بمفرد يعادل تمييز أعداد الكثرة (١١ - إلى ما لا نهاية).

وهذا قانون مضطرد في القرآن الكريم: فانظر كلمة معدودة جاءت كناية لعدد في القرآن مرتين، الأولى التي عبرت عن العدد أربعين في قول اليهود: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً) ^(١)، والثاني: كناية عن الثمن الذي بيع به يوسف عليه السلام: (وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَّعْدُودَةٍ) ^(٢)، ليكون الذي الثمن الذي بيع به أكثر من عشرة دراهم، ربما عشرون، أو أربعون.

أما كلمة معدودات فجاءت كناية عن العدد سبعة في القول الثاني لليهود: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ) ^(٣) وجاءت في مواضع أخرى تكني عن أعداد قلة معروفة: فأشهر الحج ثلاثة أشهر هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ) ^(٤)، وأيام مناسك الحجة دون العشرة: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ) ^(٥)، أما الريح التي أرسلت إلى عاد فكانت دون العشرة: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسَاتٍ) ^(٦) وقد ذكرها الله تحديداً في موضع آخر (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) ^(٧).

وهكذا نرى أن القانون اللغوي في المعادل الكنائي للعدد: هي الوصف الجمع يعادل العدد الذي تمييزه جمع (جمع قلة) ويكون معبراً عن الأعداد

١ سورة البقرة، الآية (٨٠).

٢ سورة يوسف، الآية (٢٠).

٣ سورة آل عمران، الآية (٢٤).

٤ سورة البقرة، الآية (١٩٧).

٥ سورة الحج، الآية (٢٨).

٦ سورة فصلت، الآية (١٦).

٧ سورة الحاقة، الآية (٧).

من (٣- ١٠) أما الوصف المفرد فيعادل العدد الذي تمييزه مفرد (جملة كثرة، ويعبر عن الأعداد فوق العشرة.

وهكذا نرى أن كل الاستعمالات في الاتجاهين متسقة مع القانون:

$$١. \text{ أَيَّامًا مَعْدُودَةً } = \text{ أَرْبَعُونَ يَوْمًا.}$$

$$٢. \text{ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةً } : \text{ فَوْقَ الْعَشْرَةِ.}$$

$$٣. \text{ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ } = \text{ سَبْعَةَ أَيَّامٍ.}$$

$$٤. \text{ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ } : \text{ ثَلَاثَةٌ.}$$

$$٥. \text{ أَيَّامٌ مَعْلُومَاتٌ } = \text{ بَضْعَةَ أَيَّامٍ.}$$

$$٦. \text{ أَيَّامٌ نَحْسَاتٌ } : \text{ سَبْعَةَ أَيَّامٍ.}$$

وسوف تواجهنا مشكلة هي الرأي الشائع في استعمال (أياماً معدودات) في سورة البقرة الخاصة بالصيام، حيث يعتبرونها خاصة بشهر كامل هو شهر رمضان، والمعلوم بناء على قانون اللغة التي وضعه لنا القرآن والذي يقوم على التعبير عن العدد بكناية وصفية معادلة لتمييزه، فإذا كانت الكناية جمعاً (معدودات) فهي تعادل عدداً تمييزه جمع، وهذا لا يكون إلا إذا كان العدد من (٣: ١٠) وإذا كانت الكناية مفردة (معدودة) فهي تعادل عدداً تمييزه مفرد، أي أن قولهم بأن المقصود بأيام الصيام (أياماً معدودات) هي شهر رمضان أي أن العدد سيكون ثلاثين، سيكون قد ضرب القانون اللغوي في مقتل، وسيصنع فوضى لغوية، وهو ما نؤكد استحالة وجودها، وأن القرآن الكريم كشف لنا هندسية اللغة العربية، وأن كل التفريعات تخضع لقانون صارم لا تخالف، وأن تعبير (أياماً معدودات) لا يمكن لغوياً

إلا أن يكون كناية لعدد تمييزه جمع أي من (٣- ١٠) وهو إذا كان ذلك فهو يتسق مع كل استعمالات القرآن الكريم ، وإن لم يكن كذلك فالتعبير لا يخضع لهندسة لغوية وإنما فوضى تأباها حكمة الله المتحدث في هذا الكتاب ، ونؤكد أن التعبير لغوياً لا يكون إلا معادلاً لعدد قلة من (٣- ١٠) . وأن التعامل مع كتاب الله لا يتم إلا بنسق علمي يجعل من القول متسقاً مع كل الاستعمالات الأخرى في الكتاب ، وقد قلنا أن القانون الداخلي في استعمالات القرآن الكريم يقتضي ذلك حتماً ، وإلا كيف تفسر مغايرة اليهود في مسهم النار بين أيام معدودة ، وأيام معدودات ؟

إن قوله (أياماً معدودات) في آية الصيام بناء على هندسية اللغة لا بد أن تعادل عدداً تمييزه جمع لأن النعت جمع، أي من (٣- ١٠)، فلذلك قلنا إن استحالة أن تعبر عن شهر رمضان. والقرآن لا يتحمل خطأ أصحابه.. ولا يمكن حتى لا نخرج المفسر مخطئاً، نفقد القرآن ميزته في الدقة، والبناء الهندسي الذي لا يتناقض.

القرآن كما ترون لغة هندسية، لا فوضى فيها، ولا عشوائية. فقول المفسرين بأن المقصود ب (أَيَّامًا مَعْدُودَات) هو شهر رمضان، لهو تفسير يوقع القرآن في مشكلة لغوية وهي استعمال جمع القلة للتعبير عن عدد ليس قليلاً (٣٠ يوماً). ويصنع فوضى لغوية عاجزة عن التبرير عن سر استعمال التعبيرين، والأصل أن تفهم مدلولات الاستعمال أولاً ثم تفهم المراد، لا أن تلوي الاستعمال للفهم المسبَّق في بالك.

وسوف ترى أن ما قالوا أن الأيام المعدودات هي رمضان لديهم مشاكل كثيرة لا يمكنهم أن يجيبوا عنها، إلا بإجابات واهية لا تحمل أي جينات إجابات القرآن الرواسي.

فنحن نرى أن تلك الأيام المعدودات ليس مقصوداً بها رمضان، ولو أراد رمضان لقال أياماً معدودة، وما هي إلا صيام تدريبي يمهد لشهر رمضان الذي يبدأ الكلام عنه بذكر اسمه (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ^(١). أما ما قبل ذلك فهو الكلام عن صيام تدريبي يسبق رمضان. وكان لا يتجاوز عدة أيام (٣-١٠) لذلك عبر الله عز وجل عنها بتعبيره الدقيق (أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ) ^(٢) الذي يعادل العدد ذي التمييز الجمع، ومواكباً مع كل استعمالات القرآن الكريم، وما كان الله ليخالف قانونه. وما كانت تعبيرات القرآن إلا في اتساق هندسي غير متضارب:

وانظر لاستعمال كلمة (مَعْدُودَاتٍ) في مراتها الثلاث:

١. لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ : سبعة أيام.

٢. وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ: أيام التشريق الثلاثة.

٣. أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا:

هذا المثال الثالث: أمامك أن تجعله شهر رمضان، أو تجعله ثلاث أيام.. فلو جعلته شهر رمضان فقد صنعت فوضى لغوية لاستعمال ذات الكلمة للتعبير عن قلة وكثرة، ولو عدلت عن جعله شهر رمضان ستجد أن كل الاستعمالات تعبر عن جمع قلة انطلاقاً من القانون أن الصفة تعادل التمييز، والتمييز في أعداد القلة يكون جمعاً، وهنا الوصف جمع.

١ سورة البقرة، الآية (١٨٥).

٢ سورة البقرة، الآية (١٨٤).

آل عمران	مَعْدُودَاتٍ ط	٧ أيام	زعم اليهود عن إقامتهم في النار
البقرة	مَعْدُودَاتٍ ط	٣٠ يوماً	شهر رمضان
البقرة	مَعْدُودَاتٍ ط	٣ أيام	أيام التشريق في عيد الأضحى.

وفي رأينا أنها تعني عدداً أقل من العشرة، فلو اعتبرتها جمع قلة فهناك رابط يجمع بين استعمالاتها كلها، أما لو انجرفنا وراء من فسرهما بأنها شهر رمضان، فسرى خلطاً في دلالتها على القلة والكثرة، وهذا لا يمكن أن يكون في القرآن:

ولو كانت كذلك فهي لم تأت في القرآن سوى في سياق متسق يفيد القلة التي تقف عند العدد عشرة في جميع استخداماتها .

ونحن نرفض القول بأنها جمع قلة، لكنها عبّرت عن شهر رمضان لتفيد التخفيف، فالقرآن لا يخطأ في اللغة. بل هو يقنن اللغة: فنحن في آيات سورة البقرة أمام نوعين من الصيام، صيام تدريبي فرضه الله عز وجل على المؤمنين قبل فرض شهر رمضان ليهيئهم لشهر رمضان، وهذا الصيام التدريبي سبق فرض شهر رمضان.

ولنبداً في إثبات أن هناك نوعين من الصيام:

١- صيام تدريبي (من ٣-١٠) أيام يسبق رمضان.

٢- صيام رمضان (شهر).

والبحث العلمي يقتضي أحد أمرين : أن تثبت وجود الاثنين ، أو على الأقل تضع الرأي الذي تعارضه موضع البحث ، فإذا لم يثبت للنقد دل على استبعاده ، وهذا ما سنفعله ، تعالوا بنا نضع الفرض الذي نرفضه موضع البحث ، يقولون : تلك الأيام هي أيام رمضان ، حسناً فلنناقش ذلك ، ولنر هل الحديث القرآني يتفق مع ذلك أم لا .

أولاً : تعدد الأمر بالصيام مرتين :

- الأمر الأول : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ } ^(١) .
- الأمر الثاني : { فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ } ^(٢) .

ولو كان الكلام عن صيام واحد هو رمضان ، ما تعدد التكليف به ليكون اثنين: فما تعدد الأمر بالتنفيذ إلا لتعدد التكليف .

ثانياً ذكر مدتين زمنيتين :

- المدة الأولى : { أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ } ^(٣) .
- المدة الثانية : { شَهْرُ رَمَضَانَ } ^(٤) .

ولا حاجة لذكر مدتين واحدة صريحة هي شهر رمضان ، والأخرى كناية ، فلا مبرر للكناية مع وجود التصريح المباشر نفسه .

لكن يستقيم الأمر لو كان هناك صيامان فتكون المدة الأولى للصيام الأول التدريبي، والثانية للصيام الثابت، وإن كانت المدة الأولى هي رمضان، فما الحاجة لذكرها، وشهر رمضان يغني عنها، وهي تغني عنه. ناهيك لعدم

١ سورة البقرة، الآية (١٨٣) .

٢ سورة البقرة، الآية (١٨٥) .

٣ سورة البقرة، الآية (١٨٤) .

٤ سورة البقرة، الآية (١٨٥) .

الدقة التي تعالى القرآن عنها.

كما أن شهر رمضان عدد أيامه (٢٩ يوماً) أو (٣٠ يوماً) بينما الكناية العددية تأبى أن تكون إلا عدد قلة ، فيكون هناك سبيلان للإبطال : الجمع بين التصريح والكناية ، مخالفة التصريح لما تعنيه الكناية ، ولا يكون ذلك إلا لعددین مختلفین .

والخلاصة : إن كانت المدة الأولى هي رمضان ، فما الحاجة لذكرها ، وشهر رمضان يغني عنها ، وهي تغني عنه . ناهيك لعدم الدقة التي تعالى القرآن عنها .

ثالثاً: ذكر رخصة الإفطار مرتين:

• الرخصة الأولى: { فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (١) .

• الرخصة الثانية: { وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ } (٢) .

فلو كان الصيام متحداً، ما الحاجة لتكرار الرخص مرتين ؟ وكيف عند التكرار ألا يكون تكرارهما متحداً.

رابعاً: اختلاف الرخص:

إن تكرار الرخص يكفي لنفي الوحدة، فما الحال إذا كانت الرخص مختلفة، فرخص الإفطار التي ذكرت أولاً كانت ثلاثة، ورخص الإفطار التي

١ سورة البقرة، الآية (١٨٤) .

٢ سورة البقرة، الآية (١٨٥) .

ذكرت ثانياً كانت اثنتين فحسب.

خامساً: الرخصة الزائدة في الصيام الأول تأتي أن يكون الصيام رمضان، لأنها رخصة إفطار للقادر على الصيام.. فلو كان يباح للقادر على الصيام بالفطر في مقابل إطعام مسكين واحد، ما صام غني، بل ما صام متوسط الغنى. لكن إن كان ذلك صياماً تدريبياً لن يدوم، فلا يضر معه أن يباح الإفطار لمقتدر على الصيام.. ويكفيه التطوع، ثم مع رمضان تلغي تلك الرخصة، فيجب أن يصوم الجميع إلا المريض والمسافر فحسب..

لقد ورط الخلط بين الصيامين كثيرين ، ففسروا كلمة { يُطِيقُونَهُ }^(١) تفسيراً خاطئاً، فظنوا لأنها رمضان، ومن المستبعد أن يسمح للقادر على الصيام بالإفطار، فقالوا أن يطيق معناها لا يطيق، ونسوا أن القرآن استعمل تعبير { لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ }^(٢) ، { رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ }^(٣) وفي المرتين منفية تعبر على عدم التمكن باقتدار، فعندما تأتي مثبتة يكون المعنى أنهم ممن يقدرّون بتمكن على الصيام .

وكيف يمكن لأحد أن يقول بأنها تعنى (لا يطيقونه) والقرآن نفسه يقول بعدها (وأن تصوموا خير لكم) أي أنه من البداية يخاطب قادرين على الصيام .

لا يستقيم الأمر إلا إذا كان الصيام ذي الاستثناءات الثلاثة هو صيام تدريبي يخبرون فيه (تفتدي نفسك بطعام مسكين ، وهو خير له أي ليس مقصراً) ، ثم يقول { وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ }^(٤) فلم يقل وإن يصم خير له ، لأنه وصف الذي يطيق الصيام ولم يصم وافتدى

١ سورة البقرة، الآية (١٨٥) .

٢ سورة البقرة، الآية (٢٤٩)

٣ سورة البقرة، الآية (٢٨٦)

٤ سورة البقرة، الآية (١٨٤) .

بطعام مسكين بقوله { فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ }^(١) فما كان بعد أن أثبت له الخيرية فيما فعل ، أن يجعل من قام بالصيام خيراً دونه . فهنا لا يخير بين اثنين أحدهما صام ، والآخر افتدى .. بل هو لا يقلل من شأن المفتدي ، لكنه لا يريد أن يقوم الجميع بالافتداء ، وإلا فقد الصيام التدريبي هدفه .. وهكذا .. ترى أن تكرار الرخصة ينفي أن يكون الصيام واحداً .. وأن يختلف عدد الرخص في المرتين .. يدعم ذلك .. وأن يكون الاستثناء الزائد في الصيام الأول لقادر على الصيام .. لمن الخطورة أن يجعل صيام رمضان ، وإلا لكان تصريحاً لكل الأغنياء بالألا يصوموا .

سادساً هناك مغايرة في الرخصتين المتشابهتين: انظر إلى المغايرة الآتية:

• (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا)^(٢): زاد منكم هنا لأنه يخاطب المسلمين في عصر القرآن، فهم مستحضرون. لأن هذا الصيام ليس صيام رمضان المفروض على المسلمين كافة في عصر النبي إلى يوم القيامة، بل هو الصيام الأول الذي هو (أياماً معدودات) ولفظة معدوات جمع قلة لا يتجاوز العشرة، فهي بضعة أيام قد تكون سبعة أيام فرضت على المسلمين قبل فرض شهر رمضان. وهذا الصيام الأول كان خاصاً بالمسلمين الأوائل في عصر النبي لهذا صلح استحضارهم بلفظة الخطاب .

• (وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا)^(٣): لم يكن في حاجة إلى وضع لفظ (مِنْكُمْ) لأن هذا الصيام هو الصيام العام لجميع المسلمين سواء في عصر الرسول أو بعده إلى يوم القيامة، وهو صيام رمضان، فهناك أناس مخاطبون، وأناس

١ سورة البقرة، الآية (١٨٤) .

٢ سورة البقرة: الآية (١٨٤)

٣ سورة البقرة.. الآية (١٨٥)

لم يولدوا بعد، فالخطاب يصلح للجزء الأول فحسب، وليس في حاجة إلى ذكره، إذ يغنى عنه الخطاب الأول لهم، فهو يواصل الحديث لهم، لكنه حذف لفظة الخطاب الخاصة بهم ليوسع الدائرة ولا يقصر الخطاب عليهم.

سابعاً : لقد قال الله عزَّ وجلَّ في الصيام الأول : { كَمَا كُنِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ }^(١) فهل ينطبق ذلك على صيام شهر رمضان ؟ هل شهر رمضان مما كتب على الذين من قبلنا .. أم أن المقصود مطلق الصيام لا مخصوص رمضان ، فإن كان مطلق الصيام فهو ما نقرره بأنه صيام .. لكنه ليس صيام رمضان ، فالعبارة تنطبق على الصيام التدريبي لا صيام رمضان.

المثلية هنا في مفهوم وجوهر الصيام، فالسابقون كتب عليهم صيام، وكذلك المسلمون يكتب عليهم الصيام، لكن قد يكون للسابقين صيام مختلف.

ولاشك أن المثلية هنا تنفي أن الصيام المقصود ليس شهر رمضان، لأن رمضان خصوصية للمسلمين لا يشابههم فيه صيام من كان قبلهم. ولكن هناك مفهوم وماصدق، فالمفهوم وهو الصيام كتب علينا وعليهم، ولكن تطبيق الصيام يختلف هنا وهناك.

ولما سئل كيف يكون (كما كتب على الذين من قبلنا) ونحن نرى النصراني يصومون أكثر من صيامنا وفي غير شهرنا؟ أجاب الفراء عن ذلك على لسان الشعبي: لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذي يشك فيه فيقال: من شعبان، ويقال: من رمضان. وذلك أن النصراني فرض عليهم شهر رمضان كما فرض علينا، فحولوه إلى الفصل. وذلك أنهم كانوا

١ سورة البقرة، الآية (١٨٢) .

ربما صاموه في القيظ فعدوه ثلاثين يوماً، ثمَّ جاء بعدهم قرن منهم فأخذوا بالثقة في أنفسهم فصاموا قبل الثلاثين يوماً وبعدها يوماً، ثمَّ لم يزل الآخر يستن سنة الأول حتَّى صارت إلى خمسين^(١).

وواضح من الكلام أن الشعبي فهم أن النصراني فرض عليهم مثل المسلمين شهر رمضان ثم ظلوا ينقلونه ويزيدون الأيام حتى أصبحوا يصومون أكثر من صيامنا وفي غير شهرنا.

وهذا غير صحيح لأن رمضان اختصاصاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. وما فرض على الأمم الأخرى الصيام فحسب، ولكن ليس الصيام الرمضاني. ولذلك كان التكليف الأول للمسلمين هو جوهر الصيام فحسب، فكان مثل السابقين في استيجاب الصيام.

ثامناً : كان الصيام التدريبي مثل صيام الذين من قبلنا ، فكان الرجل يبدأ صيام اليوم التالي من العشاء ، أي أن مدة الإفطار هي المسافة الزمنية القصيرة بين المغرب والعشاء فحسب ، وليس هذا فحسب ، فلو نام وأدركته العشاء فلا يحق له أن يفطر ، وعليه أن يكمل صيامه لليوم التالي . فهل هذا ما يعرفه الناس من صيام رمضان .. ؟؟

مدة الإفطار ساعة واحدة ، والصيام ثلاثة وعشرون ساعة ، ولو فاتته الوقت وقت الصيام فكان نائماً .. أو صلى العشاء قبل أن يفطر فلا إفطار .. فهل هذا ما يعرفه الناس من صيام رمضان ؟؟ وطبعاً لا تسأل .. عن السحور ، إذا كان الإفطار ذاته مهدداً .. فكثيراً ما يضيع عليهم الإفطار .. هذا في الصيام التدريبي ، أما رمضان فقد امتدت رحمة الله للمسلمين : فامتدت المدة من المغرب إلى الفجر ، وأبيح السحور : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ

١ معاني القرآن للفراء (١/ ١١١)

الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْيَلِّ { (١) . فالسحور هدية ربانية خاصة برمضان ، لم يحصل عليها السابقون ، ولا المسلمون في صيامهم التدريبي .

تاسعاً : كان في صيام السابقين ، وكذلك في الصيام التدريبي يمنع للرجل أن يلمس امرأته .. فنزلت الرخصة خاصة برمضان : { أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ } (٢) .

عاشراً : رمضان لا يسمح بالوصال في الصيام لأن هناك مسافة زمنية طويلة بين الإفطار وبداية صيام اليوم التالي ، فما تفسير وصال المسلمين في أول الإسلام في صيامهم ؟؟

١ سورة البقرة، الآية (١٨٧)

٢ سورة البقرة، الآية (١٨٧)

وهكذا تؤكد الاختلافات السابقة بأن لدينا صيامين:

الكلمة	الصيام الأول (التدريبي)	الصيام الثاني (رمضان)
مدته	أيام معدودات من ثلاثة إلى سبعة.	شهر.
التكليف	كُنِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ	فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .
عدد الاستثناءات	استثناءان	ثلاثة استثناءات
نوع الاستثناء	فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ^ع وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ	وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ^ع .
مماثلته لصيام السابقين	كَمَا كُنِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ	خاص بالمسلمين.
مدة الإفطار	ساعة واحدة تنتهي مع صلاة العشاء.	من المغرب حتى الفجر (السحور).
النساء	لا يجوز	يجوز.

مما سبق نفهم أن ثمة لبساً في فهم الآية أدى إلى الظن بأن المقصود رمضان، برغم أن الحديث عن رمضان لم يأت إلا بعدها، وبناء على ظنه فهم أن الجمع يعبر عن ثلاثين يوماً هم أيام رمضان. ولو كان يقصد رمضان ما قال أياماً معدودات، لأن رمضان يحدد المدة فلا داعي لإبهامها .

وبذلك نرى أن لفظة (مَعْدُودَاتٍ) جاءت ثلاث مرات لتعبر عن :

١. سبعة أيام يقضيها اليهود في النار

٢. لتعبر عن ثلاثة أيام هي أيام التشريق

٣. بضعة أيام من ٣ : ١٠ لتعبر عن الصيام الذي فرض على المسلمين قبل فرض صيام رمضان .

فقبل رمضان كان من يطيق الصيام مُخَيَّرًا بين أن يصوم أو أن يفطر ويطعم بدلاً منه مسكيناً ، فمن تطوع فهو خير له ، وصيامه خير له ، لكن له الرخصة في أن يفطر ويطعم بدلاً من ذلك مسكيناً .

في رمضان لا يجوز ذلك لابد أن يصوم . ولا يعفى من الصيام إلا لعذري السفر والمرض ، فيؤجل له الصيام .

مما سبق نفهم أن ثمة لبساً في فهم الآية أدى إلى الظن بأن المقصود رمضان ، برغم أن الحديث عن رمضان لم يأت إلا بعدها ، وبناء على ظنه فهم أن الجمع يعبر عن ثلاثين يوماً هم أيام رمضان . ولو كان يقصد رمضان ما قال أياماً معدودات ، لأن رمضان يحدد المدة فلا داعي لإبهامها في قوله : مَعْدُودَاتٍ .



(٤)

رأى - أرى

الرؤية المنامية يتم التعبير عنها بفعل الرؤية ، والراوي لمنامه يرويهِ بعد أن يصحو من نومه ، فكل المنامات ماضية ، فلماذا يتم التعبير عنه مرة بالماضي وأخرى بالمضارع ، إذن التعبير المنامي لا علاقة له بالزمن الماضي ، وما التعبير بالماضي أو المضارع إلا لدلالة أخرى غير تحديد الزمن ، وباستبعاد الزمن فإننا نرى أن تغير الصيغة بين الماضي والمضارع هو لبيان العدد : فالمضارع يدل على تكرار المنام ، والماضي يدل على حدوثه مرة واحدة

المنام بالطبيعة شيء قد انقضى ، فالتعبير عنه بالماضي أو بالمضارع لا يجعله في أحد الزمنين ليس ماضياً ، ففيهما معاً المنام حدث ماض ، أي أن التعبير بالزمن لا يفيد المضي أو الحال ، ولكنه يفيد المرة الواحدة أو التكرار ، لذلك فيستخدم القرآن للمنام الماضي بطبيعته صيغة الماضي للدلالة على رؤية المنام مرة واحدة ، ويستخدم صيغة المضارع للمنام الماضي بطبيعته للدلالة على تكرار المنام . فهذا التكرار هو ملمح التجدد في المضارع فيناسبه التعبير عنه بصيغة المضارع .

يأتي الفعل ماضياً للدلالة أنه لم يحلمه سوى مرة واحدة ، ولو جاء به مضارعاً لدل على رؤية الحلم أكثر من مرة كما سيأتي بعد ذلك في حلم صاحبي السجن (إني أراني) ، وحلم الملك (إني أرى) وكذلك رؤيا إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه (إني أرى) .

فالفاعل الماضي هنا لا يفيد دلالاته المعروفة وهي المضي، وكذلك المضارع لا يفيد دلالاته المعروفة وهي الحاضر المتجدد، وذلك لأن الرؤيا المنامية سواء استعملها لها الماضي والمضارع هي ماضية، يحكيها الرائي بعد أن استيقظ من نومه، فعند تساوي المضارع والماضي في تحقيق معنى المضي، يفقد الماضي هنا تميزه، ويكون الاستعمال مقصوداً به معنى آخر غير الوظيفة الفارقة التي لم تعد فارقة، وهنا يكون الماضي مقصوداً به الرؤيا المنامية للمرة الواحدة، ويكون المضارع للرؤيا المنامية المتكررة أكثر من مرة.

الاستعمال الأول :

• ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف).

جاء الفعل المنامي ماضياً لأن الصبي رأى المنام مرة واحدة ، ولما رآه أخبر به أباه .

وقد كرر فعل الرؤية مرتين (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) ، (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) وذلك لأنه رأى الذوات أولاً قبل سجودها ، ثم رأى الذوات وهي متلبسة بالحدث ، فالذوات قبل السجود كانت ثلاثة عشر ، وعند السجود رأى أحد عشر فحسب يسجدون ، في وجود اثنين لم يشاركا في السجود .

فالأب والأم لم يسجدا له ، وقد تقول : كيف وقد جاء التعبير عنهما بقوله (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) معطوفين مما يعني اشتراكهما في الفعل ؟ وأقول لك : النصب لا يقطع بالعطف ، فهناك وجه إعراب آخر نراه الأولى عند الاتجاه إلى عدم سجود الأبوين لابنهما ، وهي أن نعرب الشمس مفعولاً معه ، وليس معطوفاً على ما قبله ، ولا يصلح الوجهان معاً أبداً، لأنه على التقدير الأول: يكون الساجدون له ثلاثة عشر فحسب، وعلى التقدير الثاني يكون

الساجدون له أحد عشر فقط.

لكن ما معنى المفعول معه في النحو؟ المفعول معه هو اسم واوي أي تسبقه واو وهذا الواوي يفارق الفعل قبله، فلا يشترك فيه. فمثلاً تقول جلس الرجل والنيل، فالنيل واوي لكنه مفارق للفعل فلا يجلس كما يجلس الرجل قبله.

فعلى هذا لو اعتبرنا الشمس مفعول معه كان ما ترمز إليه وما بعده (القمر) لا يشاركان في فعل السجود، أي لو اعتبرناها مفعولاً معه فهذا يعني أن السجود كان للإخوة فحسب، ولم يشارك فيه الأب والأم. أما لو كانت معطوفاً على ما قبلها فهذا يعني اشتراك ما ترمز إليه وما بعده في السجود فيكون السجود جامعاً للجميع الإخوة والأبوين.

وكما قلت استحالة الجمع بين وجهي الإعراب لاختلاف عدد الفاعلين في كل منهما.

والبحت هنا يؤكد أن الكلمة لا يجوز إعرابها إلا على وجه المفعول معه خلافاً لمن أعربها مفعولاً به^(١)، فهي لا تصلح إلا مفعولاً معه بدلالتها على استبعاد الأبوين من السجود.

وأدلتنا على ذلك تفسير المنام في نهاية سورة يوسف:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ (يوسف).

١. لأن يوسف رفعهما على العرش (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) ، وبذلك فصل بينهما بمكان خاص، لن يقف معهم فيه الإخوة، وهنا السؤال: فأين يكون مكان يوسف نفسه ؟؟ لن يكون محاذياً لهما وإلا كان السجود لثلاثتهم. والقرآن يحصر السجود له فحسب (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) وكذلك لن يكون في

١ الجدول في إعراب القرآن (١٢ / ٢٧٩). إعراب القرآن وبيانه (٤ / ٤٥٠). إعراب القرآن للدعاس (٢ / ٧٨)

مقابلتهما . وإلا كان السجود منهما فحسب. إذن مكان يوسف سيكون على أحد الجانبين، ويكون الإخوة في المقابل منه. وهنا تكون قبلة السجود (يوسف) ليست متاحة للفريقين، فلو سجد الإخوة كان سجودهم ليوسف، ولو سجد في الوقت نفسه الأبوان ما كان السجود ليوسف. ولأن الجهة منفكة أي لو سجد الأخوة ليوسف سيكون سجود الأب والأم ليس له لأنه على جانبهما وليس مقابلاً لهما . فالسجود لم يتم من الفريقين معاً.

٢. قوله (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) الفعل خَرَّ لا يصلح مع الجالسين، لأنَّ الخر، وأنت لا تقف على قدميك يعني السقوط على الوجه، وبذلك لكون الأبوين على العرش يستحيل أن يشاركوا في فعل الخرور. ولا يستطيعه سوى الإخوة لأنهم واقفون في مواجهة يوسف. فلأن الخر لا يكون إلا من الوضع واقفاً، مما يعني أن الأبوين المرفوعين على العرش لا يمكنهما أن يخرا .

٣. مناداة يوسف لأبيه (يَتَأَبَّتْ) تفيد أنه لم يكن من الساجدين ، فلو سجد الأب مع الساجدين ما استطاع يوسف أن يكلمه ويقول له: يا أبت.

٤. استعمال اسم الإشارة (هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ) لا يكون أبداً لساجد لأن الإشارة تقتضي أن يرى المتحدث الإشارة ، فلا تكون الإشارة إلا إذا كان يوسف يشير لأبيه غير الساجد إلى فعل إخوته الساجدين . ولا تصلح أن تشير لأحد لا ينظر إليك، ولا يمكنه أن ينظر إلى المشار إليه، بل لابد أن ينظر إليه وينظر حيث أشار مما يعني استحالة أن يكون ساجداً معهم، وهذا يعني أن الأب كان حاضراً للسجود غير مشارك فيه وإلا كان استعمال اسم الإشارة (هذا) عبثاً. ووجود الأب حاضراً لفعل السجود دون مشاركته فيه هو تحقق لمفهوم الموقع الإعرابي: المفعول معه.

٥. تلك المفارقة في السجود تكشف عن سر تكرار فعل الرؤية في المنام

الذي قصه يوسف صغيراً على أبيه، فلو لم يكررها لكان من رأيهم حتماً هم الساجدين، لكن تكرارها يعني أنه من الممكن أن يرى عدداً بفعل الرؤية الأول قبل السجود، ثم يري بعضهم دون البعض الآخر يقومون بفعل السجود بفعل الرؤية الثاني.

(٦) أن الأبوين أكرم على الله من أن يجعلهما يسجدان لابنهما، إن الغاية من السجود هو استلال الحسد الذي نشأ في نفوس الإخوة نحو أخيهم، ولا غضاضة أن يشاركهم السجود شقيقه المحب له، لكن أي حسد كان عند الأبوين المعذبين في غيابه، إن يعقوب لم ينس ابنه أبداً حتى عوتب من أولاده في ذلك بأن مواصلته ذكر يوسف ستقضي عليه، ووصل به الحزن إلى أن فقد بصره من بكائه عليه. ولم يدخر جهداً في البحث عنه، حتى أنه من أرسلهم في المرة الأخيرة التي انتهت باللقاء: {يَبْنَئُ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (١)، وكان ذلك بعد أكثر من عشرين سنة من افتقاد يوسف، إن يعقوب لم يقصر أبداً مع يوسف ابنه، بل لعل يوسف كان يعلم مكان أبيه ولم يختصر على أبيه معاناته ليصل إلى هدفه باستلال الحسد من إخوته.

وهكذا كان تكرار فعل الرؤية للإشارة إلى اختلاف فعل من رأيهم، فقد رأى ثلاثة عشر أولاً، ثم رأى فعل السجود من بعضهم (أحد عشر فحسب) فكان لا بد من تكرار الرؤية لبيان اختلاف المرتئين في الفعل.

- الرؤية الأولى للذوات (الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر).
- والرؤية الثانية للحدث الصادر منهم وهو السجود له تحديداً.

ولو حذف الرؤية الثانية ما قطع بأن السجود اختص به يوسف، فقد رأى

١ سورة يوسف . الآية (٨٧) .

الذوات، أولاً غير ساجدة، تقف أمامه، ثم بعد ذلك رأهم وقد قاموا بالسجود، فقطعاً السجود له، أما لو رأهم من البداية ساجدين، فقد يكون تلك حالتهم له ولغيره.

لورأهم ساجدين من أول مرة، ما فهم أنه يسجدون له، فلعل تلك طبيعتهم لكل أحد، لكن كان لا بد أن يراهم في حال أولاً، ثم يقومون بالسجود له.

لذلك كان لا بد أن يعيد فعل الرؤية مرة أخرى ليمنع الفهم أنهم كانوا ساجدين قبل أن يظهر، فيكون السجود لغيره، لذلك فالاكْتفاء به يجعل المعنى ناقصاً.. أما ذكر الفعلين معاً فقد حقق الآتي:

١. الفعل الأول: رأى الذوات دون سجود.

٢. الفعل الثاني: رأى الذوات وقد سجدت، فكان السجود قصداً من أجله.

وبذلك يكون فعل الرؤية الأول خاص بالذوات (الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر) دون سجود، وفعل الرؤية الثاني خاص بالحدث نفسه الصادر منهم، وهو السجود تحديداً.

كما أن تكرار الفعل يسمح بحرية ألا يكون الجميع ساجداً، فالإقتصار على الفعل الأول دون تكراره يستوجب أن يكون الذوات جميعهم قاموا بحدث السجود، أي وجوب أن يسجد الثلاثة عشر الذين رأهم، لكن تكرار الفعل يسمح أن يكون يسجدوا جميعاً، أو لا يسجد بعضهم. والبحث هنا ينتصر لعدم سجود الأب والأم له، فلو لم يكرر الفعل الثاني لكان سجودهم واجباً، لكن تكراره يسمح بأن نرى السجود إما لهم جميعاً.. أو لبعضهم.

استعمل ضمير العقلاء (هم) ولم يقل (رأيتهن ساجدات)، لأن السجود تكربة، وإذا صدرت التكربة من غير عاقل تفقد التكربة مكانتها.

وضمير العقلاء يشير إلى أن يوسف كان يعرف أن

تكررت (رأيت مرتين) في تلك الآية: لاختلاف الرؤيتين، فالرؤية الأولى كانت للذوات، والثانية للحدث الذي صدر من تلك الذوات. وكذلك لأن كل الذوات غير مشاركة في الحدث. وقد لمح الرازي إلى ذلك ذاكراً أن القفال رحمه الله قال: ذكر الرؤية الأولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له (١)

الاستعمال الثاني :

● ﴿فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي آرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَأْتِي أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٠٢) (الصافات).

جاءت الرؤية المنامية بصيغة المضارع في منام إبراهيم عليه السلام لذبح ابنه (إِنِّي آرَىٰ فِي الْمَنَامِ) ، فكان تكرار الحلم بنفس الطريقة تأكيداً أن المنام أمر من الله .

وتتفق اللغة مع ما يقال : إنه رأى المنام ليلة التروية ، فلما أصبح تروى في نفسه أي فكر من الصباح إلى الرواح : هل هذا الحلم من الله أم من الشيطان ؟ فسمى هذا اليوم التروية ، ثم لما نام رأى الحلم ثانية فصحا يوم عرفة وقد عرف أن المنام من الله تعالى ، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة ، فصحا يوم النحر وقد همَّ بالنحر ، فسمى يوم النحر . فأخبر ابنه ، واصطحبه لينحره ، ثم نحر الكباش في هذا اليوم بدلاً من ابنه ، فثبت اسم يوم النحر على هذا اليوم برغم أنه لم ينحر .

قد تقول فلماذا اختير المنام لتبليغ إبراهيم عليه السلام أمر ربه ؟ والجواب رحمة به ، لأنه لوجاءه الملك بهذا الأمر في اليقظة لوقع الأمر عليه موقع الصدمة، لكن لما يأتيه في المنام ، يكون بين الأخذ والرد ، لعلها ليست
١ تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨ / ٤١٨)

رؤيا ، لكني نبي ، ورؤيا النبي حق ، سنرى لعل الله يحسم حيرتي .. وهكذا .. حتى إذا رأي الرؤية مرة ثانية .. تأكد أنه في اختبار .. أو رد الاختبار ، فقد طلب من ربه قبلاً : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ وها هو ربه الآن يقول له : وأنا أطلب منك يا خليلي أن ترني كيف تميت الحي الذي تحيا به ؟ وقال الزمخشري : أن ذلك لتقولية الدلالة على كونهم صادقين مصدوقين لأنّ الحال إما حال يقظة أو حال منام ، فإذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك أقوى للدلالة من انفراد أحدهما .

وقد تقول : إذن احتمال إسماعيل أقوى من أبيه ؟ لأن أباه جاءه الأمر تدريجياً عن طريق المنام ، بينما هو تلقى الأمر مرة واحدة في اليقظة ؟ وأقول لك : لقد اكتسب الابن من أبيه الصبر ، فهو يعلم أن أباه يحبه حباً جماً ، أي أن هذا الأب المحب قد لبس ثوب التصبر أمامه ، فساعدته ذلك . وأرى أن كليهما لا يقل عن الآخر ، وقد وصفهما الله جميعاً بالحلم .

وهكذا يأتي التعبير عن الرؤية المنامية في القرآنية بتفريعين : الصيغة الماضية ، والمضارعة ، وقانون القرآن الكريم في هذا التفرع أن المنام الذي يراه الرائي مرة واحدة يعبر عنه بالفعل الماضي ، لكن إذا تكررت الرؤية فالمضارع هو وسيلة التعبير عن هذا المنام المتكرر . وكذلك جاءت الرؤية بصيغة المضارع لصاحبي السجن ، ولولا ذلك ما انشغلا بها .

الاستعمال الثالث :

● ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَعَجَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَعَجٌ عِجَافٌ وَسَعَجٌ سُنْبُكَتٍ خَضِرٍ وَأَخْرَ يَأْسِتَ بِتَأْيِهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (يوسف) .

استخدم الملك لفظة المضارع لرؤيته لأنه يحلم بتلك الرؤية بشكل متعدد . أي تكررت رؤياه بحذافيرها أكثر من مرة ، فأزعجه تكرارها . فالمضارع

هنا لتكرر الحلم للملك ، وهذا التكرار يجعله مشغولاً به في حاضره فيكون بين المنامين كأنه مازال فيه ،

ولم يذكر الملك أنها رؤيا منامية ، ومع ذلك فهم الناس أنها كذلك ، وقيل لتعارف العرب بينها في كلامها إذا قال القائل منهم: «أرى أني أفعل كذا وكذا»، أنه خبر عن رؤيته ذلك في منامه، وإن لم يذكر النوم. وأخرج الخبر جلّ ثناؤه على ما قد جرى به استعمال العرب ذلك بينهم. قاله الطبري ، ولا أظن ذلك لأن الذين استمعوا للملك لم يكونوا من العرب ، وما الأمر إلا قائل يقول أرى سبع بقرات ، ولا يرى القوم شيئاً مما يراه ، فعدم رؤيتهم هم لما يقول إنه يراه قرينة على أن الأمر ليس واقعاً إلا إذا كان القائل مجنوناً ، فلما كان هو أكملهم ، لم يبق إلا أنها رؤية منامية بقرينة عدم وجود ما يقول إنه يراه مشاهداً أمامهم .

جاءت الرؤية بصيغة المضارع في منام إبراهيم عليه السلام لذبح ابنه، فكان تكرار الحلم بنفس الطريقة تأكيداً أن المنام أمر من الله . وكذلك جاءت الرؤية بصيغة المضارع لصاحبي السجن ، ولولا ذلك ما انشغلا بها.

قال الألويسي إثارة صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية واستحضار الصورة تعجباً^(١) ، والأمر نفسه قاله أبو حيان الأندلسي: فقال: وأرى حكاية حال، فلذلك جاء بالمضارع دون رأيت^(٢): وأرى أن الاستحضار لا يكون لفعل الرؤيا ، وإلا كان الاستحضار لصورته وهو نائم ، ولا يكون الاستحضار إلا فيما يراه في الحلم نفسه لا رؤيته للحلم ، وهذا ما حدث لما استعمل المضارع في قوله (يأكلهن) فهنا المضارع لاستحضار الصورة حقاً تعجباً .

١ تفسير الألويسي = روح المعاني (١/ ٤٣٨)

٢ البحر المحيط في التفسير (١/ ٢٨٠)

الاستعمال الرابع :

• ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِيَّ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِيَّ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣٦) (يوسف).

جاء التعبير (إِنِّي أَرْنِيَّ) مرتين على لسان صاحبي السجن ليوسف عليه السلام ، وهنا لم يكتف القائل باستعمال المضارع : لكنه استعمال ضميري الفاعل والمفعول ليرجعا على المتكلم ، فالفاعل هنا ضمير مستتر تقديره أنا ، والمفعول به كذلك هو ياء المتكلم أي أن فاعل الفعل ومفعوله واحد .

فأما المضارع فللتكرار ، وإلحاح الحلم عليهما ، .

* رؤية منامية ، واستعمل المضارع الذي يفيد تكرار الحلم . بخلاف منام يوسف عليه السلام نفسه في أول السلام ، فقد استعمل الفعل الماضي (إِنِّي رَأَيْتُ) لأنه رأى الحلم لمرة واحدة .

* الفعل يحمل ضميرين يعودان معاً على المتكلم نفسه فهو يقول (أَرْنِيَّ) أي هو الرائي والمرئي ، وهذا إذا كان هو بطل منامه ، أي يرى نفسه في المنام .

* وهكذا جاء المضارع لتكرار الحلم ، ولم يقل (أرى) لأنه يرى نفسه في الحلم ، وأثبت ياء الإخفاء لأنه لحظة التكلم لم يكن الحلم حاضراً .

{ إِنِّي أَرْنِيَّ أَعْصِرُ خَمْرًا } ^(١):التعبير (أَرْنِيَّ) : يفيد أن القائل صاحب المنام كان مشاركاً في أحداث الحلم ، فرأى نفسه ، وكأنه واحد آخر . وجاء الفعل مضارعاً لتكرار الحلم . وتكرر ذلك في حلم السجين الآخر ، لأنه أيضاً كان مشاركاً في الحلم : { وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِيَّ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ } .

الصورة الثانية 2: { إِنِّي أَرْنِيَّ أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ } ^(٢): لم يقل (أراني) لأن

١ سورة يوسف : { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِيَّ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِيَّ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } .

٢ سورة يوسف : { وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُوبُلَاتٍ خُضِرٍ

الملك الذي رأى البقرات والسنبيلات ، لم يكن مشاركاً في أحداث المنام . وجاء المضارع لأن الحلم متكرر . أما منام إبراهيم عليه السلام :^(١) فلم يقل : أراني ، برغم اشتراكه في المنام ، فلم يقل (إني أراني أذبحك) لأنه لو قال ذلك لكانت مناماً ينتظر تفسيره بشيء آخر ، أما قوله : { إني أرى في المنام أرى أذبحك } فيفيد أن الرائي موجود في أحداث المنام ، لكن المنام فيه تكليف له بالتنفيذ كما حدث في الحلم ، ففصل ضمير المتكلم في جملة خاصة مؤكدة : { أرى أذبحك }

وهكذا يمكن أن نقف على منظومة القرآن في التعبير عن الرؤيا :

١. إذا كان المنام يحدث مرة واحدة يستخدم الفعل الماضي : (إني رأيت) .
٢. إذا تكرر المنام يستخدم الفعل المضارع (إني أرى) للدلالة على إحياء المنام على صاحبه أكثر من مرة .
٣. في كل المنامات (سواء كان ماضياً ، أو مضاعاً) يتم استخدام أداة التوكيد .
٤. إذا كان الرائي لا يشارك في الحلم ، لا يستخدم ياء المتكلم .
٥. إذا كان الرائي مشاركاً في الحلم بطريقة المفعولية : أي يفعل ما يطلب منه كالخدمة في القصر بعصر الخمر ، أو بالصلب . يضع ياء المتكلم مع الفعل (أرى) : (أرني) .
٦. إذا كان الرائي مشاركاً في الحلم بطريقة الفاعلية مثل إبراهيم عليه السلام يقوم بذبح ابنه ، فهو لا يجعل ياء المتكلم في الفعل ، بل يجعل المتكلم في جملة مستقلة (إني أرى في المنام) ، (أرى أذبحك) .



١ سورة الصافات : { فَأَمَّا بَلَّغَ مَعَهُ السَّعَىٰ فَكَأَلِ يَبْنَىٰ إِيَّيَّيْ أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَرَىٰ أذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَىٰ }
فَأَلْيَبْتَابَتِ أَعْمَلُ مَا تُوْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ {١٠٢} .

(٥)

وقال نسوة

الفعل قال جاء مذكراً برغم إسناده للمؤنث (نِسْوَةٌ) ، فما القانون الذي يحكم ذلك ؟

لقد جر هذا الاستعمال بعضهم إلى حد القول بأن نسوة غير مؤنثة ، وأنها اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة ، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث^(١) ، وقال ابن عطية : ذكر الفعل المسند إلى «النسوة» لتذكير اسم الجمع ونِسْوَةٌ جمع قلة لا واحد له من لفظه ، وجمع التكثير نساء ، ونِسْوَةٌ فعلة ، وهو أحد الأبنية الأربعة التي هي لأدنى العدد^(٢) ، وقال القرطبي : الْجَمْعُ الْكَثِيرُ نِسَاءٌ . وَيَجُوزُ : وَقَالَتْ نِسْوَةٌ ، وَقَالَ نِسْوَةٌ ، مِثْلُ قَالَتِ الْأَعْرَابُ وَقَالَ الْأَعْرَابُ^(٣) .

وعلى الرازي لعدم التأنيث أي لماذا لم يقل (وقالت نسوة) لوجهين : الأول : أن النسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي فلذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث ، الثاني : قال الواحدي تقديم الفعل يدعو إلى إسقاط علامة التأنيث على قياس إسقاط علامة التثنية والجمع^(٤) . وقال أبو حيان : وهو جمع تكسير للقلة لا واحد له من لفظه . وزعم ابن السراج أنه اسم جمع .

١ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢ / ٤٦٢)

٢ تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣ / ٢٣٧)

٣ تفسير القرطبي (٩ / ١٧٦)

٤ تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٨ / ٤٤٧)

وقال الزمخشري: النسوة اسم مفرد لجمع المرأة، وتأنيثه غير حقيقي، ولذا لم تلحق فعله تاء التأنيث انتهى. وعلى أنه جمع تكسير لا يلحق التاء لأنه يجوز: قامت الهنود، وقام الهنود. وقد تضم نونه فتكون إذ ذاك اسم جمع، وتكسيه للكثرة على نسوان، والنساء جمع تكسير للكثرة أيضا، ولا واحد له من لفظه^(١).

ولاشك أننا لا يمكننا دحض آراء كل هؤلاء العلماء إلا أن تعارض قول أحدهم مع استعمال القرآن، إلا أننا لسنا الذي نرد على ما يقولون، لكن القرآن هو نفسه من يرد، فالقول: بأن النساء جمع كثرة يتعارض مع استعمالات القرآن الكريم:

● ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ (النساء).

فالنساء هنا تبدأ من العدد ثلاثة وهو عدد قلة.

أما قول الزمخشري بأن التأنيث غير الحقيقي هو سبب ألا تلحق فعله تاء التأنيث فيبطله التعبير القرآني:

● ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ (فاطر).

فقوله (رُسُلًا) لحقتها تاء التأنيث برغم أن أنه بالفعل مؤنث غير حقيقي. أما قول القرطبي وأبي حيان بالجواز، فنسأل: فلماذا لا نستطيع أن نقول: وقالت نسوة؟ أما قول الواحد الذي استشهد به الرازي بأن سبب إسقاط تاء التأنيث هو تقديم الفعل، فما أكثر الأفعال المؤنثة وكانت متقدمة على فاعلها! فماذا إذن؟

الحقيقة أن القرآن يقنن كل جواز حتى لا يترك الاستعمال عرضه للفوضى اللغوية، فإن قالت اللغة أن جمع التكسير وملحقاته (كاسم الجمع) يجوز

تذكيره وتأنيثه ، فالقرآن لا يقبل هذا الجواز على إطلاقه ، لكنه يقنن هذا التفريع فيجعل التذكير طريقاً ثابتاً وكذلك التأنيث ، ولما كان الجمع يمكن أن يتفرع إلى فرعين : الكثرة والقلة ، والتأنيث عند العرب أليق بالكثرة لأنه يعبر عن القبيلة المؤنثة وهي الكل عندهم ، بينما التذكير يعبر عن الجمع منهم وهو بعض القبيلة ، لذلك وضع القرآن قانوناً محددًا لهذا الجواز : وهو : كل جمع كثير واجب التأنيث ، وكل جمع قليل واجب التذكير . وهكذا نرى هنا لا يجوز إلا شيء واحد .

● ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ (يوسف) .

لي سؤالان : ١. لماذا استعمل حرف الواو قبل الفعل ؟

٢. استعمال الفعل بصيغة التذكير والفاعل مؤنث ؟

أما الواو فهي لانتقال المشهد إلى مكان آخر ووقت آخر. فبعد أن كان يعرض لنا مشهد المرأة تغري يوسف في بيتها، يعرض لنا ما قالتها النسوة في بيوتهن هن أو بيت إحداهن، أي ليس المكان الذي حدث فيه المشهد السابق (المرادة). ولا بد أن ذلك حدث بعد وقت هذا المشهد ربما بعد يوم أو يومين أو أيام، لأنه لم يكن هناك بث مباشر لما يحدث من امرأة العزيز حتى يرينه هن في بيوتن في الوقت نفسه، ولكن هناك مسافة زمنية مطلوبة لينتشر نبأ الفضيحة وتتناقله أكثر من امرأة، ثم الاجتماع مع بعضهن في بيت إحداهن، ما قالتها النسوة عن ذلك، فالزمن مختلف، والمكان أيضاً، فهن لن يقلن عن امرأة العزيز في بيتها، بل في بيوتهن.

أما استعمال الفعل مذكراً خالياً من تاء التأنيث برغم أن الفاعل مؤنث، فيقول النحاة أن جمع التكسير وملحقاته يجوز معه تذكير الفعل وتأنيثه.

لكني لا أميل إلى ذلك، لأن هذا يصنع فوضى لغوية، فحتى الجواز لا بد

أن يكون مقنناً. وأنا أسأل: إن كان يجوز التذكير والتأنيث هنا، فمن يستطيع أن يستعملها ويقراً الآية بالفعل (وقالت) ؟؟ ولا يستطيع أحد من المسلمين أن يفعلها ؟؟ فأى جواز هذا الذي لا يجوز لك أن تستعمله. ولا يجوز لك معه إلا وجهاً واحداً ؟؟؟!

جاء الفعل مذكراً خالياً من تاء التأنيث، ليس لجواز التذكير والتأنيث مع جمع التكسير، فليس في القرآن الكريم: جواز، وكل جائز لا بد من تقنين الجواز، لكن هنا نخلق فوضى.. فمن الممكن أن تستعمله مذكراً، وغيرك يستعمله مؤنثاً، لا.. ثمة قانون يحكم الجواز.. فلا يكون بالمزاج..

وهكذا مع جواز التأنيث والتذكير في جمع التكسير يضع القرآن تقنين التفرع لكل اتجاه منهما، فجمع التكسير الكثير ليس إلا التأنيث، وجمع التكسير القليل ليس إلا التذكير. وهكذا يعلمنا القرآن الكريم قانون جواز تأنيث الفعل مع جمع التكسير:

الفاعل التكسيري الكثير: تأنيث.

الفاعل التكسيري القليل: تذكير.

وعددهن قليل، ولذلك استخدم الفعل معها في صيغة المذكر، فالمعروف أن العرب تستخدم المؤنث للدلالة على الكثرة، والمذكر يؤتى به للدلالة على القلة، ويمكنك أن تقف على ذلك من خلال المقارنة بين قوله تعالى:

(وَقَالَ نِسْوَةٌ^(١)) :الفعل مذكر برغم أن الفاعل جمع تكسير (يجوز فيه التذكير والتأنيث) لأن النسوة المتقولة عن امرأة العزيز قليلات.

نسوة عددهم قليل. ولذلك استخدم الفعل معها في صيغة المذكر،

١ سورة يوسف، الآية (٣٠)

فالمعروف أن العرب تستخدم المؤنث للدلالة على الكثرة، والمذكر يؤتى به للدلالة على القلة.

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ^(١)): الفعل مؤنث برغم أن الفاعل جمع تكسير (يجوز معه التذكير والتأنيث) لكنه التزم التأنيث لأن الجمع (الأعراب) كثير.

• وَقَالَ نِسْوَةٌ: النسوة عددهم قليل.

• قَالَتِ الْأَعْرَابُ: كثرة القائلين.

تاء التأنيث تدخل على الفعل عند الفاعل المؤنث، نقول جاء محمد، وجاءت فاطمة، لكن متى تدخل تاء التأنيث على الفاعل الجمع ؟ إن جمع التأنيث يجوز أن يؤنث فعله أو يذكر. لكن برغم الجواز فالأمر مع القرآن الكريم لا يتم إلا بقانون، والقانون إن التأنيث أكثر من التذكير. فلذلك عند الكثرة نستخدم التأنيث مع الفعل، وعند القلة نستخدم التذكير مع الفعل.

الذي أسند لمؤنث ومع ذلك خلا من تاء التأنيث، وذلك لأن الفاعل جمع تكسير، وفي العربية يجوز تذكير الفعل وتأنيثه إذا أسند لجمع تكسير.. والقانون: إن الفاعل التكسيري الكثير يؤنث فعله، والفاعل التكسيري القليل يذكر فعله.

ولأن النسوة قليات تكاد لا تزيد على أصابع اليد الواحدة جاء الفعل مذكراً، قال عز وجل: قالت الأعراب.. الأعراب كثيرون.. لذلك تم تأنيث الفعل، والأمر نفسه في التعبيرين:

• ﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ (فاطر).

١ سورة الحجرات: الآية (١٤).

فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ^(١): جاء الفعل مذكراً لأن الرسل قليلة، والذي يفيد قلتها هي وصفهم بأنهم (جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) والذين جاءوا بالكتب أقل.

فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ^(٢): جاء الفعل مؤنثاً لأن الرسل هذه المرة قليلة، والذي يفيد الكثرة هو عدم تخصيصهم بالإرسال بالكتب، لأن المرسلين بالكتب عدد محدود، أما الذين صبروا من الرسل على التكذيب والإيذاء فهم كثيرون، وتكرر الأمر في سورة فاطر، فجاء الفعل مؤنثاً أيضاً (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ^(٣)) لأنه يتحدث عن عموم المكذبين دون تخصيصهم بأنهم مكذَّبون مرسلون بكتب، فهم مكذَّبون فحسب، والمكذَّبون فحسب أكثر من المكذبين مع إرسال بكتاب.

وهكذا ترى أن الفعل كذب جاء مرة مذكراً وأخرى مؤنثاً، على الرغم أن الفاعل واحد هو رسل، وبرغم أن العربية تجيز مع جموع التكسير: التذكير والتأنيث، إلا أن القرآن الذي لا يجوز معه تحريف الكلم عن مواضعه، يأبى أن يكون هناك إجازة لاستعمالين دون تقنين، لأن هذا يعني أن تضع الجائز الثاني مكان الأول، وهنا يُحَرِّف الكلم عن مواضعه، لهذا فليس مسموحاً أبداً في القرآن الكريم فوضى الجواز، وإن كانت العربية تسمح بجواز استعمالين، فليس معنى ذلك أن يحل أحدهما مكان الآخر، بل لا بد أن يكون هناك مبرر هندسي للجواز، أي أن يكون الاستعمال قابلاً للتقسيم، فيكون ثمة تفرع

١ سورة آل عمران ، الآية (١٨٤) ونصها: (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ).

٢ سورة الأنعام ، الآية (٣٤) ونصها: (وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا

وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنهَم نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾).

٣ سورة فاطر، الآية (٤)

إلى فرعين، وهناك يكون صرامة في اختيار كل فرع، بحيث لا يمكنك أن تختار أحد الفرعين إلا بنفس السبب الذي اخترته من قبل. فيكون هناك تقنين في الجواز، والقانون المستعمل في جواز تذكير أو تأنيث الجمع، هو أن الجمع قابل للتقسيم إلى الكثرة والقلة، فيكون هناك التقنين في اختيار أحد الفرعين، والعربية ترى أن التأنيث تناسبه الكثرة، والتذكير يناسبه القلة، لهذا فالقرآن الكريم لا يتفرع في الجواز إلا بهذا التقنين، ويصبح الأمر ليس كما يقولون: جواز التذكير والتأنيث مع جمع التكسير، لا، بل يصبح قانوناً: كل جمع تكسير كثير واجب التأنيث، وكل جمع تكسير قليل واجب التذكير.

وهذا ما تمَّ في المثال السابق: فاستخدم التذكير لما كان الحديث عن رسل محدودين (جاءوا بالكتب) واستخدم التأنيث لما كان الحديث عن رسل غير محدودين كذبوا فصبروا.

وهكذا بعد أن وقفنا على قانون مطرد في استعمال العربية بجواز التذكير والتأنيث لجمع التكسير مع تقنين التذكير عند القلة، والتأنيث عند الكثرة، نرى أن قوله: قال نسوة.. جاء الفعل مذكراً متسقاً مع القانون.

وانظر تلك المغايرة بين تأنيث الفعل جاء مع الرسل وتذكيره أيضاً مع الرسل:

ورد الفعل (جاء) مذكراً برغم أن الرسل جمع، وذلك ليشير إلى قلة الفاعل (رسل)، وقد تقول لكن رسل الله كثير، وأقول لك رسل الله لو أرادهم بشكل مطلق فهم كثير، ولو أراد بعضهم تحديداً فهم قليلون، وهنا يتحدث عن المقتولين من رسل الله وهم قليلون، لذلك جاء بالفعل مذكراً ليشير أن المقصود قليل منهم وليس كلهم.

وقد جاء استخدام جاء مع الرسل بطريقتين بتأنيث الفعل وبتذكيره مما

يشير إلى دلالة الرسل على القلة والكثرة ، ويمكن أن نقف ذلك من خلال
مغايرة بين التعبيرين :

[آل عمران]	مِّن قَبْلِ الْبَيْنَتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾	جَاءَكُمْ رَسُولٌ	} قُلْ قَدْ	1
[المائدة]	بِالْبَيْنَتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ﴿٣٣﴾	جَاءَهُمْ رَسُولُنَا	} وَلَقَدْ	2

جَاءَكُمْ رَسُولٌ^(١) الفعل مذكر لأنه يتحدث عن الرسل الذين قتلهم بنو إسرائيل بدليل قوله تعالى (فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . والرسل المقتولون من بني إسرائيل قليلون لذلك جاء الفاعل مذكراً ليشير إلى القلة .

جَاءَهُمْ رَسُولُنَا^(٢) الفعل مؤنث لأنه يتحدث عن رسل الله دون تقييدهم بالقتل ، ورسل الله كثيرون ، لذلك جاء الفعل مؤنثاً ليناسب كثرتهم ، وقد تكرر استعمال تأنيث الفعل مع رسل في كثير من الآيات ، سواء الملائكة الذين يرسلهم الله إلى الناس ، أو رسل الله الذين يتوفون الناس^(٣) : أو حديث أهل

١ سورة آل عمران : { الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا يُقْرَأَنَّا تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ الْبَيْنَتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ } .

٢ سورة الأعراف : { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْعَذَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ قَالُوا إِنَّمَا كُنْتُمْ نَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ } .

٣ سورة المائدة : { مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيْنَتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي

الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٣﴾ } .

٣ ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوهُمْ ﴿٣٧﴾

(الأعراف) .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ ﴿٦١﴾

(هود) .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رَسُولُنَا لُوطًا ﴿٧٧﴾

(هود) .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رَسُولُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ ﴿٣٦﴾

(العنكبوت) .

﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رَسُولُنَا لُوطًا ﴿٣٣﴾

(العنكبوت) .

الجنة والنار عن رسل الله، فالمقصود كل ما سبق من رسل (١) أو رسل الله للقرون السابقة (٢).

و الفعل جاء ، فقد جاء مؤنثا مع جنود الأحزاب ، وكذلك مع آيات الله ، وكلاهما كان كثيراً ، وجاء مذكراً مع إخوة يوسف لأنهم قليلون ، وكذلك مع سحرة فرعون ، وكذلك مع النذر لفرعون (الآيات التسعة) ، والبصائر (ويقصد به العقل الذي يميز) . وجاء مشتركا بين التذكير والتأنيث مع كلمتين فحسب (رسل ، بينات) ، فأما البينات فجاءت مذكرة إذ قصد بالبينات : محمد صلى الله عليه وسلم ، ومؤنثة إذا قصد بالبينات ما جاء على يد موسى عليه السلام .

جاء الفعل مذكراً مع (الْبَيْنَتْ) بينما جاء مؤنثاً في مواضع أخرى معها أيضاً ، وذلك ليفرق بين المعجزات والكتاب ، وكلاهما يطلق عليه بينات ، والمقصود هنا ليس المعجزات ، بل الكتاب تحديداً وقصراً كما تكشف المغايرة الآتية :

- ١ ﴿ وَرَبَّنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أَوْرَشْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ . (البصائر) .
 ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُئِلُوا مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ . (الأعراف) .
 ●٢ ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٠﴾ . (الأعراف) .
 ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٣﴾ . (الأعراف) .
 ﴿ الذِّبْيَانُ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴿٩﴾ .
 ﴿ أُولَئِكَ سَبَرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٩﴾ .
 ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَيَا لِكَيْتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ . (البصائر) .
 ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ . (البصائر) .
 ﴿ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴿١٤﴾ . (فصلت) .

[آل عمران]	{ ٨٦ }	وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ	{ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ }	1	الأولى :
[النساء]	{ ١٥٣ }	جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ	{ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا }	2	

الصورة الأولى 1-ى : { وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } : البيئات هنا هي الإثبات أن محمداً

صلى الله عليه وسلم نبي من عند الله . وهي بينات على أمر واحد .

• ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ (آل عمران) .

الصورة الثانية 2-ة { جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ } : البيئات هنا ما جاءهم من نعم على يد

موسى عليه السلام ، وهي بينات رأوها في كل يوم . لذلك جاء الفعل

مؤنثاً لكثرة البي

[البقرة]	{ ٢٥٣ }	الْبَيِّنَاتُ	مَا جَاءَتْهُمْ	{ مِنْ بَعْدِ }	1	الأولى :
[آل عمران]	{ ١٠٥ }	الْبَيِّنَاتُ	مَا جَاءَهُمْ	{ مِنْ بَعْدِ }	2	

الصورة الأولى 1-ى : { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ } (١) : البيئات هنا هي المعجزات

التي أرسلها الله على يد المسيح ابن مريم عليه السلام . ولهذا جاء بالفعل مؤنثاً

لتتوحد الكلمة بمفهومها المراد وهو المعجزات . وتكرر هذا الأمر .. في قوله تعالى

: { وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ

{ (٢) وفي هذه الآية يجمع بين الكتاب (أوتوه) والبيئات (من بعد ما جاءتهم

الْبَيِّنَاتُ) مما يدل على أن الكتاب ليس البيئات ، وكذلك قوله تعالى {

١ سورة البقرة : { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ

{ ٢٥٣ }

٢ سورة البقرة . الآية (٢١٣) .

ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ ^(١) ، وقوله تعالى : {
فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ ^(٢)}

الصورة الثانية 2ة : { مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ^(٣) } : البيئات هنا هي الكتاب المنزل من السماء ، لهذا جاء بالفعل مذكراً لتتوحد الكلمة بمفهومها الثاني المراد وهو الكتاب . وتكرر الأمر في قوله تعالى : { كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ^(٤) } ، { لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي ^(٥) } .

* وهكذا نرى أن كلمة البيئات ترجع على أحد أمرين (معجزات أو علامات النبي ، أو كتابه) فإن أراد الكتاب جاء بالفعل مذكراً ، وإن أراد العلامات جاء بالفعل مؤنثاً .

وهكذا نقرر أنه لا يجوز أن تقول في القرآن : يجوز ، فالقانون القرآني لا يعترف بجواز الأمرين بشكل مطلق ، لأن ذلك يسمح أن تتبادل كلمتان ، والقرآن لا يعرف سوى أن كل لفظ لا يحل محلها أخرى ، لذلك حتى في الجواز يقنن القرآن الكريم الاستعمال : فيستعمل المؤنث الذي يعنى الكثرة عندما يكون الجمع كثيراً ، ويستخدم التذكير مع الفعل عندما يكون الفاعل الجمع قليلاً .

فالقانون إن التأنيث أكثر من التذكير . فلذلك عند الكثرة نستخدم التأنيث مع الفعل ، وعند القلة نستخدم التذكير مع الفعل .



١ سورة النساء . الآية (١٥٣) .

٢ سورة البقرة . الآية (٢٠٩) .

٣ سورة آل عمران : { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ^(١٠٥) } .

٤ سورة غافر . الآية (٦٦) .

٥ سورة آل عمران . الآية (٨٦) .

(٦)

لا إله إلا الله

متى استعمل مكان إلا اسم الاستثناء غير ؟؟ إن الوقوف عند مغايرة قرآنية في استعمال أسلوب الاستثناء بالأداة (إِلَّا) ، والأداة (غَيْرُ) يكشف عن سر الاستعمال القرآني في أسلوب الاستثناء مع المستثنى (الله) .

أسلوب القصر بالنفي والاستثناء بإلا يختلف عن القصر بالنفي والاستثناء بغير ، الأول يمكن أن تسميه القصر الإيجابي ، والآخر القصر السلبي .

فإذا أراد الله أن يتحدث عن ذاته استخدم الأسلوب الأول (النفي + إلا) لأنه يثبت الألوهية له وحده . وإذا أراد أن ينفي الآلهة استخدم الأسلوب الثاني (النفي + غير) .

- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣) (الطور) .
- ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢) (آل عمران) .

استخدام (غَيْرُ) لنقض النفي في النص الأول ، واستخدام (إِلَّا) في النص الثاني .

في النص الأول يتحدث عن الآلهة الأخرى ، لإثبات عدم وجودها ، لذلك يستخدم (غير).

في النص الثاني يتحدث عن الله ، لإثبات الوحدانية له ، فيستخدم أداة الاستثناء إلا ، فهو يستخدم النفي (نفي كل الآلهة) ثم تأتي إلا لتثبت الوحدانية لله .

وبذلك نرى أن القرآن إذا أراد إثبات الوحدانية لله نفي الآلهة ، ثم جاء بأداة الاستثناء (إلا) ليثبت لله وحده ما نفاه عن الآلهة . أما إذا أراد إثبات عدم وجود الآلهة فإنه يأتي بإلأله منفياً ويضع بعده غير التي لا تصنع استثناء ، بل تكون نعتاً للآلهة .

جدول ﴿٢/٣﴾ الفرق بين (إلا) ، (غير) :

غير	إلا
لوصف المنفي	لنقض النفي
إثبات النفي لغيره .	استثناء الله من نفي الآلهة = إثبات الإلوهية له وحده

وقد اجتمع الأمران معاً في آية واحدة :

• ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَدْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْفُتُوكُونَ﴾ (فاطر) .

فعندما أراد نفي الآلهة استخدم غير في قوله (هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ) . وعندما أراد إثبات وحدانية الله استخدم (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) وقد جاء القرآن كله على الوتيرة نفسها ، فإذا أراد إثبات الألوهية لله وحده استخدم الأداة (إلا) لتنقض النفي السابق للآلهة ولا تستبقى أحداً إلا هو .

• ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران)

• ﴿وَمَنْ يَعْفُرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (آل عمران) .

- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) (الصفات).
- ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦٥) (ص).
- ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (١٩) (محمد).

ولم يشذ عن استخدام إلا في حالة النفي الصريح سوى مرة واحدة هي

- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ فَعَسَىٰ أَلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) (آل عمران)

لا يتحدث هنا عن إثبات عجز الآلهة ، بل يثبت الصفة لله ، ولهذا نرى أن معنى السؤال : من يغفر الذنوب ؟ وينتهي السؤال فتأتى الإجابة لا تنصب على الآلهة بل تنصب على الله : يغفرها الله ، وجاء إلا على تقدير فعل يغفر في الإجابة :

السؤال : من يغفر الذنوب ؟

الإجابة : لا يغفرها إلا الله .

استفهام في جملة فعلية ، ولعل السؤال ينتهي قبل إلا ، وإلا إجابة السؤال بفعل مقدر من السؤال : وكأنه يسأل : من يغفر الذنوب ؟ فتقول : لا يغفر الذنوب إلا الله .

وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ

وَمَنْ اسم موصول مبني على السكون • في محل رفع مبتدأ
يَغْفِرُ فعل مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة الظاهرة .

والضمير المستتر (هو العائد على اسم الموصول من) • في محل رفع فاعل

الذُّنُوبُ مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة الظاهرة .

إِلَّا حرف استثناء مبني على السكون • لا محل له من الإعراب

الله بدل من الضمير المستتر مرفوع وعلامة الرفع الضمة الظاهرة .

أما (غير) فتأتى نعتاً مرفوعاً في مواضعها الستة ^(١) التي جاءت فيها قبل الله ، منها خمس مرات جاءت في صيغة استفهامية هدفها النفي ، ويكون غير الله داخل السؤال : فالإجابة لا أحد ، وهنا لا يكون محور الإجابة هو إثبات الصفة لله ، لكن نفيها عما سواه : فالإجابة : لا أحد ، ولا أحد هي إجابة السؤال : إذن السؤال لا يتمحور لفظ الجلالة ، لكنه يتمحور الآلهة المدعاة لبيان عجزها ، فهنا نرى أن غير ليست استثناء ، لكنها نعت لبيان المتحدث عنه وحصره ، فالمتحدث عنه هو كل إله غير الله . والسؤال عن هذا المحور : من الإله الذي يأتيكم بالضياء ؟ أو بالليل ؟ أو ... ؟ لا أحد .

وبذلك نرى أن سر المغايرة بين إلا ، غير : أن غير استعملت عندما أراد أن يتحدث عن الغير . فإذا انصب الحديث على الآلهة المدعاة ، يستعمل غير ، لأنها مضاد الأنا ، هي الآخر . وهم آخر . وإذا أراد إثبات الألوهية لله وحده وانصب الحديث عن الذات استخدم إلا : فالآلهة بالنسبة لله غير . لكنه عند الحديث عن ذاته لا يجعل نفسه غيراً لهم .

ولم يشذ عن استخدام غير بعد الاستفهام إلا مرة واحدة هي :

● ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ إِن تَتَّبِعُوا إِلَّا مَفْرُوتًا ﴿٥٠﴾ ﴾ (هود) .

١ ﴿ وَلَوْ كَانَ مِن عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ ﴿ مَن إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ إِنظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصَدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الأنعام)

● ﴿ مَن إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (القصص)

● ﴿ مَن إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (القصص)

● ﴿ هَلْ مِن خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿٣﴾ ﴾ (فاطر)

● ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الطور)

جاءت (غير) مع النفي الصريح ، لكنه في المثال (غير) نجده لا يتحدث عن الله ، بل عن الآلهة الأخرى:

● ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩) (الأعراف) .

فبعد أن قال : اعبدوا الله ، انتقل لنفي كل ما سواه ، فهي في سياق إثبات عجز الآلهة وجاءت غير : نعتاً . ويمكن تحول النفي إلى استفهام : (هل لكم من إله غير الله)



(V)

وجهها العملة

من التقنيات اللغوية التي كشفها لنا القرآن الكريم هي المزاوجة بين وجهي العملة أي يعطيك الكلمة وجهاً ثم يعطيك معناها وجهاً آخر . وهي تقنية مطلوبة في إزالة الالتباس وخاصة عند اختلاف الكثيرين حول المعنى .

نرى ذلك في استعمال كلمة الحي ، فالله عز وجل لما استعمل الكثير من صفاته لم يتم بتعريفها ، لكنه في كلمة الحي لم يكتفِ بذكرها ، بل ذكرها مع تعريفه الخاص بها .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهِي الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيِّحُ بِحَمْدِهِ ۗ ﴾ [الفرقان]

فكما ترى ، قال (آلِهِي) ثم عرّف الحي بقوله : (الَّذِي لَا يَمُوتُ) في قطع صارم بأن الله وحده هو الذي يستحق بالوصف باسم الحي ، بينما الأحياء من عباده فهي حياة موقوتة ، ليست مطلقة ، فلن يلبث من وهبه الله الحياة أن يموت ، فيكون اسم الحي غير صالح له وقتها .

الصفة الجوهرية للخالق هي مخالفته للمخلوق ، والحي صفة للمخلوق ، لكنها ليست صفة دائمة . فما من مخلوق إلا ويعيش فيه الموت ، فكأن

كل مخلوق رحم للموت ، وما الموت إلا جنين يتنفس في الكائن الحي ، فإذا استنفد الإنسان أجله كانت ولادة الموت . ولهذا قال الله عز وجل : خلق الموت والحياة ..

لهذا لا يصح إطلاق الحي على المخلوق لأنه يحمل بذرة الموت ، فالحي يجب ألا يموت ، ولهذا قال الله عز وجل في سورة الفرقان { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ }^(١) ، وهذا تعريف يمكن تسميته بوجهي العملة فلا انفصام لوجهه عن الآخر، ف(الْحَيِّ) وجه لا ينفصم عن الوجه الآخر (الَّذِي لَا يَمُوتُ) فالحي بذلك لا تنطبق إلا على واحد فحسب وهو الله عز وجل .

أما المخلوق ، فهو يموت ، لهذا إذا مات فعلاً ودخل القبر فهو ميّت ، والميّت بتخفيف الياء أي الموت بين حياتين ، كان حياً ، وسيبعث بعد ذلك إلى الحياة . أما أثناء حياته فهو ميّت بتشديد الياء أي الذي يحمل بذرة الموت ، وينتهي إليه .

وهكذا فالكلمة المعبرة عن الإنسان :

- إذا كان بين الولادة والقبر : ميّت أي يحمل بذرة الموت وهو سائر إليه .
- إذا كان بين حياته أي كان في القبر : ميّت أي تركته الروح .

فهو ليس أهلاً لكلمة الحي مطلقاً لأنها خاصة بالحي الذي لا يموت . وما اشتراكه في استحقاق كلمة الحي إلا اشتراك مشروط هو الحي الذي يموت ، في الحي إلا مشاركة خاصة ، بذرة الموت وهو سائر إليه . وهكذا نرى المفارقة في صفتي الحياة بين الخالق والمخلوق : الله : حي لا يموت ، وغيره حي يموت ، الله حي فاعل ، وغيره حي مفعول :

١ سورة الفرقان . الآية (٥٨) .

المخلوق

* ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ (٢٧) (آل عمران) .

* ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ (١٥) (الأنعام) .

* ﴿ وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ (٣١) (يونس) .

* ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ (١٩) (الروم) .

الخالق

* ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (٣٥٥) (البقرة) .

* ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٢) (آل عمران) .

* ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ (٥٨) (الفرقان) .

* ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٦٥) (غافر) .

من الجدول السابق :

ترى أن تعبير (هُوَ الْحَيُّ) الذي يفيد القصر أي لا حي إلا هو خاص بالله وتكرر ثلاث مرات .

وكذلك صاحبه تعبير : (الْحَيُّ الْقَيُّومُ) مرتين وهو كما قلنا تعبير وجهي العملة ، وتعبير (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) مرتين ، وتعبير (الَّذِي لَا يَمُوتُ) مرة واحدة .

أي أن صفات الحي الخاصة بالخالق : كانت ملازمة بأنه هو الحي وحده ، وأنه لا يموت ، وأنه قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم فهو لا إله إلا هو .

أما العمود الخاص بالمخلوق ، فلم تأت فيه الحي إلا ملازمة للميت ، فهو أحد اثنين يخرج منه الميت ، أو يخرج من الميت ، وفي كل الاستعمالات هو مفعول به لا فاعل . والفاعل هو الله المقابل له .

ولهذا لما طلب إبليس أن ينظره الله عز وجل إلى يوم يبعثون كان يمكر من أجل أن ينجو من الموت ، ليتحقق فيه اسم الحي ، لأنه بعد بعث الموتى

، لا موت ، فلو أنظره الله إلى يوم يبعثون ، فقد أفلت من الموت ، ولهذا أبى الله عليه ذلك وأجابه إلى طلبه بالإنظار فأنظره ضمن من أنظرهم ، لكنه لم يجبه إلى طلبه في منتهى الإنظار .. فلما طلب منه : { رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ }^(١) ، قال له رب العالمين : { قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ }^(٣٧) إلى يوم أُلْوَقَتِ الْمَعْلُومِ }^(٢) . أي أجبتك إلى طلبك بالإنظار ، لكنك لست وحدك ، ولم أجبك إلى الموعد الذي طلبته ، طلبت أن تنظر إلى يوم يبعثون ، فجعلت الإنظار إلى يوم الوقت المعلوم . أي تأتيك النفخة الأولى الإنذارية التي تقرر اقتراب الساعة وعدم قبول الأعمال ، فتثق بالنهاية ، وتذهب إلى قبر آدم لتسجد له لكن بعد فوات الأوان ، وتأتي عليك النفخة الثانية : نفخة الصعق ، فتموت مثل كل مخلوق ، ثم تأتي عليك النفخة الثالثة : نفخة البعث فتبعث مثلهم لتذهب إلى مثواك في جهنم .

ولاشك أن إبليس ما كان يطلب حقيقة الإنظار إلى يوم يبعثون ، لأنه لو أجيب لذلك لكان هذا يعني عدم الموت أبداً فيكون حقيقة طلبه : لا تسلط علي الموت . لكنه مكر مع الله عز وجل ، فالله ما كان ليحييه وهو غاضب عليه إلى طلب كهذا .. لكنه يجيبه إلى أدوات مهمته في صراعه مع بني آدم . ومنها بالطبع أن يستمر مع تعاقبات ذرية آدم وهذا يقتضي أن يُنظر ليقوم بدوره ، لكن بعد موتهم جميعاً لا مبرر لاستمراره .

وهكذا كان طلب إبليس الماكر أن لا يموت أبداً ؛ لينازع الله عز وجل صفته المنفردة ، فلما لم يجبه الله إلى طلبه ، ظلت لله صفته المنفردة وهي أنه وحده الحي الذي لا يموت ، وهكذا الإله يخالف في صفته صفات مخلوقاته .

١ سورة الحجر . الآية (٣٦) .

٢ سورة الحجر . الآية (٣٧-٣٨) .

الاستعمال الثاني في تلك التقنية :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة]

القيوم عرفته الآية السابقة بالخصيصة اللغوية : المزوجة بطريقة وجهي العملة وهو أن تلازم الكلمة ما يوضحها ليصنعا وجهي عملة لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فتعريفه : (لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ) .

فاستعمل مع القيوم تقنية المزوجة اللغوية أي الجمع بين الكلمة وتفسيرها في وجهي عملة واحدة : الوجه الأول { الْقَيُّومُ } ، والوجه الثاني { لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ } فكان تعريف الله عز وجل نفسه لكلمة القيوم بأنه : لا تأخذه سنة ولا نوم . وليس بعد كلام الله وجل مذهب .

وبذلك حملت الآية الثانية من آل عمران :

* ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (آل عمران) .

ثلاثة من أساليب القصر : فهو الإله وحده ، وهو الحي وحده ، وهو القيوم وحده .. كما كشفت والإله : بأن يكون منفرداً بصفاته لا يشاركه فيها أحد ، وهذا ما تحقق في وصفي الحي والقيوم ، فالقيوم هو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم .. وتلك صفة منفردة لا يشاركه فيها أحد ، والحي : هو الذي لا يموت ، وتلك أيضاً صفة منفردة لا يشاركه فيها أحد .

الاستعمال الثالث في تلك التقنية :

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص]

الصمد : عرفته الآية السابقة بالخصيصة اللغوية : المزوجة بطريقة

وجهي العملة وهو أن تلازم الكلمة ما يوضحها ليصنعا وجهي عملة لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فتعريفه : (لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُوَلِّدْ) .

الاستعمال الرابع في تلك التقنية : **حَقَّ تَقَائِهِ**

* هو تعبير المزاجية أو وجهها العملة الواحدة كما توضحه المغايرة الآتية:

[البقرة]	١٠٢	حَقَّ تَقَائِهِ	{ أَنْتَقُوا اللَّهَ }	1	الأولى :
[التغابن]	١٦	مَا اسْتَطَعْتُمْ	{ فَأَنْتَقُوا اللَّهَ }	2	

الصورة الأول 1 : { أَنْتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَائِهِ }^(١) : تلك ما نسميها بالمزاجية ، وهي تعبير ذي الوجهين .. فحق تقاته هي الكمال ، أو التقوى كما يجب أن تكون ، وهذه يفسرها الوجه الثاني لعملتها ، وهو (مَا اسْتَطَعْتُمْ) .

الصورة الثاني 2 : { فَأَنْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }^(٢) : بالمزاجية نكتشف أن ما استطعتم هي الطريقة المثلى لتقوى الله حق تقاته .

الاستعمال الخامس :

* ﴿ إِنَّ أَمْرُهُ هَلَكٌ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ (١٧٦) (النساء) .

فاستعمل المزاجية وهو الجمع بين الكلمة وتفسيرها في وجهي عملة واحدة : الوجه الأول { هَلَكٌ } ، والوجه الثاني { لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ } فكان من تعريف الهلاك غير المغضوب عليهم قاطعاً بأنه هلاك الذرية أي يموت كلاله ليس له ولد

١ سورة البقرة : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَائِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ } (١٠٢) .

٢ سورة التغابن : { فَأَنْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحَّ

نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (١٦) .

، ومن هنا فهمنا استعمال فعل الهلاك ليعبر به رب العزة عن يوسف عليه السلام : {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا} (٣٤) (١) فالله عز وجل هنا لا يعلن غضبه على يوسف عليه السلام ، بل إن مؤمن بني إسرائيل القائل بالكلام يثني عليه ، لأنه يقرر أنه جاءهم بالبينات ، وأنه رسول ، ويحمل عليهم أنهم كانوا في شك مما جاءهم به يوسف عليه السلام . فالتعبير بالهلاك هنا أي مات ولم يترك ذرية ، ولأنه رسول ، والرسول الراحل لم يترك ذرية إذن لن يرسل الله رسولاً آخر لأنه في ظنهم أن الرسول يأتي من ذرية رسول آخر من بعد إبراهيم عليه السلام .. فإسماعيل من ذرية إبراهيم ، وإسحاق كذلك من ذرية إبراهيم ، ويعقوب من ذرية إسحاق ، ويوسف من ذرية يعقوب ، فبانقطاع ذرية يوسف إذن انقطعت الرسالة في ظنهم .

وبذلك لعبت المزاجية (وجها العملة) التي استعملت في سورة النساء الدور الكاشف عن المقصود من كلمة (حَتَّى إِذَا هَلَكَ) في سورة غافر . وكذلك لعبت تلك المزاجية الكشف عن المعنى الحقيقي لاستعمال كلمة الهالكين في سورة يوسف في وصف يعقوب من أولاده :

* ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يُوسُفُ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ (٨٥) (يوسف) .

فلو بحثت عن معنى كلمة حرضا لوجدتها تصل بك إلى معنى الهلاك ، وهنا سيثور سؤال فما معنى العطف عليها بتعبير (أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) مع التثنية على استعمال (أو) التخيرية أي التي يستحيل معها أن يكون التعبيران بمعنى واحد :

١ سورة غافر . الآية (٣٦) .

فكلمة حرض كما جاءت في مقاييس ابن فارس : دليل الذهاب والتلف والهلاك والضعف ^(١) ، ثم قال : المشرف على الهلاك ، واستشهد بتلك الآية ، وهو ما يفيد أن الآية لعبت دوراً في بلورة المعنى ، ومنها التحريض أي إذا خالف فقد أفسد ، وقوله تعالى : { حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ } ^(٢) ، لأنهم إذا خالفوه فقد أهلكوا. وفي مفردات الراغب الأصفهاني قال : ما لا يعتد به ولا خير فيه، ولذلك يقال لما أشرف على الهلاك: حَرَضَ ^(٣) ، واستشهد أيضاً بالآية . أي أن الاتجاه لاستعمالها في المشرف على الهلاك ادخاراً للهلاك الفعلي للمعطوف عليها .

والأمر نفسه قاله الطبري ، فقال : حتى تكون دَنَفَ الجسم مخبول العقل . وأصل الحرض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو العشق ^(٤) . واستشهد بقول مجاهد : الحرض ما دون الموت ، أما قوله : وتكون من الهالكين : أي ممن هلك بالموت .

قال الرازي : ومعنى الآية أنهم قالوا لأبيهم إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم ^(٥) . وقال القرطبي : والمعنى: لا تزال تذكر يوسف بالحزن، والبكاء عليه حتى تصير بحث لا تنتفع بنفسك ، أو تموت من الغم ^(٦)

وهكذا كان الاتجاه هو جعل الأولى : الإشراف على الهلاك ، والثانية هي الهلاك نفسه . ونسأل : وهل يهلك النبي ؟؟

١ ابن فارس . مقاييس اللغة . مادة (حرض) .

٢ سورة الأنفال . الآية (١٥) .

٣ الراغب الأصفهاني . المفردات في غريب القرآن . مادة (حرض) .

٤ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٦ / ٢٢١) .

٥ تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١٨ / ٤٩٩) .

٦ تفسير القرطبي (٩ / ٢٥٠) .

أما المعنى فالأولاد يتحدثون أن بكاء أبيهم المستمر سينتهي بأثر سلبي عليه أو عليهم : فأما عليه فهي الحرص التي تجعله في حالة مزرية كما قالوا ، فماذا عن قولهم (أو تكون من الهالكين) تلك أثر ما يفعله عليهم هم أنفسهم : أي ستجهز علينا في حياتك ، فنموت جميعاً ، وهنا لما تموت لا تترك ذرية فتكون من الهالكين .

وبذلك تتضافر كل الاستعمالات في أن الهالك من المسلمين لا يعني ضياعه ، بل يعني موته دون أن يترك ذرية



(٨)

المذكور المسكوت عنه

من التقنيات اللغوية التي كشفها لنا القرآن الكريم هي الاحتباك والاحتباك أن تجمع بين جملتين وتحذف من كل جملة طرفاً ، ويفهم الطرف المحذوف من الجملة الأولى بدلالة المذكورة في الثانية والعكس ، فيفهم المحذوف من الجملة الثانية بدلالة المذكورة من الجملة الأولى .

وأكاد أزعج أن بعضاً من الآيات القرآنية لم تفهم على معناها الصحيح لغياب الاحتباك عن ذهن من تناولها ، لأنه بذلك يكون قد أغفل مسكوتات أرادها القرآن مذكورة ، ولعل أول من توسع في الاحتباك هو البقاعي .

ومن أشهر الأمثلة القرآنية على الاحتباك :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى

كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران ١٣]

الفئة : تأتي عند التصارع ، أي لا بد من مواجهة . ولهذا تأتي مفرداً لأن الفئة تحتاج إلى فئة أخرى ، ولكل فئة أفراد ، لهذا يأتي بالفئة مفرداً ليعبر عن الاتجاه ، وعند الفعل يأتي به جمعاً لأنه يعبر عن أفراد الفئة .

فالفئة مفرد لأن رأى الفئة كله واحداً ، والفعل جمعاً لأن أفراد الجماعة الذين يفعلون الفعل جمعاً . فهي مجموعة في مواجهة أخرى ، فلا تكون الفئة فئة إلا إذا كانت تحارب فئة أخرى ، قال تعالى في سورة الأنفال: **{ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ ^١ }** ، فالفتان : إحداهما مؤمنة والأخرى كافرة . وعندما التقى المؤمنون بقيادة طالوت بالكفار بقيادة جالوت ، ذكر التقابل الذي يعبر عن عدد كل منهم ، فأنصار طالوت (فِئَةٌ قَلِيلَةٌ) وأنصار جالوت (فِئَةٌ كَثِيرَةٌ) ، وصدق المؤمنون بقولهم **{ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ^٢ }**

وفي الآية التي معنا استعمل الفئتان للتعبير عن مجموعتين متقابلتين ، لكنه لما أراد وصف كل واحدة منهما بوصفين : اكتفى بوصف واحد للأولى وتفهم الوصف الثاني من مقابل وصف الثانية ، وفي الثانية اكتفى لها أيضاً بوصف واحد وتفهم الوصف الثاني من الوصف المذكور للأولى .

فعند الحديث عن الفئة الأولى المؤمنة : ذكر أنها (تُفْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ولم يقل إنها مؤمنة اعتماداً أن تلك الصفة مكتسبة من الجهة المقابلة ، فمادامت الفئة الثانية كافرة وهي تقابلها فالفئة الأولى مؤمنة ، وبذلك كانت كلمة مؤمنة مذكورة دون ذكرها ، وهو ما نسميه المسكوت المذكور عنه ، لأنه ليس بحاجة لذكره وهو مفهوم قطعاً من المقابلة ، وكذلك لما ذكر الفئة الثانية أثبت لها وصفها (وَأُخْرَى كَافِرَةٌ) ، وسكت عن الوصف الثاني وهو (تقاتل في سبيل الشيطان) لأنه مكتسب من مقابلها ، فمادامت الفئة الأولى تقاتل في سبيل الله ، فالفئة المقابلة لها حتماً تقاتل في سبيل الشيطان ومرة أخرى كان هناك عدم حاجة لذكره وفي الوقت نفسه من المستحيل الاستغناء عنه ،

١ سورة الأنفال . الآية (٤٨) .

٢ سورة البقرة . الآية (٢٤٩) .

أي المذكور المسكوت عنه .

١- فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

٢- وَأُخْرَى كَافِرَةٌ

فتصبح الجملة الأولى :

فِئَةٌ (مؤمنة) تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وتصبح الجملة الثانية :

وَأُخْرَى كَافِرَةٌ (تقاتل في سبيل الشيطان) .

حذف من الجملة الأولى كلمة مؤمنة ، وعرفناها من مقابلها في الجملة الثانية ، فمقابل وأخرى كافرة هو (مؤمنة) . وحذف من الجملة الثانية (تقاتل في سبيل الشيطان) وعرفناها من مقابلها في الجملة الأولى ، فالمقابل لقوله (تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) هو تقاتل في سبيل الشيطان .

• في المقابلة السابقة حذف من الفريق الأول الوصف المفرد (مؤمنة) وترك لك دليلاً عليه من الجملة الثانية (كافرة) .

• وحذف من الفريق الثاني وصف الجملة الفعلية (تقاتل في سبيل الشيطان) وترك دليلاً عليها من الجملة الأولى وهو وصف الجملة الفعلية : (تقاتل في سبيل الله) .

وهكذا صنع الاحتباك : فئتین التقتا :

١- فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله .

٢- وفئة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان .

حقق الاحتباك ما يلي :

١- عدم التكرار والإيجاز مع أداء المعنى .

٢- الالتحام بين المذكور ومحذوفه في كل طرف ، فالطرف الأول ثمة التحام
كأنه توحد وجهي العملة بين الإيمان والقتال في سبيل الله . ، وفي الطرف الثاني
: التوحد بين الكفر والقتال في سبيل الشيطان .

• وتلاحظ : حذف لفظة مؤمنة .. وذكر في سبيل الله .

وذكر لفظة كافرة لإهانتها ، وفضحها . وحذف (تقاتل في سبيل الشيطان)
لأنه لا يستحق أن يقاتل في سبيله .



(٩)

أتى . رجع

قال صديقي المعترض : بربك كيف يقول ربك : { أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ }
 (١) أليس مادام أتى .. يكون قد أتى .. فلو كانت كذلك .. فلا معنى لقوله :
 فلا تستعجلوه .. وإن كان لم يأت .. فلماذا قال : أتى ؟؟ أنا أرشح له قوله (اقترِب) ..

قلت له : تعال نتفق أولاً أنك لو خطأت الصواب ، فأنت لا تعرفه .. لأنك لو
 تعرفه ما كنت خطأته .. هذه القولة قلتها في موقف .. تذكرني به .. تذكرني
 بموقف زميل لي .. كان كثيراً ما يمدحني في وجهي .. ثم في مرة .. سألته
 : ما موعد امتحان نصف العام ؟؟ وكنا في الترم الثاني .. يومها شهر بي
 ولفت انتباه كل الزملاء ، وقال لهم : من شهرين .. يقصد أنني كان يجب أن
 أسأله ما موعد امتحان آخر العام ، ذلك لأن امتحان نصف العام قد حصل
 ، ولم يبق إلا امتحان آخر العام .. فكان يجب أن أسأله : ما موعد امتحان
 آخر العام ؟؟

وقتها لما وجدت شماتته تذكرت قولة الإمام علي بن أبي طالب لرجل أشاد

به كثيراً كما كان يفعل صاحبنا .. فقال له : أنا أقل مما تقول ، لكنني أكبر مما في نفسك .. وعرفت أنني كبير في نفسي ، لأنه ما صدق أن أخطأ ، وأعلن عن فرحته بخطئي ، بل عمل حفلة ..

وقتها .. قلت له ما قلت لك الآن .. لكنك ما أخطأت ، وحضرتك خطأت الصواب .. وهذا يعني أنك لا تدري ما الصواب .. يا عزيزي ، كل ما يقال عن شطره نصف ، فالشطر الآخر نصف ، فهلا لو جئنا ببرتقالة وقسمناها نصفين : نقول على الأول منهما نصف ، ولا يجوز أن نقول عن الثاني نصف ، كلاهما نصف ، وأنا استعملت كلمة نصف ..

والحقيقة أنني لما قلت لم أكن متعمداً ، لكنني تكلمت بعفوية ، ف لما وجدته يكشف عن دخيلته ، فتح الله لي بالخروج من المأزق .. وهكذا أنت يا صديقي .. تخطأ الصواب .. فالقرآن لم يقل إلا الصواب .. وأنت تقترح أن نضع بدلاً من أتى .. اقترب ، فهل لو كان القول لا يصلح له إلا أتى .. ألا يعني ذلك أنك تضع الخطأ مكان الصواب ، ومن ثم لا تعرف الصواب ..

. كيف ذلك .. ؟؟ كلامك صحيح مع زميلك .. وأقنعني أنك كنت على صواب وإن لم تقصد .. لكن القول واضح .. أنه يعبر عن شيء لم يحضر بعد ، فلا يصلح معه إلا اقترب ..

قلت ..

لوقلت .. إنه يعبر عن شيء لم يحضر بعد ، فلا يصلح معه إلا أتى ، لكنك تقعد للقاعدة كما يجب ، انظر يا عزيزي .. هل لو كان الفعل أتى بمعنى لم يحضر بعد . ألا يكون تحقق لك ما تريد .. فهو كذلك ، وانظر إلى الفروق بين الأفعال الأربعة : أتى .. جاء .. رد .. رجع .. لتعرف منظومة التنقل من مكان إلى آخر أو العكس .

□ أتى: بداية التحرك من مكانك إلى وجهتك قبل الوصول إليها ، فلو

أنت في النقطة (أ) وتحركت إلى النقطة (ب) دون أن تصل إليها ، فالفعل المناسب (أتى) ، وانظر إلى قوله تعالى : { أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ }^(١) أي أن الأمر انطلق فعلاً ، وهو في طريقه إليكم ، ولهذا صح الطلب بعدم استعجاله .

□ جاء : هي الوصول الفعلي إلى الوجهة المقصودة ، أي وصولك بالفعل إلى النقطة (ب) .

وسوف نأخذ مثلاً مشتركاً لاستعمال الفعلين في موقف واحد ، هو موقف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وانطلاقه إلى الشجرة . فنقطة الانطلاق هي المكان الذي كان يقف فيه هو وأهله ورأى النار ، ونقطة الوصول إلى النار أو الشجرة . فالفعل أتى : إذا كان في طريقه . مازال . والفعل جاء إذا وصل إليها فعلاً ، فانظر إلى تلك المغايرة :

		مغايرة :
{	فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ	①
{	فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ	②
[النمل]	{ ٨ }	
[طه]	{ ١١ }	

الصورة الأولى ① : { فَلَمَّا جَاءَهَا }^(٢) : الفعل جاء يعني وصول القادم إلى مكانه المنشود ، الذي خرج من مكانه يقصده ، ولذلك جاء قوله الله له (أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا) ، وهو يدل أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل المكان ، وشملته بركة الله .

الصورة الثانية ② : { فَلَمَّا أَتَاهَا }^(٣) : الفعل أتى ، هو مرحلة ما قبل الوصول ،

١ سورة النحل . الآية (١) .

٢ سورة النمل : { فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ٨ .

٣ سورة طه : { فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَىٰ ١١ إِيَّا أَنَا رَبُّكَ فَخَلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٢ } .

فالنص هنا يتحدث عن رحلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الشجرة قبل الوصول إلى الشجرة ، ولذلك جاء النص يبين أنه مازال خارج المكان لم يصل إليه ، فالله عزَّ وجلَّ يطلب منه أن يخلع نعليه (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ) مما يدل على أنه لم يدخل المكان بعد .

رد : الرد : هو الشروع في الرجوع ، فهو جنين فعل الرجوع .
فعندما تبدأ رحلة الرجوع من الوجهة المنشودة (ب) إلى محطة الانطلاق (أ) دون الوصول إليها فهذا هو الرد . فهو معكوس الفعل (أتى) .

رجع : هو الانتهاء إلى محطة الانطلاق التي انطلقت منها أي الوصول الفعلي للنقطة (أ) التي بدأت منها .

ومرة أخرى نستعمل مغايرة أخرى في موقف مشترك هو استعادة أم موسى لولدها الصغير موسى : تم استعمال الفعلين (رد ، رجع) :

		مغايرة :	
[طه]	﴿٤٠﴾	فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ	①
[القصص]	﴿١٣﴾	فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ	②

الصورة الأولى ① : {فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ} (١) : الرد هو الشروع في الإرجاع ، فالطفل الصغير موسى مازال في قصر فرعون ، فلما حرم الله على الطفل المراجع ، فلم يترك لهم طريقاً سوى قبول نصيحة الأخت : (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ) فلما وافقوا ، فقد بدأت رحلة رجوعه إلى أمه لكنه لم يصل إليها بعد ، وهذا هو الرد . وتكرر

١ سورة القصص : {فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} ﴿١٣﴾ .

الأمر في قوله تعالى: { فَالْقِيَمَةَ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِ إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ } (١) إذ يتحدث عن رجوع لم يتم بعد ، لكنه سيتم فيما بعد ، فهي مازالت لم تلقه في اليم ، فإذا ألقته وذهب إلى هناك حيث قصر فرعون ، فإن الله سيبدأ له من هناك طريقاً يرجع إليها . عندما يوافق الفرعون أن يحضر أمه له ، فإذا وصل إلى صدرها فقد رجع فعلاً .

٢ : { فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ } (٢) : الحديث هنا موجه إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فهو يحكى له موقفاً سابقاً حدث له في طفولته ، في سياق المن عليه ، ولذلك عدل عن لفظة الشروع في الرجوع أي هو في الطريق إلى المكان الذي تركه وهو بيت أمه . والمن يقتضى أن يكون قد رجع فعلاً ووصل إلى بيت أمه ثانية . كما أنه لا يحكى القصة بتزامنها الوقتي ، فهو لا يصف لنا رحلة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ منذ ألقته أمه في اليم ، حتى وصل إلى القصر وحرمت عليه المراضع وجاءت أخته تعرض عليهم مرضعاً ، وهنا كانت موافقتهم هي شروع في إرجاع إلى أمه ، والإرجاع هو وصوله إلى أمه ، فلما كان مازال لم يرجع فهو في مرحلة الشروع لذلك أطلق لفظة (رد) فإن وصل إلى أمه فعلاً كما حدث بعد ذلك أطلق لفظة (رجوع) . وكانت الدقة في استخدام الشروع حين كانت سورة القصص تتبع الطفل وتحدث عن اللحظة بين وجوده في القصر وبين رجوعه إلى أمه ، أما سورة طه فهي تحكى عن المن بالرجوع إلى الأم فعلاً ، والقصة قد حدثت كلها .

وهكذا نرى أن منظومة الأفعال الأربعة كالآتي :

ب

جاء

← أتى

أ

ب

→ رد

أ

رجع

١ سورة القصص . الآية (٧) .
٢ سورة طه : { إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَاقُولِ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ } .

ولو أخذنا مثلاً لهذه المنظومة من سورة يوسف :

• **الفاعل يأتي** : استخدم الفعل يأتي لشيء لم يحدث بعد : { **ثُمَّ يَأْتِي** مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ } ، { **ثُمَّ يَأْتِي** مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ } ، { **وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ** } ، { **أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ** } ، { **فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي** } ، { **حَتَّى تَأْتُونَنَا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ** } ، { **فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ** } ، { **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا** } ، { **يَأْتِ بِصِيرًا** } ، { **وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** } ، { **أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً** } .

• **الفاعل جاء** : للتعبير عن الوصول إلى الوجهة التي انطلقوا إليها .
 : { **وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ** } ، { **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ** } ، { **وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ** } ، { **قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ** } ، { **فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ** } ، { **جَاءَهُمْ نَصْرًا** } ، { **حَتَّى تَأْتُونَنَا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ** } ، { **فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ** } ، { **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا** } ، { **يَأْتِ بِصِيرًا** } ، { **وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** } . أما قوله تعالى : { **وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ** } ، { **وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ** } : فقد استعمل الفاعل جاء : للإشارة إلى أن محطة انطلاقهم كانت مكان المؤامرة ، فما خرجوا من بيت أبيهم والقميص عليه دم ، بداية الدم من مكان المؤامرة ، فتلك محطة الانطلاق ، وقد وضعوا الدم من أجل خداع أبيهم أي وصلوا بالقميص ذي الدم الكاذب إلى محطة وصولهم وهو أبوهم .

• **الفاعل رد :** للتعبير عن نية الرجوع : { وَجَدُوا بِضَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ } ،
 { هَذِهِ بِضَعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا } لأنها معهم منذ جاءوا
 من مصر ، فهي مردودة من يوسف ، وإن لم يكتشفوا
 ذلك إلا بعد رجوعهم .

• **الفاعل رجوع :** التعبير عن الرجوع للمكان نفسه الذي تم الانطلاق منه
 :

{ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ } : فالرسول يريد أن يرجع لمن أرسلوه .

{ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } : يوسف يريدهم أن يرجعوا إليه بعد
 وصولهم إلى أبيه .

{ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ آبِهِمْ } ، { أَرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ } : لأن هذا
 المكان الذي جاءوا منه .

وانظر إلى تلك الآية التي حملت ثلاثة أفعال من تلك المنظومة :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ ۗ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ
 النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف]

الفاعل الأول { أَتُؤْتِنِي بِهِ ۗ } لأن الشيء لم يحدث بعد ، لكنه أكيد . والفاعل
 الثاني { فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ } أي وصل الرسول من محطة انطلاقه من عند
 الملك إلى محطته المقصودة (يوسف) . ثم جاء الفعل الثالث { أَرْجِعْ إِلَىٰ
 رَبِّكَ } : فيوسف عليه السلام يطلب منه أن يرجع من حيث أتى . أي يصل
 للمحطة التي انطلق منها .

وقد جاءت تلك المنظومة في بحثنا هذا :

الأول {وَأَيَّنْتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} ، {ثُمَّ يَرُدُّ إِلَى رَبِّهِ} ، {ءَأْتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} ،
 {فَإِذَا جَاءَ وَعَدُّ رَبِّي} ، {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا} ، {وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} ،
 {حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا} ، {وَحِجَّتْكَ مِنْ سَبِيلٍ} ، {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} ، {فَأَنْظُرْ} ،
 {مَاذَا يَرْجِعُونَ} ، {وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} ، {بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} ، {فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ} ،
 {فَمَا ءَاتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَيْنَاكُمْ} ، {أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ} ، {فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ} ،
 {قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} ، {أَنَا ءَانِيكَ بِهِ} ، {قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ} ، {فَلَمَّا} ،
 {جَاءَتْ} ، {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ} .

• **الفاعل أتى** : المعبر عن الفعل قبل تجسده ، ومن ثم فهو يشير إلى مصدر الانطلاق أكثر منه إشارة إلى مصدر الوصول : ولهذا جاء التعبير عن النعم بالإشارة إلى مصدرها : {وَأَيَّنْتُهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} ، {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا} ، {وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} ، {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} ، {فَمَا ءَاتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا ءَاتَيْنَاكُمْ} ، {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ} . كما استعمل الفاعل أتى للتعبير عن خطوة ما قبل الوصول : فالفاعل لم يحدث بعد : فهم لم يصلوا إلى وادي النمل بعد وسمع سليمان عليه السلام كلام النملة قبل الوصول إلى هناك {حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا} . وعضريت الجن يعد بإحضار العرش فلم يحضره بعد : {أَنَا ءَانِيكَ بِهِ} وقوله {فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ} هو وعيد لم يتم بعد ، وكذلك : {وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} ، {قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} لأنهم لم يأتوا بعد ، وأخيراً : {ءَأْتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} : لأنهم لم يأتوا به بعد .

• **الفاعل جاء** : المعبر عن الوصول إلى المحطة المقصودة : فقوله {فَإِذَا جَاءَ

وَعَدْرِيَّ { يتحدث عن تحقق الوعد الذي انطلق مكتوباً ، أي أن الحكم حتمي بأن الوعد قادم ، لكن تحققه بخروج يأجوج ومأجوج من وراء الردم . فتحققه هو وصول الوعد الحتمي إلى محطة وصوله . وقوله { وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ } لأن الهدهد قد وصل فعلاً بالنبأ ، ولا تقل لي ، لكن الهدهد قد انطلق من عند سليمان ، فالفعل المناسب : رجع ، لا ، لأن انطلاقه بالنبأ لم يتم من عند سليمان بل من عند ملكة سبأ ، فهي محطة الانطلاق ، وسليمان هو محطة الوصول ، فلا يصلح إلا الفعل (جاء) .

أما التعبيران : { فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ } ، { فَلَمَّا جَاءَتْ } : يتحدث عن وصول رسول ملكة سبأ إلى سليمان ، وتلك محطته التي انطلق من بلاده إليها ، والثاني يتحدث عن ملكة سبأ للوجهة نفسها ، فقد انطلقت من بلاده لتصل إلى سليمان .

• **الفعل رد :** التعبير عن الرجوع للمكان نفسه الذي تم الانطلاق منه : { ثُمَّ رُدُّوا إِلَى رَبِّهِمْ } ، { قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } : فالتعبير الأول يتحدث عن عذاب القبر ، ولو قصد عذاب الآخرة لقال : يرجع . والتعبير الثاني : أي أن العرش سيكون أمامه قبل أن يفتح عينيه ، فإذا فتحها بعد الرمض وجده موجوداً .

• **الفعل رجع :** تكرر ثلاث مرات : سليمان عليه السلام يقول لرسول الملكة { أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ } فهو يرجعه إلى المكان الذي انطلق منه . والأمر نفسه تقوله الملكة { بِمِ رَجْعِ الْمُرْسَلُونَ } أي أنها ستنتظر حتى يرجع المرسلون إليها ، أي إلى المكان الذي

انطلقوا منه . أما الفعل الأخير فقولة سليمان عليه السلام

للهدد : { فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ }

* لم يقل رجعت ، لأن الرد يعبر عن كراهيته لتلك الردة ، فهو لا يريد ما هو يحب ما هو فيه من نعمة ولا يريد أن يزايلها ، ولا يتصور أن تبعد ، وعلى سبيل الافتراض لو كان هناك بعث كما يزعم صاحبه المؤمن فهو يأمل أن يجد فيه خيراً كما وجد في الدنيا . فهو لا يؤمن بالبعث ، ولا يريد حدوثه ، لهذا استخدم رددت لأن الردة ستتم جبراً دون إرادته . بخلاف الرجوع فيه ألفة ورغبة ، لأن رجوع تعنى العودة إلى مكان كان فيه ، بخلاف رد تعنى الإكراه على العودة . ولهذا استخدم الفعل مبنياً للمجهول ليكشف أن عودته إلى ربه لم تكن بإرادته ولا برغبته . إن سر المغايرة يرجع إلى أن قارون كان أكثر جرماً ، وأشدّ عتواً وتكبراً واستعلاءً . فجاء المصير مختلفاً ، جاء عقاب كافر الجنتين منصباً على جنته ، وجاء عقاب قارون منصباً على كنوزه وعليه .



(١٠)

جان . عصا . ثعبان

قال صديقي المعارض: لا اعتراض لي على أن تتحول عصا موسى إلى أي شيء ، لكن ألا ترى معي أن من التناقض أن تذكر أنها تحولت إلى جان ، وإلى حية ، وإلى ثعبان .. حولها كما تحب .. لكن إلى شيء واحد ؟ أم تقول كما قال بعض علماءكم .. كل واحد رآها كما يريد .. ؟؟

قلت .. لا ، طبعاً ، لن أقول ذلك .. لكني أسألك .. أيكون تناقضاً ، لو تحولت مرة إلى حية ، ومرة أخرى ثعبان ؟؟ أم أنت معي أن اختلاف الوقت والمكان يسمح بالتغير .. ؟؟

يا عزيزي .. أولاً العصا لم تتحول إلى ثلاث أشكال ، بل إلى شكلين .. أحدهما في وقت ومكان ، والثاني في وقت ومكان آخر .. فهل لم تتحول أبداً إلى جان .. يقول رب العزة :

{ وَاللَّيْلِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَرُ كَأَنَّهُمَا جَانٌّ وَلِي مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ }^(١) فهل لما يقول (

كانها جان) تفهم منها أنها أصبحت جان ، يعني الآن لو شبهتك بشيء ما ، ولن أقول حتى لا تزعل . أو أقوله عن آخر ، لو أنني شبهت إنساناً يجلس معنا

الآن بأنه حمار ، هل يصبح حماراً فعلاً ؟ أم أنه مجرد تشبيه .. والتشبيه يقتضي شيئين المشبه والامشبه به ، ويحدث بينهما تشابه فحسب ..

إذن العصا في المرة الأولى لم تصبح شيئاً مغايراً لطبيعتها ، هي عصا وظلت عصا ، لكنها تتحرك كالجان ، ولم يقل القرآن فإذا هي جان ، بل قال (كَأَنَّهُا جَانٌّ)

وإليك القصة بوضوح ، قال رب العزة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ .. ألق عصاك ، ففعل ، فراها تهتز مثل الجان ، فهنا .. خاف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وولى مدبراً برغم أنه في حضرة ربه ، ولم يعقب . إذن مازالت العصا عصا .. وما خوف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ منها إلا لأنه توهم أنها أصبحت فعلاً جان ، لكنها لم تتغير ، ولو تغيرت لقال فإذا هي جان ليثبت تحولها إلى تلك الصورة الجديدة .

وهنا .. يخاطبه ربه .. ويناديه باسمه ليقبل ولا يخاف ، ويخبره بأنه من الآمنين ، وأن الله لا يخاف لديه المرسلون ..

﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنمل]

﴿يَمُوسَى أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾﴾ [القصص]

ويقبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ويأخذ عصاه .. ويبدأ الله في محادثته ، وهنا يزول الخوف منه ، ويحل محله الأنس بربه ، ومرة أخرى يسأله ربه : وما تلك في يمينك يا موسى ؟ وهل لا يعرفها الله ؟ وهل لم يقل له من قبل : ألقها .. تلك إذن مؤانسة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فيجيب موسى ويطيل الإجابة إنساً بكلام الله ، فيقول :

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا

مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ

أَتَوَكَّرُوا عَلَيْهَا وَأَهْمَسُ بِهَا عَلَى عَنَمِي وَلِي فِيهَا مَثَابٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ [طه]

فهذا موقف أنس ، بدليل إطالة موسى للإجابة ، عن وظيفة العصا ، بينما السؤال كان عن ماهيتها ؟ ولما أحس أنه أطال أجمل فقال (وَلِي فِيهَا مَثَابٌ أُخْرَى) لعل ربه يسأله وما تلك المآرب يا موسى ، فيواصل الحديث مع ربه . وهنا بعد أن يصل موسى إلى تلك المرحلة من الأنس بالله والرغبة في استئطالة الحديث معه ، عاوده ربه العزة بالأمر مرة ثانية بأن يلقي العصا مرة أخرى :

﴿ قَالَتْ فَهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه]

وانظر إلى المغايرة في التعبير لاختلاف الموقفين ، لم يقل (كأنها حية) بل قال (فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ) مما يعني أنها انتقلت عن هويتها الأولى إلى هوية جديدة ، فأصبحت فعلاً حية .

وهكذا في حضرت رب العزة .. مرت العصا بمرحلتين : الأولى ظلت كما هي لكن اكتسبت خصائص تشبيهية بالجان مما جعل موسى يخاف ، ثم انتقلت عن حقيقتها لأول مرة إلى مقيمة أخرى وهي حية تسعى ، وبذلك كان الأمر يأخذ صفة التدريج بهدف تدريب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى إذا ذهب إلى فرعون لا يصيبه الفزع من آيته . إذن نحن الآن في سيناء .. والحوار بين الله وموسى فحسب ..

وليس هناك أحد يرى العصا إلا موسى ، فتوهم أنها تحولت ، ولم يكن ذلك صحيحاً ، ثم تدرج الله به بعد أن أنزل السكينة في نفسه فجعل العصا فعلاً حية تسعى ، لكن لم يعد موسى خائفاً ، ولذلك قال له : { قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى }^(١) ، ويقال إن موسى مد يده في فمها وأخذها ، فرجعت في يده عصا مرة أخرى .

وهنا سيطلب منه ربه أن يذهب بتلك الآية إلى فرعون ، إذن سيكون ذلك في وقت آخر ومكان آخر ، وهناك في قصر فرعون : لن يكون الحوار بين الله وموسى ، بل سيكون للمشهد أبطال آخرون هم موسى طرفاً وفرعون والملاّ طرف آخر والسخره .. ويتكرر الأمر في يوم آخر ، هو يوم الزينة .. أمام الجمهور .. ويخوض موسى صراعاً جديداً أمام فرعون ضد سحره آخرين .. وهنا في المشهد الذي يحضره فرعون تتحول العصا إلى ثعبان مابين لتكون أكثر فعالية في إخافة فرعون وأعوانه .

وهكذا نرى أن العصا خاضت أربع مباريات .. اثنتان في سيناء ، كان رب العزة يدرّب موسى حتى لا يتفاجئ بمنظر العصا لما يكون في مواجهة فرعون ، وهنا كان التدرج :

(أ) في سيناء (الله وموسى) :

١. عصا تظل عصا لكنها تشبه الجان . (ويخاف موسى) .

٢. بعد سكينته تتحول العصا فعلياً إلى حية تسعى ، لكنه لم يعد يخاف منها .

(ب) : في مصر : (فرعون وموسى والسحره)

١. تتحول إلى ثعبان مابين سواء في القصر ، أو أمام الناس في يوم الزينة .

جاء تطور العصا تدريجياً مناسباً لاحتمال موسى ، فعند الوهله الأولى لن يتحمل موسى أن يرى العصا تتحول إلى حية ، فبدأ معه بأصغر حالة وهو اهتزاز العصا ، وبرغم ذلك وبرغم أن العصا لم تتغير عن صورتها بدليل (كأنّها) إلا أن موسى خاف في البداية مما يؤكد أنه ما كان ليحتمل أن يبدأ معه بالصورة الأشد خوفاً مادام لم يحتمل أدنى درجاتها .

وبعد اطمئنان موسى تدرج الله معه ، فحولها إلى حية ، ولم تتحول العصا إلى ثعبان في هذا الموقف التدريبي ، لأن الهدف من معجزة العصا إخافة فرعون لا موسى ، لهذا استبقى الله عزَّ وجلَّ تحولها إلى ثعبان إلى مرحلة اللقاء بين موسى وفرعون ، أما هنا والله يدرّب موسى على عدم الفرع من المعجزة التي سيجريها على يديه ، نجده يبدأ بأصغر حالة وهو الاهتزاز ، ثم بالحية وذلك في التدريب الرباني لموسى ، وعند المواجهة مع فرعون وصلت العصا إلى أعلى درجاتها وهي الثعبان المبين .

فأي تناقض وكل شكل من أشكالها كان له مكان ووقت مختلفان ، فلما اهتزت كالجان لم يرها أحد إلا موسى ، وكذلك لما تحولت إلى حية ، لم يرها أحد إلا موسى وكان ذلك في سيناء في حضرة الذات الإلهية .

وفي مصر ، وفي مواجهة فرعون التزمت العصا شكلاً ثابتاً واحداً ، فكلما ألقاها تحولت إلى ثعبان مبين ، أي أن الناس في مصر لم يروها إلا ثعباناً مبيناً . وهكذا يمكن أن نجمل القصة في الجدول الآتي :

عصا تشبه الجان	التدريب	الله ، موسى	سيناء
حية تسعى	التدريب (بعد الاطمئنان)		
ثعبان مبين	في القصر	فرعون ، موسى	مصر
ثعبان مبين	يوم الزينة		



(١١)

اسطاعوا . استطاعوا

قال صديقي المعترض ، ننتقل إلى معترك جديد ، فلا بد أنك معي أن الكلام الحق هو الذي يساوي معناه ، لا يزيد ولا ينقص ، وإنه إن زاد أو نقص فقد قصر عن مهمته .

قلت : جميل .. وهذا هو القرآن .. الكلام الملتبس بمعناه ، فلا يمكن أن تسد كلمة مكان كلمة القرآن ، هذا هو التوضع .. كل حرف في مكانه ..

قال : المهم أن تجد ذلك في كل القرآن ، لكن في بعض الأجزاء أو أكثر الأجزاء ..

قلت : وهذا ما يميّز القرآن الكريم ، يمكنك أن تطبق تلك النظرية على كل كلماته ، بل على كل حروفه .. لتجد كل كلمة في مكانه ، لا يصلح للمعنى إلا هي ..

لكنه يحذف حروفاً لا يجب أن تحذف ، والدليل على أن تلك الحروف التي لا يجب أن تحذف أنها ذكرها في موضع آخر ..

.هات ما عندك ..

.إليك مثلاً الفعل استطاع ، استعمله القرآن في آية واحدة .. مرة بدون التاء ، وأخرى بالتاء .. { فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا } (١) .

. ألم أقل لك إنك تلعب معنا .. وهل هذا مأخذ .. ؟؟؟ إنه نموذج لإعجاز القرآن الكريم .. انظريا عزيزي ، جمعت تلك الآية الكريمة .. : أتدري أن القرآن استعمل التعبير { بَيِّنْ ذَلِكَ } سبع مرات ، وليس مرة واحدة .. وإليك الإجابة .. اللغة فعلاً لا تسمح أن تضاف بين إلى مفرد ، لكن ذلك اسم إشارة ، أي أنه يكون حسب المشار إليه ، فيكون مفرداً إذا أشار إلى مفرد ، لكن ماذا لو أشار إلى جمع ، هنا يحمل سمات ما يشير إليه لأنه يتوح { بَيِّنْ } ، وانظر إلى قوله تعالى التي تحدثت عنها : { إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ } لفظ { ذَلِكَ } تشير إلى طرفين فصح وقوع (بَيِّنْ) قبلها ؛ لأن (ذَلِكَ) تدلُّ على ما تشير إليه ، وهي تشير إلى طرفين هما : { عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ } (٢)

لقد جمعت الآية الكريمة : الفعلين (استطاع) ، أحدهما جاءت معه التاء والآخر خلا من التاء ، ليقنن لنا القرآن أن تاء الافتعال يمكن أن تسمى كذلك في النحو ، لكن في علم الدلالة والمعنى يجب أن تسمى تاء المعاناة .

فهي تاء تفيد المشقة ، فإذا وجدتها في الفعل أفادت أن الفعل لا يتم إلا بمشقة ، بينما يفيد خلو الفعل منها انعدام المشقة .

١ سورة الكهف ، الآية (٩٧) .

٢ يقصد قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ (٦٨) (البقرة) .

فلو قلنا مع خليل مطران : ولقد ذكرتك والنهار مودع ..: الفعل (ذكرتك) يفيد شدة الوفاء ، لأن خلوه من التاء يعني أنه لا يعاني صعوبة في تذكرها ، مما يعني أنه لم ينسها أبداً ، أما لو زدنا التاء فهذا يعني أنه نسي ثم تذكر ، أي أنه عانى في التذكر فيكون أقل وفاءً .

ولنقف عند الإعجاز القرآني الذي يتعمد حذف التاء ، ولا يمكن أن تكون التاء سقطت سهواً منه فقد استخدم القرآن الفعل مرتين في آية واحدة مرة بالتاء وأخرى بدونها ، إنما ترك التاء متعمداً ، لإفادة أن أحد الأمرين أقل صعوبة من الآخر : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ۗ ﴾ (الكهف).

الإظهار: أي الصعود، والصعود على سد من الحديد والنحاس أخف من نقب السد. لذلك حذف التاء في الإشارة إلى أن هذا العمل أخف من الآخر .

وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا : يتحدث عن اختراق سد مصنوع من الحديد والنحاس ، وهو عمل فيه استحالة ، لذا وضع التاء للإشارة إلى مدى المشقة في هذا العمل الشاق الثقيل .

مما سبق نرى أنه وضع التاء في أثقل العملين ، ونقب الجبل أثقل من صعوده لذلك وضع تاء المعاناة معه ، وحذفها من الصعود لأنه أقل مشقة من نقب الجبل .

الفرق بين (اسْتَطَعُوا) ، (اسْتَطَعُوا)

الدلالة	السبب	الفعل	الجهد	الحالة
		اسْتَطَعُوا	عمل يتطلب جهداً أقل	صعود الجبل
للمشقة والجهد	تاء المعاناة	اسْتَطَعُوا	عمل يحتاج إلى جهد أشد	اختراق الجبل

مما سبق نرى أن القرآن يقدم للعربية قانوناً للاستعمال ، ويبرز المشقة الكامنة في حرف تاء الافتعال ، مما حدا بنا إلى تسميتها تاء المعاناة .

	تعبّر عن العمل الذي يتطلب جهداً أشد ووقتاً أطول .	تاء المعاناة
المشقة	يعبر عن قلة المشقة	عدم وجودها

مثال ثان لحذف تاء الفعل تستطيع :

• ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٨٢) (الكهف) .

جاء ذلك في السورة نفسها في قصة موسى عليه السلام والعبء الصالح : الخضر .

وقد طلب موسى صحبة الخضر ،

موسى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلِمَنَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا

(١) الخضر إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

موسى سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا

الخضر (مشرطاً) فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَتَسَلَّنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا

وقام الخضر بالفعل الأول ، وهو خرق السفينة التي يركبها .

موسى (متعجباً) أَخْرَقْنَاهَا لِلْغُرُقِ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا

(٢) الخضر أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

موسى لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا

ثم قام الخضر بالفعل الثاني وهو قتل غلام .

موسى (مستكراً) أَقْبَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا

(٣) الخضر قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

موسى إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي ۖ فَدَّ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا

ثم قام الخضر بالفعل الثالث وهو إقامة جدار لقرية لا تستحق ،
فعرض عليه موسى أن يطلب منهم الأجر لأنهم لا يستحقون كرمًا .

هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٤)

الخضر

قام الخضر بشرح كل أفعاله الباطنية الغامضة على موسى فالجدار كان
تحتة كنز ليتيمين ، فلو تركه ينهار لعثر أهل القرية السيئة على الكنز
واغتصبوه من اليتيمين ، وأما السفينة فكانت لمساكين وخشى أن يأخذها
الملك إذا وجدها صالحة ، فخرقها حتى يتركها الملك ، ثم بعد ذلك يمكن سد
الخرق بسهولة ، أما الغلام فقد قدر له أن يكون طاغياً ، فقتله حتى يبدل
الله أبويه المؤمنين خيراً منه ، ثم قال الخضر كلمته الختامية :

ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٥)

الخضر

تلك هي القصة كاملة . في البداية نجد أن الله ﷻ يستخدم فاصلة بين
الأحداث الثلاثة هي : (فانطلقا) ،

ثانياً نجد خمسة أقوال للخضر فيها الفعل (تستطيع) :

القول الأول : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

القول الثاني : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

القول الثالث : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا

القول الرابع : سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا

القول الخامس : ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا

القول الأول وضع التاء لأنه يستبعد عنه فهم الموقف قبل الرحلة ،
وظل قبل كل موقف يستخدم الفعل نفسه لأنه يستبعد عنه فهم المواقف
الباطنية التي سيفعلها فهي مواقف لا ينم ظاهرها عن الخير ، مما
سيوقع موسى في حيرة ومعاناة نفسية .

وهذه المعاناة لا يصلح معها سوى تاء المعاناة ، لذلك وضع التاء في
الأقوال الأربعة الأولى ، لأنها تتفق مع ما عليه موسى من تحير ومعاناة

نفسية قاسية .

أما القول الأخير فقد قاله الخضر بعد أن أزاح بتفسيره معاناة موسى ، فقد فهم موسى أن أفعال الخضر وأن بدت له شريرة إلا أنها الخير نفسه . وبانحسار الكبت النفسي عن موسى وتحوله إلى راحة وسكينة جاء الفعل في الثانية خفيفاً بحذف التاء ليناسب انحسار الثقل النفسي عن موسى وإحساسه بالراحة النفسية .

تاء المعاناة تعبر عن شدة حيرة موسى في مواجهة أفعال تبدو شريرة
لَمْ تَسْتَطِعْ
زالت تاء المعاناة بعد أن زالت حيرة موسى وفهم أن أفعال الخضر هي الخير نفسه .
لَمْ تَسْطِعْ

القول الأول ① إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا : استعمل الأداة (لَنْ) لأنه يتحدث عن الموقف قبل حدوثه ، واستعمل الفعل (تَسْتَطِيعَ) بالتاء لأنه يدري أن موسى سيعاني في فهم أفعال ظاهرها يتناقض مع باطنها . وكذلك استعمل (معي) لأنه سيكون مصاحباً لموسى في الموقف القادم . وسوف يستعمل التعبيرات الثلاثة (لَنْ ، تَسْتَطِيعَ ، مَعِيَ) قبل كل موقف من المواقف الثلاثة .

القول الثاني ② أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا : جاءت تعقيماً على تعجب موسى من خرق السفينة ، وهذا التعجب يبدو في قوله (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) . فعاتبه بقوله (أَلَمْ أَقُلْ) ، وقد استخدم (لَنْ ، تَسْتَطِيعَ ، مَعِيَ) لأنه مقبل على موقف ثانٍ مستقبلي سيصعبه فيه .

القول الثالث ③ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا : زاد لفظة (لَكَ) زيادة تعنيف لموسى ، مواكبة لتصعيد موسى لموقفه من التعجب إلى الاستنكار على قتل الغلام فقال (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) . كما استخدم (لَنْ ، تَسْتَطِيعَ ، مَعِيَ) لأنه مقبل على موقف ثالث مستقبلي سيصعبه فيه .

الفرق بين (أَلَمْ أَقُلْ) ، (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ)

الموقف	موقف موسى	رد الخضر	السبب	الخطاب
١ - السفينة	تعجب	تعنيف أقل	كانت أول مرة	أَلَمْ أَقُلْ
٢ - قتل الغلام	استنكار	تعنيف أكبر	وقع في الخطأ للمرة الثانية	أَلَمْ أَقُلْ لَكَ

القول الرابع 4 سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا : لم يستخدم (لَنْ) ، لأنه لن يفعل موقفاً مستقبلياً بعد ذلك ، والحديث يعبر عن المواقف السابقة لذلك استخدم (لَمْ) بدلاً من (لَنْ) واحتفظ بتاء تستطيع لأن الأمر ما زال مستغلقاً على موسى . لكنه عدل عن لفظة (معى) لأنه لن يصحبه في موقف قادم ، واستخدم مكانها (عَلَيْهِ) لأن موسى عليه السلام وحده هو الذي عانى في فهم المواقف الماضية .

القول الخامس 5 ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا : استخدم (لَمْ) ، لأنه يعبر عن المواقف السابقة ، وحذف التاء لأن الأمر لم يعد صعباً على موسى بعد تفسير الخضر لأسرار المواقف . ولم يستخدم (مَعِيَ) لأنه لن يصحبه بعد ذلك في موقف قادم ، بل يتحدث عن مواقف ماضية استعصت على موسى وحده .

وهكذا ترى أنه قبل الموقف الذي سيصحبه فيه الخضر موسى يستخدم :
لَنْ تَسْتَطِيعَ
لأن العجز عن الصبر مستقبلي . ووضع التاء لأنه سيعاني في الفهم .
مَعِيَ
لأن الخضر سيصحبه في الرحلة المستقبلية .

وبعد أن قرر إنهاء الرحلة ، وإخباره عن الأمور التي عجز فيها :
عدل عن الحرف (لَنْ) لأنه لن يتحدث عن مواقف قادمة ، بل سيتحدث عما حدث ، وعدل عن لفظة (مَعِيَ) إلى لفظة (عَلَيْهِ) : لأنه لن يصحبه في مواقف قادمة ، بل يوضح له أفعالاً حدثت واستعصت عليه وحده .

ولأن القولين الأخيرين أحدهما قبل التوضيح ،والآخر بعد التوضيح نجد أنه يثبت التواء في القول الرابع لأن الحيرة عند موسى عليه السلام ما زالت مستمرة ، ويحذفها في القول الخامس بعد الإيضاح لأن الحيرة قد انجلت .



(١٢)

الفعل ذو الخطوتين

في قوله تعالى: { وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا }^(١) . جاء بالفعل الرباعي (يُضِلُّ) لكنه استعمل معه المصدر الثلاثي (ضَلَّالًا) بدلاً من مصدره الرباعي: إضلالاً ، وقد تسأل : فلماذا قال ربنا : ضلالاً بدلاً من إضلال .. ؟

تلك تقنية لغوية تعبر عن خطوتين بتعبير واحد ، ذلك لأن ما يفعله الشيطان في ضلال الإنسان يتم على خطوتين : الأولى : غيرية من الخارج ، وتلك يقوم بها الشيطان بنفسه ، ثم بعد ذلك يتركهم لأنفسهم ليكملوا الضلال بذاتهم وتلك هي الخطوة الثانية وهي خطوة ذاتية داخلية يقوم بهلا الإنسان بنفسه ، والمعني أن الشيطان يبدأ في الإضلال ، وتلك مرحلة غيرية يقوم بها هو من الخارج ، ثم بعد ذلك يريدهم أن يضلوا هم أنفسهم بأنفسهم ، وبذلك يبدأ هو الإضلال ، ويتركهم يتمون هذا الضلال :

الضلال : هو الضلال الذاتي ، دون تدخل من أحد ، ولهذا في المرات الأربعة نجد أنهم الفاعل ، أي هم أنفسهم الذين ضلوا .

١ سورة الكهف ، الآية (٦٠) .

الإضلال الرباعي : هو الإضلال بواسطة الغير ، ولهذا نجد أن الفاعل في قوله : يريد الشيطان أن يضلهم : ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على الشيطان ، فالفاعل في إحداث الضلال ، ليس من ضل ، بل الذي حدث لهم الضلال مفعول به ، مما يعني أن هناك محدثاً للضلال هو الشيطان ، وهناك متعرضاً للضلال هو الناس . فالإضلال من الفعل أضل يعني : أنهم ضلوا بغيرهم .

وقد عدل القرآن عن المصدر إضلال إلى المصدر ضلال ، ليجمع بين المعنيين ، الإضلال (يحدثه الشيطان) ونستدل عليه من الفعل الرباعي ، والضللال (يفعله الإنسان بنفسه) ونستدل عليه بالمصدر (يضلهم ضلالاً) . فعملية الضلال تتم على مرحلتين :

الأولى : فعلها الشيطان وأضلهم ،

والثانية : يريدهم أن يواصلوا المشوار ، ويكملوا بأنفسهم . فهو يريدهم أن يقوموا هم في المرحلة الثانية بمهمته هو ، ليكون تأثيره قد تمكن منهم ، إلى درجة أن يسيروا على الدرب دون تدخل منه . ولو قال يريد أن يضلهم إضلالاً ، لأصبح المعنى أن الشيطان يريد أن يضلهم ، ولا ينتظر منهم أن يتابعوا الضلال بأنفسهم .

وقد وصف المصدر بكلمة (بَعِيدًا) ، ليعبر عن أمنيته في أن يوغلوا في إكمال الطريق الذي بدأه ، وأن يمعنوا في الضلال الذي ابتدعه بداية ، وتركهم على صراطه ، كأنهم هو ، يواصلون الضلال ، ويبتدون اتجاهات جديدة في الضلال ، فكأن الشيطان يريد أن يرسخ انقيادهم له في الإضلال ، بأنهم أصبحوا مخلصين له ، فلو توقف تدخله ، ما توقفوا عن المسير في الطريق .

وبعد أن بدأ القرآن بهذا التوضيح ، الذي يعلن نية الشيطان ، وهي استدراج الإنسان إلى الضلال استدراجاً ، ثم بعد ذلك يتركه يواصل

هذا الضلال بذاته ، ليصبح الضلال تصرفاً إرادياً للإنسان . بعد ذلك يقتصر على استعمال الفعل الثلاثي (ضل) وكأنه يقرر أن الشيطان قد وصل إلى هدفه ، شد الإنسان ثم تركه يكمل الطريق ، ولهذا لا يجعلها مبنية للمجهول ، بل يقول بعد ذلك في السورة نفسها : سورة النساء :

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء) .

﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء) .

(النساء) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء) .

(.

هذه الآيات تبرز أن الإنسان بكفره (الذي بدأ تحت تأثير الشيطان) قد ضل ضلالاً بعيداً . وكان القرآن يقرر أن خطة الشيطان تحققت ، وأنه شد الإنسان ليكفر ، وبذلك أضله ، ثم تركه يواصل طريق الضلال بذاته ، بل ويوغل فيه . مما يعني أن الإنسان قد انقاد ونفذ خطة الشيطان بحذافيرها ، إذ ظل يواصل طريق الضلال بنفسه ، ويوغل في هذا الطريق بنفسه تماماً كما أراد له الشيطان .

واستخدم القرآن الكريم في سورة النساء في وصف هذا الضلال كلمة (بعيداً) . وجاء الوصف مناسباً للمرحلتين :

الأولى : المعبرة عن خطة الشيطان في إضلال الإنسان ، البدء ثم ترك الإنسان يكمل حتى مسافة بعيدة . (النية الشيطانية)

والثانية : إكمال الإنسان للطريق ، فيصف الله هذا التلميذ لإبليس الذي استجاب لهدف أستاذه قد ضلَّ ضلالاً بعيداً . (الواقع الإنساني)

فهي ترجمة من الإنسان لهدف الشيطان ، أراد أن يوغله بذاته في

الضلال، فحقق التلميذ له ما يريد ، وضل ضلالاً بعيداً .

وفي سورة الأحزاب يعدل القرآن عن وصف الضلال (بعيداً) التي صلت للتعبير عن مرحلتي الضلال ، الرغبة الإبلسية ، والواقع الإنساني الذي لم يخيب رغبة إبليس . لكنها لا تصلح أن تكون حكماً من الله على هذا الموقف الإنساني الذي انقاد بسذاجة إلى الشيطان وحقق خطته . لهذا يعدل الله لا عن كلمة (بعيداً) إلى كلمة (مبيناً) التي تصلح للحكم على موقف الإنسان المدعن لإبليس . فهذا الضلال :
ظاهر واضح .

جدول ﴿ ١٢/١ ﴾ تطور صيغة ضل إضلالاً إلى ضل ضلالاً

المرحلة الأولى :	المرحلة الثانية :	المرحلة الثالثة :
نية الشيطان (في شد الإنسان إلى الضلال ثم يتركه يكمل الطريق بنفسه لأقصى درجة)	الإنسان منفذاً (الإنسان يكمل بنفسه طريق الضلال لأقصى درجة)	حكم الله على موقف الإنسان (ما فعله الإنسان تصرف إرادي) (مبين)
يضل + ضلال = الفعل يعني تدخل الشيطان ، والمصدر يعني تلقائية الإنسان في إكمال الطريق بنفسه	ضل ضلال = الفعل والمصدر يعنيان تلقائية الإنسان في إكمال الطريق بنفسه	ضل ضلال = الفعل والمصدر يعنيان تلقائية الإنسان في إكمال الطريق بنفسه
بعيداً : صفة توضح مدى رغبة إبليس في توغل الإنسان في الضلال .	بعيداً : صفة تقرر أن الإنسان حقق الرغبة بحذافيرها .	مبيناً : صفة توضح حكم الله على هذا البعد في الضلال من جانب الإنسان

ولذلك نجد أن الشيطان في سعيه الدءوب لإضلال الإنسان ، يقعد للإنسان على طريق المسجد ، يقول إبليس لرب العزة في سورة الأعراف :

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١١) ﴿ (الأعراف) .

ذلك لأنه يريد من هذا المستقيم أن ينحرف ، فلا بد أن يشده ، فهو في قعوده هذا ينفذ الجزء الأول من الخطة وهي الإضلال . فإذا حقق ذلك ، وانحرف هذا الرجل وشده الشيطان لا يتابعه ، فهو لا يقعد كما يقول إمامنا الشعراوي في طريق الذهاب إلى الخمارة لأنه قد انتهى منه ، فهذا الشخص في تلك اللحظة ينفذ الجزء الثاني من الخطة ، يتابع ما بدأه إبليس ، فيواصل طريق الضلال بنفسه . أضله إبليس وتركه يكمل بنفسه ، ولا حاجة لإبليس لأن يقعد له . لأنه أصبح قيصرياً أكثر من القيصر . لقد توحد بالإضلال حتى أصبح الإضلال ضلالاً ، أي أصبح الإضلال الخارجي داخلياً ذاتياً .

كذلك لا نجد إبليس يجهد نفسه مع من لا يؤدي عبادات أو يأكل حراماً ، لأن أكل الحرام يعني أن إبليس قد نجح في تحقيق الجزء الأول ، وأن هذا الذي يأكل حراماً أصبح داخل الطريق ، فلم يعد بحاجة إلى إضلال ، فهو ضال مهما يفعل . لهذا يركّز في ضرباته على من يأكل حلالاً ، لأن أكل الحلال يعني أن إبليس لم يشده ، ومن ثم فهو خارج الطريق .

والعجيب أن ثمة تلاميذ لا يكتفون بالمرحلة الثانية وهي أن يضلوا أنفسهم إلى مدى بعيد ، بل يقومون بإضلال غيرهم ، أي يقومون بمهمة إبليس الأولى:

﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ (٢٤) ﴿ (نوح) .

ونجد أنه استعمل الفعل الرباعي (أضلوا) الذي يعني أن الضلال خارجي ، وهذا الإضلال الخارجي إذا كان مع الظالمين أصبح ذاتياً ، فأصبح (ضلالاً) .

نخلص مما سبق : أن الأصل هو الإضلال (رباعياً) ، لأن الشيطان هو محدث الإضلال ، والإنسان هو متلقيه . فإذا استجاب الإنسان تركه الشيطان يواصل الطريق بذاته ، فيتحول الإضلال إلى الضلال . وقد وصل الإنسان في ضلاله إلى مدى بعيد كما أراد له الشيطان ، لهذا لازمت الصفة (بعيدا) كلمة الضلال ، ثم عدل الله عند حكمه على هذا الضلال الإنساني البعيد إلى كلمة المبين ليبرز بعد هذا الضلال . فالضلال يبدأ خارجياً (الشيطان مع الإنسان) ، وينتهي داخلياً (الإنسان مع نفسه) وقد يصبح خارجياً مرة أخرى (الإنسان مع إنسان غيره) .

لقد بدأ الشيطان بشد الإنسان ، فلما توحد به تركه يكمل الطريق وحده .

الخطوة الأولى : إبليس يضل الإنسان إضلالاً .

الخطوة الثانية : الإنسان يضل بذاته (ضلالاً) .

(ضلالاً)	(يضل)	هـ
تشير إلى توحد الإنسان بالشيطان	تشير إلى الخطوة الإبلسية	و

والأمر نفسه تكرر في التعبير :

{ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا } ^(١) . فالله عزَّ وجلَّ ينبت النبات ، وتلك خطوة غيرية ، فيأتي الفعل رباعياً ، ثم يقوم النبات بالنمو بذاته فيأتي المصدر ثلاثياً .

● يقصد المرحلة الأولى من خلق الإنسان وهي آدم ، فقد أنبته الله من الأرض .

مِنَ الْأَرْضِ نباتًا

- ذكرها لأنهم متكبرون ، فذكرهم أنهم خلقوا من الأرض .
- لم يقل نباتًا ليعبر عن النمو الذاتي بعد الإخراج ، فالله يخلقهم من التراب (آدم) ثم بعد ذلك يتناسلون فيكون الإنبات ليس من خارجهم كما حدث لآدم ، بل هو يتم منهم ، فذلك عدل الله عن المصدر الرباعي إلى الثلاثي للتعبير عن المرحلتين في نشأة الإنسان ، الخارجية (من تراب) والداخلية (من توالد) وهي تذكرنا بقوله (أضلهم ضلالا) فإبليس يضلهم (إضلال خارجي) ثم بعد ذلك هم يكملون دورة الضلال لذلك لم يقل (إضلالا) بل قال ضلالاً تعبيراً عن الخطوة الثانية التي يفعلها الإنسان (ضلال داخلي) ، وعندما يقول (أضلهم ضلالا) يعنى أنه مر بمرحلتين : الولي بدأها إبليس (إضلال خارجي) والثانية أكملها الإنسان (ضلال داخلي).

والأمر نفسه في الحديث عن مريم : { وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا }^(١) . فالله هو أنبتها ، فالإنبات غيري ، لذلك جاء بالفعل رباعياً ، ثم تكمل هي طريقها ، فهنا يأتي بالمصدر ثلاثياً ليقرر ذاتية الحدث .



(١٣)

لم تك . تكون

قال صديقي المعارض ، ما علامة جزم الفعل (لم يكن) ؟

قلت : علامة الجزم هنا السكون ، لأن نهايته صحيحة وهي النون ، وهنا التقى ساكنان ، واو يكون الساكنة ، والنون التي سكنت بسبب الجزم ، وترتب على التقاء الساكنين حذف الساكن الأول ، الواو ..

قال : رائع .. فهل النون حرف معتل ؟؟

هل النون حرف معتل ؟

قلت : لا طبعاً ..

. فلماذا يحذف ريك إذن نون يكون في حالة الجزم بعد حذف واوها للسبب

الذي قلت ، يقول ريك : { وَلَمْ تَكُ شَيْئًا } (١) ؟

قلت : الفعل هنا مجزوم بالسكون ، لأن نهايته صحيحة وهي النون ، والواو المحذوفة سبب حذفها التقاء الساكنين : واو يكون ، وسكون النون بسبب

١ سورة مريم ، الآية (٩) . ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (٩) (مريم) .

الجزم فالتقى ساكنان فحذفت الواو .. لم تحذف النون من الفعل (كان)
في الموضع السابق فحسب ، بل حُذفت في مواضع أخرى منها :

● ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٣٠) (النحل).

□ وَلَمْ يَكُ : حذف النون لينفي الكون تماماً ، وهي تشبه العدم ، فكونه من
المشركين لم يكن له أي نسبة من الوجود ، فكونه من المشركين ،
والعدم سواء .

□ مِنْ الْمُشْرِكِينَ : لم يقل من (الَّذِينَ أَشْرَكُوا) ، لأن لفظه (الَّذِينَ) تعني وجوداً
محدداً ، وأشخاصاً بعينهم ، أما كلمة (الْمُشْرِكِينَ) فهي لفظة افتراضية
تحتل الذين قاموا بالفعل ، أو من سيقومون به مستقبلاً ، فلو قال من
(الَّذِينَ أَشْرَكُوا) ، لكان الحديث يحتمل أن يكون من مشركين آخرين ، أو
في وقت آخر ، لكن (مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فهي تنفي انتماءه لجنس المشركين في
كل الأوقات .

وهناك ثلاثة نصوص أخرى غير النص السابق يربطها جميعاً نسق
واحد ، هو أن خبر كان جاء لفظة (شَيْئًا) :

- ① ﴿ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (٩) (مريم).
- ② ﴿ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ (٦٧) (مريم).
- ③ ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (١) (مريم).

□ تختلف النصوص السابقة في :

- | | | | |
|---|----------------|--------|---|
| ① | حذف نون يكون | تَكُ | (شَيْئًا) بدون وصف |
| ② | حذف نون يكون | يَكُ | (شَيْئًا) بدون وصف |
| ③ | إثبات نون يكون | يَكُنُ | (شَيْئًا مَّذْكُورًا) بوصف (مذكورا) |

أولاً : حذف يكون : الفعل يكون هو فعل الوجود ، وقد استخدمه الله ﷻ نتيجة للأمر الإلهي (كن) :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) (يس).

وقد جاء الفعل (يكون) منفياً في النصوص الثلاثة بالأداة (لَمْ) التي تفيد قلب المضارع إلى الماضي ، وقد حذفت النون في النص الأول والثاني ولم تحذف من الثالث ، ويرجع سر المغايرة إلى اختلاف الموضعين :

□ في (١) ، (٢) يتحدث عن الإنسان قبل خلقه أي في مرحلة العدم . فجاء الفعل خالياً من النون ليؤكد هذا العدم وذلك التلاشي .

□ في (٣) يتحدث عن الإنسان في بدايات خلقه وهو ما زال في طور النطفة . ولذلك ثبتت النون لأن الإنسان قد ثبت في شيء مادي ولو صغيراً .

ثانياً : زيادة لفظة (مَذْكُورًا) في النص (٣) :

عند الحديث عن مرحلة العدم لم يذكر صفة لكلمة شيء ، وعند الحديث عن مرحلة النطفة ذكر كلمة (مَذْكُورًا) .

إن القاعدة اللغوية : بوجود الصفة يتجه النفي إلى نفي الصفة دون الموصوف ، وخلو الجملة من الصفة ينصب النفي على الموصوف ذاته .

فقوله : (وَلَوْ تَكُّ) هو نفي الشيء ذاته أي العدم ، فهو يخاطب زكريا بأنه يجب ألا يتعجب من أن يُرزق بآب من ضعفين (امرأة عاقر وشيخ كبير) فقد كان هو نفسه لا شيء ثم أصبح رجلاً . والأمر نفسه في النص الثاني

② :

﴿ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ (٦٧) ﴿ (مريم) .

فالعبارة ترتبها الزمني : لَمْ يَكُ شَيْئًا / ثم خلقناه . أي أن نفي الشئبية هو مرحلة ما قبل الخلق . ونفي الشئبية أي قبل خلقه هي مرحلة العدم ، ولهذا خلت اللفظة من نون يكون لتؤكد هذا الانعدام ، وكأن وجود الفعل يكون (فعل الوجود) حتى لو نفي يوحى بالوجود ، لذلك حذفت النون لاستبعاد كل شبهة للوجود .

كذلك لم يحدث وصف لكلمة (شَيْئًا) حتى لا يذهب النفي للصفة دون الشيء ، وبخلو العبارة من الصفة انصب النفي على الوجود ذاته .

العبارة الثالثة : يتحدث عن الإنسان في دور النطفة ، فهو موجود ولهذا عند النفي لشيء في الإنسان بعد مرحلة الخلق لا يحذف النون . ولأنه موجود (نطفة) لم ينصب النفي على الشئبية ذاتها ، ولهذا أتى بالصفة لتسحب النفي ناحيتها ، فهو ينفي كونه مذكوراً أي هو شيء ضئيل (لكنه موجود) ، وهو وجود لا يكاد يذكر .

عند مرحلة العدم : لم يذكر الصفة ليكون النفي للوجود ذاته (للشيء) ، وحذفت النون .

لَمْ يَكُ (بدون نون) خاص للنفي في مرحلة العدم ،

لَمْ يَكُنْ (بالنون) خاص بالنفي في مرحلة ما بعد الخلق .

وعند مرحلة ما بعد الخلق : يذكر الصفة ليكون النفي للصفة ذاتها وليس للشيء ، فهو موجود والصفة هي المنفية . ويذكر النون في الفعل يكون لأن وجوده يوحى بالوجود والشيء موجود .

عند وجود النعت : يكون النفي للعوارض ، وعند خلو النعت يكون النفي للذات . ولهذا نرى أن النون قد حُذفت من الفعل في القرآن في عدة مواضع هي:

جدول ﴿١٣/١﴾ أمثلة على حذف نون (يكن)

ما زال في مرحلة العدم ، فهو نطفة من مني يمني أي أنه نطفة في مني أبيه ، ولم يصبح بعد في رحم أمه . فهي قبل الخلق .

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ امْرِئٍ﴾ (٣٧) (القيامة) .

حذف النون ليؤكد انعدام النفع بالإيمان ، وكأن الإيمان الذي فعلوه عندما رأوا العذاب لم يحدث . فهو والعدم سواء .

﴿فَلَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (٨٥) (غافر) .

لنفي التغيير من الجذر ، فسحب الله لنعمة أنعمها على قوم أمر غير وارد ، بل غير كائن . حتى إذا انقلبوا على ربهم وغيروا ما بأنفسهم يبدأ التغيير ، وكأن الله لا يغير النعمة ، بل الناس هم الذين يغيرون النعم ، فأراد أن يبعد التغيير عنه ، فقد أعطى النعمة ولن يسحبها ، فإذا سُحبت فهم المسئولون .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٥٢) (الأنفال) .

تريد أن تنفي وجودها حتى لا تقربها صفة البغاء ، فالصفة لن تأتي إلا الموصوف ، فهي تنفي الموصوف حتى لا يكون ثمة فرصة لحدوث الاتصاف .

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ (٢٠) (القيامة) .

قولة مؤمن آل فرعون : فهو يتحدث عن موسى : وإن يك كاذباً : فإن كان كاذباً فوجوده وعدمه سواء . وجاءت الثانية وإن يك صادقاً : لأنه يكتفئ إيمانه فأراد ألا يفهم من قوله ميله لموسى ، فهو لا يتمنى عدم وجوده إلا في حالة الكذب . وقد استخدم الحالتين بصيغة واحدة حتى لا يفتضح إيمانه به .

﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ (٢٨) (غافر) .



(١٤)

الطفل . الأطفال

قال تعالى : { أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا } ^(١) . فجاء بالطفل مفرداً ووصفه بالاسم الموصول الجمع (الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا) وذلك من عبقرية اللغة العربية التي كشف عنها القرآن التي تفرق بين أكثر العدد وبين جميعه .. فهناك فرق بين الجمع لتعبر عن أكثر أفراد الجنس ، وبين التعبير عن الجنس كله .. ولأفصل الأمر ..

يذكر الله عزَّ وجلَّ في السورة نفسها ، سورة النور : الأطفال جمعاً ، فيقول : { وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ } ^(٢) ، فالأطفال متفاوتون ، منهم الرضيع الذي تحمله أمه ، فلا يدخل ولا يخرج ، ومنهم من لا يفهم بعد أن نقول له : استأذن ، ومنهم من يقبل تعلم مبدأ الاستئذان قبل الدخول على أبويه ، فالحديث هنا

١ سورة النور ، الآية (٣١) . ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيكَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَابِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ ^(٣١)

٢ سورة النور ، الآية (٥٩) .

أحدهم عن الآخر كأنهم واحد .

الأطفال : يعبر به عن الجمع إذا كان أفراد الجمع يتفاوتون في الصفة

وهكذا نقف على سر من أسرار عبقرية اللغة العربية التي تفرق بين تساوي أفراد الجمع بشكل شامل ، وبين تفاوتهم . والأمر لا يقف عند استعمال لفظة الطفل ، والأطفال : الطفل لشمول الجنس ، والأطفال لتفاوت الجمع ،

مثال آخر :

وردت كلمة الضيف في القرآن الكريم لتتحدث عن رسل الله (الملائكة) الذين زاروا النبيين (إبراهيم ، لوط) عليهما السلام ، فعبر القرآن عن مجموعهم بكلمة ضيف ، وذلك لأنه لا يختلف أحدهم عن الآخر ، فهم جمع بدليل التعبير عنهم بالجمع : { الْمُكْرِمِينَ } ، { دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا } ، { قَوْمٌ مُنْكَرُونَ } ، { هَؤُلَاءِ }^(١) ، وهم متحدون ولذلك عبر عنهم بالمفرد .

● ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿ (الذاريات) .

وكذلك يخبر عن ضيف لوط بقوله في الآية الأولى :

● ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (٦٨) (الحجر) .

فقطعاً كان الضيوف في الحالتين جمعاً ، لكن القرآن يستعمل للتعبير عن الجمع بالمفرد عند التوحد ، فإذا كان كل الضيوف سواء

١ انظر قوله تعالى في سورة الذاريات والحجر ﴿ هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرِمِينَ ﴾ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿ (الذاريات) .

● ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ (٦٨) (الحجر) .

في كون كل منهم أضيف على البيت واستحق التزامات على المضيف أن يقدمها ، وكل الضيوف لهم هذا الحق ، وعلى المضيف أن يحرص على أداء هذه الحقوق لكل الضيوف دون النظر في درجات الضيوف ، فهذا التساوي إلى درجة التوحد جعل التعبير عنهم بالمفرد ليثبت أنهم جميعاً بمثابة الواحد .

فإذا كان كل الضيوف سواء في كون كل منهم أضيف على البيت واستحق التزامات على المضيف أن يقدمها ، وكل الضيوف لهم هذا الحق ، وعلى المضيف أن يحرص على أداء هذه الحقوق لكل الضيوف دون النظر في درجات الضيوف ، فهذا التساوي إلى درجة التوحد جعل التعبير عنهم بالمفرد ليثبت أنهم جميعاً بمثابة الواحد .

وحتى أستوفي الحديث حقه أعرج على كلمة ثالثة (عدو) عبر فيها القرآن عن الشمول ، وعن الكثرة بالأسلوب نفسه كما سنرى :

* جاءت كلمة عدو مفردة لتعبّر عن الجمع ، لأن الكافرين في عداوتهم للمسلمين متحدون ، وقد تساوا جميعاً في تلك العداوة إلى حد أن أصبح المجموع في حكم الفرد . فكل فرد من ذرية إبليس يأخذ الموقف نفسه من بني آدم .

إذا راعي وحدة كل أفراد الفاعل : الذي يقوم بالعداء : استخدم الوحدة .
إذا لم تكن ثمة وحدة في كل أفراد الفاعل : الذي يقوم بالعداء ، استخدم الجمع .

* عبر عن الأخلاء وهم جمع بالمفرد ، مما يعني أن كلمة عدو هنا وصف للجمع ، والقرآن جمع العدو بكلمتين : الأعداء ، والعدو ، فإذا أراد تفاوت الأعداء فيما بينهم استعمل الأعداء ، وإذا أراد وحدة الأفراد في العدو استخدم العدو . كما سنرى :

فعند التعبير عن الجمع عند تفاوتات أفراده استعمل كلمة أعداء كما نرى على النحو الآتي :

{ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً } ^(١) لم يكن كل الجاهليين يكن كل طرف منهم
عداوة للآخر .

{ فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ } ^(٢) هارون يتحدث عن أعداء من القوم وليس كل القوم .

{ وَإِذَا حِشَرَ النَّاسُ كَانُوا هُمْ أَعْدَاءً } ^(٣) لن يكونوا أعداء لكل الناس ، بل لعدد منهم

{ إِنْ يَتَفَقَّهُوا لَكُمُ أَعْدَاءً } ^(٤) لن يكونوا جميعاً متحدي العداوة ، ويشهد ذلك كفار مكة عندما كانوا متمكنين من المسلمين في بداية الدعوة كان البعض عدواً أمثال أبي جهل وأمية ، لكن هناك رحماء لا يشتركون في العداوة المعلنة وإن كانوا كافرين .

{ أَعْدَاءُ اللَّهِ } ليس كل من يحشر إلى جهنم يتخذ الله عدواً .

فإذا كان الأعداء كلهم واحد ، لا يختلف أحدهم عن الآخر ، فيقول

- ١ سورة آل عمران : (وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) ^(١٣) .
- ٢ سورة الأعراف : (قَالَ ابْنَ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ) ^(١٥٠) .
- ٣ سورة فصلت : (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) ^(١٩) .
- ٤ سورة فصلت : (ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) ^(٢٨) .
- سورة الأحقاف : (وَإِذَا حِشَرَ النَّاسُ كَانُوا هُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ) ^(٦) .
- سورة الممتحنة : (إِنْ يَتَفَقَّهُوا لَكُمُ أَعْدَاءٌ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمُ بِالْسُوِّ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ) ^(٢) .

: { الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ }^(١) فلم يقل الأخلاء أعداء ، وعدل عن الجمع إلى المفرد ليحقق الشمول ؛ ذلك لأن الكافرين في عداوتهم للمسلمين متحدون ، وقد تساووا جميعاً في تلك العداوة إلى حد أن أصبح المجموع في حكم الفرد. إذا راعي وحدة كل أفراد الفاعل : الذي يقوم بالعداء : استخدم الوحدة . أما إذا لم تكن ثمة وحدة في كل أفراد الفاعل : الذي يقوم بالعداء ، استخدم الجمع .

{ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ }^(٢) لأن كل الآلهة هم برغم كثرتهم إلا أنهم بالنسبة للقائل إبراهيم عليه السلام كلهم متحدون . قد اتخذهم عدواً بنفس الدرجة .

{ الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ }^(٣) كل منهم يوم القيامة يتخذ كل أخلائه عدواً . فثمة وحدة في كل أفراد الفاعل من الجهتين .

{ إِنَّ الْكٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا }^(٤) كل كافر يتحد في عداوته مع الآخر نحو المسلمين .

{ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ }^(٥) فكل فرد من ذرية إبليس يأخذ الموقف نفسه من بني آدم .

{ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ }^(٦) جعل كل واحد من المنافقين مثل الآخر .

- ١ سورة الزخرف ، الآية (٦٧) .
- ٢ سورة الشعراء ، الآية (٧٧) .
- ٣ سورة الزخرف ، الآية (٦٧) .
- ٤ سورة النساء ، الآية (١٠١) .
- ٥ سورة الكهف ، الآية (٥٠) .
- ٦ سورة المنافقون ، الآية (٤) .

{ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ }^(١) كل عدو لرب العالمين لا يختلف عن غيره . فهو يريد أن يطفئ نور الله مهما اختلفت مذاهبهم . ولذلك حذر من اتخاذهم أولياء { لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ }^(٢)

أي أن كلمة عدو لما عبرت عن الجمع كانت تهدف إلى الشمول ، والتعبير عن اتحاد الفواعل جميعهم في العداوة ، وكأنهم جميعاً فرد واحد .

مما سبق نرى أن القرآن الكريم يضع قانونه الخاص : إذا كان الجميع على نفس القدر ، وكل منهم يملك العداوة فهو يوحد الكلمة لاشتراك الجميع فيها .

فإن كان الجميع غير مشترك ، جعل الكلمة جمعاً ، ليبين عدم اتفاقهم جميعاً في العداوة . وأن الدرجة متفاوتة في الحدث .

جاءت كلمة عدو مفردة لتعبر عن الجمع ، لأن الكافرين في عداوتهم للمسلمين متحدون ، وقد تساوا جميعاً في تلك العداوة إلى حد أن أصبح المجموع في حكم الفرد .

• ﴿ الْأَخْلَاءُ يُؤْمِنُ بِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾^(١٧) (الزخرف).

• ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١٧) (الشعراء).

إذا راعي وحدة كل أفراد الفاعل : الذي يقوم بالعداء : استخدم الوحدة .

إذا لم تكن ثمة وحدة في كل أفراد الفاعل : الذي يقوم بالعداء ، استخدم الجمع .

وفي قوله : (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) نجد أن الأعداء جمعاً ، لكنهم بالنسبة لإبراهيم

١ سورة الأنفال ، الآية (٦٠) .

٢ سورة الممتحنة ، الآية (١) .

متحدون . وكذلك (الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) كل منهم قد قرر أن يكون كل إخلائه عدواً ..
 فالأمر ينظر إليه من منظور الفاعل ، مقرر العداوة . ومثلها قوله (إِنَّ الْكٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا) ، فالفاعل هنا هم الكافرون ، وكل منهم لا يختلف عن الآخر في تقديم العداوة للمسلمين ،
 والأمر نفسه في قوله (وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) فكل فرد من ذرية إبليس يأخذ الموقف نفسه من بني آدم .

مما سبق نرى أن الجمع لم يأت في سورة المفرد (عدو) إلا تعبيراً عن اتحاد الفواعل
 جميعهم في العداوة .



(١٥)

المفرد المثني

قاعدة (كلا ، وكلتا) ، فكلا لا تعني اثنين ، بل تعني اثنين كل واحد منهما على حده . فعندما تقول : كلا الولدين مهذب : معنى ذلك : كل واحد من الاثنين مهذب ، وهكذا ترى قد عبر عن المبتدأ بالمفرد ، لأنه لوقال : كلا الولدين مهذبان ، لكان معنى ذلك أن كل واحد منهما مهذبان . وكذلك قوله تعالى :

● ﴿ كَلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكُلْهُمَا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ (٣٣) ﴿ الكهف ﴾ .

عبر عن المبتدأ (كَلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ) بالمفرد (ءَأَنْتَ) .

كلتا الصورتين جميلة : أي كل واحدة منهما جميلة

كلتا الصورتين جميلتان : الصورة الواحدة جميلتان .

كَلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ

مثني يعبر عن اثنين كل منهما على حده ، فعندما تقول : جاء اثنان فالكلام عن الاثنين معاً ، لكن عندما تقول جاء كلا الولدين ، فأنت تعبر عن استقلالية كل واحد من الاثنين على حده . ولا يجوز التعبير عنها

بالمثنى ، فلا يجوز أن تقول كلا الولدين مجتهدان ، لأن هذا معناه أن كل واحد منهما مجتهدان ، بل تقول : كلا الولدين مجتهد أي الاجتهاد من نصيب كل واحد منهما بشكل مستقل لا تعاون بين الاثنين فيه . وانظر إلى قوله تعالى : { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ }^(١) استعمل كلاهما ، لاستقلالية كل منهما بهذا الحق ، فكل منهما جدير بالأى يقال لهما إف ، ولا يستوجب اجتماعهما .

* واستعمل (كِلْتَا) هنا لبيان استقلالية كل منهما عن الأخرى ، فلو تعطلت واحدة فالثانية لن تتعطل بتعطلها .

وانظر إلى خبر (كِلْتَا الْجَنَيْنَيْنِ) ستجده قوله : (ءَأَنْتَ أَكْلَهُمَا) وسترى أن الفعل الذي جاء معبراً عن المثنى لم يأت إلا مفرداً ، لأن كلتا كما قلنا تجعل الحديث عن كل واحدة منهما على حده .

والأمر نفسه في قوله تعالى : { إِذْ نَبَلَّغَى السَّمْعَيْنِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ }^(٢) فجاء بكلمة (قَعِيد) مفردة ، بينما هو يتحدث عن متلقيين ، فلم يقل : قَعِيدَان ليعود الحديث عن مثنى مثنى مثله ، والحقيقة أن لا صواب إلا ذلك ، ذلك لأن هناك جهتين يميناً وشمالاً ، إذن عندما يكون في كل منهما قعيد ، فمن المنتظر أن تستعمل صيغة المثنى لوجود اثنين ، بينما ما ذكره القرآن هو الأفراد (قَعِيدٌ) ، وقد قيل في تعليل ذلك رأيان .. لا نوافق عليهما :

١. الأول : ما قاله الفراء نقلاً عن ابن عباس : أنه يقصد بقعيد القعود (المصدر) يريد قعوداً عن اليمين وعن الشمال^(٣) .

٢. الثاني : ما قاله ابن قتيبة : أن يكون المعنى عن اليمين قعيد ، وعن

١ سورة الإسراء ، الآية (٢٢) .

٢ سورة ق ، الآية (١٧) .

٣ الفراء ، معاني القرآن ، (٧٧ / ٣) .

الشمال قعيد ، ثم حذف اكتفاء بأحد الاسمين عن الثاني لأن المعنى مفهوم
(١) ، قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

قال المجاشعي : والمعنى : نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عندك راض
، فحذف

الرأي عندنا :

لو قال : قعيدان ، لكان معنى ذلك أن في كل ناحية اثنين يقعدان له ، لأنه
حدد جهتين ، فلو قلت قعيدان : لأصبح في كل جهة قعيدان ، ويكون المجموع
أربعة ، والنص حدد المجموع باثنين (الْمُتَلَقَّيَانِ) .

لهذا فمن الخطأ أن ننثي ، لأن القرآن ذكر المثني ، ثم وزعهما على
الجهتين فأصبح في كل جهة قعيد واحد .

لذلك فلا يصح سوى أن يقول (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ) لأن المفرد في
الجهتين يساوي اثنين هما (الْمُتَلَقَّيَانِ) . ولوثنى لكان عندنا أربعة .. فلا يصح
إلا المفرد .. الذي بتواجده مفرداً في جهتين يحقق التنثية .



(١٦)

كن فيكون

المضارع بعد جواب الطلب : إذا كان مرتباً فهو مجزوم ، غير مرتب فهو مرفوع .. تقول : تعلم السباحة تغرق (لا تستقيم) ولا يمكن أن تتحول إلى شرط ، فلا تنضبط بقولك : إن تتعلم السباحة تغرق ، فالفعل هنا مرفوع . لأنه غير مرتب .. أما لو قلت : تعلم السباحة تتج فعند تحولها إلى شرط (إن تتعلم السباحة تتج) ستجدها مرتبة سليمة ، فهي إذن مجزومة .

تقول : أهمل السباحة تغرق .. هنا الجملة مرتبة إذن مجزوم ، لكن لو قلت : أهمل السباحة تنجو .. فالفعل مرفوع لانعدام الترتيب .. فإن دخل الفاء على جواب الطلب فهي تنصب الفعل بفاء السببية .

قال : هذا ما كنت أريده .. فما رأيك في قول ربك في أمره الكوني كن :
{ كُنْ فَيَكُونُ } (١) . الفعل جاء مرفوعاً برغم وجود الفاء ..

قلت : قبل أن نتعرض للرد على الشبهة النحوية سنرد على شبهة أخرى في الآية نفسها ، وهي قولهم كيف يكون الشيء شيئاً قبل وجوده ، حتى يسميه الله شيئاً :

إن قوله (قَوْلُنَا لَشَيْءٍ) يعني أن المعدوم شيء ، والحقيقة أن المعدوم ليس

شيئاً ، لكنه شيء في علم الله ، فهو ليس معدوماً ، لكنه موجود في علم الله ، معدوم بالنسبة لنا ، فإذا أراد الله أن يظهر شيئاً موجوداً في علمه ، لكنه غير موجود في واقعنا قال له كن . فهو عندما يقول له (كُن) يقول لشيء . وما الكينونة إلا ليخرج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .

فكل شيء موجود قبل وجوده ، لأنه موجود في عالم الغيب قبل وجوده في عالم الشهادة ، وكل الأشياء تكون عدماً للإنسان موجودة عند الله ، فإذا أراد الله عزَّ وجلَّ إيجادها للإنسان جاءها الأمر الكوني الذي ينقلها من عالم الغيب إلى عالم الشهادة . فهي من البداية شيء بالنسبة لله ، لكنها لا تكون شيء بالنسبة للإنسان إلا بوجودها في عالم الشهادة .

إن لله عالمان : عالم الغيب ، وعالم الشهادة ، والبشر لم يحيطوا علماً بعالم الشهادة الذي يعيشون فيه ، أما عالم الغيب فهو مجهول تماماً للبشر ، إذن لا شيء عدم في هذا الكون بالنسبة لله ، فما هو عدم بالنسبة لنا فهو يعيش في العالم الثاني (الغيب) . وقد جاء القرآن الكريم صريحاً في التعبير عن أن الله عالم لهذين العالمين ، فقد جاءت عبارة عالم الغيب والشهادة عشر مرات :

● ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (٧٣) (الأنعام) .

● ﴿ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴾ (٩٤) (التوبة) .

● ﴿ وَسَأُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠٥) (التوبة) .

(التوبة) .

● ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ (٩) (الرعد) .

● ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٩٢) (المؤمنون)

- ﴿ ذَلِكْ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦) (السجدة) .
- ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ (٤٦) ﴿
- الزمر) .
- ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢٢) (الحشر) .
- ﴿ ثُمَّ تَرْدُونَ إِلَىٰ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) ﴿
- الجمعة) .
- ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨) (التغابن) .

وقد سبق بكلمة الغيب لأنه الأقوى في الدلالة على علم الله ، فهو يعلم عالماً كاملاً لا يعرف عنه البشر شيئاً .

وقد يقول قائل مادام قال عالم الغيب ، وهو الأقوى في الدلالة على العلم فلم يكن بحاجة للقول (والشهادة) لأن ما يعلم الكثير يعلم القليل ، والحقيقة أنه ذكرها احترازاً : فقد يقول قائل إن الله غيب لذلك لا يعلم إلا الغيب ، فجاء كلمة (والشهادة) لتثبت له العلم المطلق بما يجهولونه وبما يعرفونه .

- ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤٠) (النحل) .

إِذَا : : لليقين ، وإرادته متحققة .

أَرَدْنَاهُ : : شرط التحقق : إرادة الله التحقق .

فَيَكُونُ : : الفاء ليست سببية برغم أنها مسبوقه بالطلب ، وذلك لأن المضارع ينصب بفاء السببية إذا ترتب على الطلب الذي يسبقه .

لكن الكينونة لن تحدث مترتبة على الفعل (كُنْ) ، فهي ستحدث متواكبة معه ، فلا زمن ألبته بين فعل الأمر والمضارع ، فهو يحدث معاصراً لفعل

الأمر وليس مترتباً عليه ، فلا تنتهي نون (كُن) حتى يتجسد الشيء ،
 فلماذا لم ينصب الفعل ، لأن النصب يعني حدوثه بعده ، وهنا لا يحدث
 الفعل بعده ، بل معه ، ومن هنا رفع للدلالة على أنه لم يتخر عن الأمر .
 (عند التزامن يجب الرفع) .

□ **فَيَكُونُ** : وقد جاء الفعل (كُن فَيَكُونُ) في القرآن ثماني مرات ، كلها جاء الفعل
فَيَكُونُ بالرفع ، للدلالة على التزامن بينه وبين الأمر قبله ، وليس
 التعاقب .

{ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } ^(١) ، { قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا
 قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } ^(٢) ، { إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ
 مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } ^(٣) ، { وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ } ^(٤)
 ، { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } ^(٥) ، { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ
 وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } ^(٦) ، { إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
 يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } ^(٧) ، { هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن
 فَيَكُونُ } ^(٨) .

وهكذا نرى التقنين الذي يقدمه القرآن لأبناء العربية ليعرفهم بأسرار
 لغتهم :

إن المضارع بعد الطلب عند سبقه بالفاء سيكون أحد أمرين :

الأول : تعاقب مثل قولنا : ذاكر فتنجح ، فالذاكرة مترتبة على النجاح ،

١ البقرة ، الآية (١١٧) .

٢ آل عمران ، الآية (٤٧) .

٣ آل عمران ، الآية (٥٩) .

٤ الأنعام ، الآية (٧٣) .

٥ النحل ، الآية (٤٠) .

٦ مريم ، الآية (٣٥) .

٧ يس ، الآية (٨٢) .

٨ غافر ، الآية (٦٨) .

وهنا تكون الفاء ناصبة . وجاء المضارع منصوباً بعد طلب وفاء في سورة الفرقان:

● ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا
أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ ﴾ (الفرقان)

وذلك لأن إنزال الملك سيحدث أولاً ، وبعد ذلك يكون هذا الملك معه نذيراً

الثاني: تزامن أي أن يحدث فعل الأمر والمضارع بعده معاً لا يتأخر أحدهما عن الآخر ، فقبل أن ينتهي نطق نون كن ، يتحقق وقوع يكون ، فالاستجابة متزامنة مع الطلب في الوقت نفسه ، فهنا تكون الفاء رافعة .



(١٧)

امراة

ما تعريف المرأة؟؟ ولماذا اتجه القرآن الكريم إلى استعمال كلمة المرأة وعدل عن الزوجة وهي على حالة الزوجية؟ وقد يجربنا هذا للتفريق بين المرأة والزوجة لنفهم لماذا استخدم هنا كلمة امرأة، ولم يستعمل كلمة الزوج؟ ثم أخيراً لماذا كتب تاء التانيث مفتوحة لا مربوطة؟؟

وأرى أن سبب تسمية المرأة بذلك وكذلك مقابلهما: أن كل منهما خُلق كاملاً، ولذلك قيل: المروءة كمال الرجولية، وهي أن لا تفعل في السر أمراً وأنت وأنت تستخبي أن تفعله جهراً، وأن يستطيب كل منهما الآخر، ولهذا يقال مَرُوءَ الطعمِ إذا لم يثقل على المعدة، فكان طيباً هنيئاً، وأرض مرئنة أي حسن هواءها، وسمي المرء بذلك لأنه به يكون استمراء الطعام. وقال يهودي لعلي بن أبي طالب: لقد تَزَوَّجَت امرأة، يُريد امرأةً كاملةً.

وقد تتعجب لإدخال همزة الوصل على امرأة، والميم في الأصل مفتوحة لا تحتاج همزة وصل، وأغلب ظني أنها أضيفت خشية ترك الهمزة، وهو كثير، إذ لو تركت الهمزة لأصبحت كلمة أخرى وحدث اللبس، فسكنوا

الميم، وتوصلوا بهمزة الوصل، والدليل على احتياط العرب من ترك الهمزة هو أن الكلمة تعرب من مكانين (١): الهمزة والراء التي قبلها تحرزاً من ترك الهمزة، ولذلك ستجد أن الكلمة في حالة الرفع: آخر حرفيها مرفوعان ، وفي حالة النصب مفتوحان ، وفي حالة الجر مكسوران .

المرأة هي المقابلة للزوج، فإن كان الزواج يدل على اثنين كل منهما زوج بينهما استواء. فالمرأة هي التي بلا زوج، أو بزواج كأنه لم يكن،

جاءت كل استعمالات المرأة في القرآن يربطها رابط واحد هو اللازوجية : فإذا كانت قبل الزواج أو بعده فهي امرأة ، وكذلك إذا كانت العلاقة بينها وبين زوجها غير سوية كأنها وهي زوجة ليست زوجة ، أيضاً تسمى امرأة في إشارة إلى انقائها لانسجام الزوجية . ولا يطلق عليها زوج إلا إذا كانت على انسجام تام لا تشوب الزوجية ما يعكرها، فتكون المرأة زوجاً، ورجلها أيضاً زوجاً.

فإن لم تكن العلاقة سوية فهي امرأة سواء كانت وحدها بدون زوج (قبل الزواج، وبعد انتهاء الزواج سواء بموت الزوج أو بالطلاق) وكذلك هي امرأة إن كانت متزوجة، لكنها كأنها مع زواجها غير متزوجة فهي امرأة، وإن كان زوجها قد طلقها، أو مات عنها فهي امرأة، وإن لم تكن بكرة لم تتزوج بعد فهي امرأة.

فهي امرأة إن كانت بدون زوج، أو بزواج يفنق أحد عناصره الأساسية، وهذه العناصر الأساسية هي: (وحدة العقيدة الإيمانية، العفة وعدم اتخاذ أخدان، عدم التشوز من أحد الزوجين، الخصوبة والقدرة على الإنبات لأن

١ انظر تهذيب اللغة، ج (١٥)، ص (٢٠٦) (ولسان العرب، ج (١)، ص (١٥٦) مادة (مرء) .

هذا أحد أهداف الزواج): فإن توافرت العناصر كلها فهو زوج، وهي زوج. وإن حدث لافتقاد عنصر من تلك العناصر فهي امرأة.

ولعلك تقف على الدقة القرآنية في شأن المحلل فلم يقل لاشتراط رجوع امرأته إليه: (تتكح رجلاً) بل قال (فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَتَّكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ) (١)، مشيراً باستعماله كلمة (زَوْجًا) إلى وجوب الدخول بها لأن لا زوجية إلا باحتمال الإنجاب، فلا بد أن يحدث جماع ليحدث احتمال الإنجاب.

فاختلاف الدين بين الزوجين يجعل الزوجة امرأة: وهذا رأينا في امرأة لوط، وامرأة نوح، فكلتاها كافرة، وقد فرق الله بينهما وبين بعليهما في الدنيا، فهلكت امرأة لوط مع قومها، وغرقت امرأة نوح مع قومها. وهما في الآخرة مفترقتان.

والأمر نفسه مع التعاكس مع امرأة فرعون: فهي مؤمنة بخلاف بعليها الذي كفر وانتحل الألوهية، وقد استشهدت، بينما كان هو من المغرقين في اليم، ومصيرهما في الآخرة هي في الجنة، وهو في جهنم. فلم يقل زوج في الأمثلة الثلاثة للتنافر الديني مما يعوق الزوجية.

كذلك لم تستحق امرأة العزيز لقب زوجة، لأنها عرضت نفسها على غير زوجها، فلذلك قيل عنها امرأة العزيز (٢)، بل هي كذلك حتى قبل أن يعيش يوسف في بيتها، بدليل قول القرآن: (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ) (٣) فثمة سبب يعوق الزوجية بينهما خلاف الخيانة، وربما كان

١ سورة البقرة. الآيتان (٢٣٠).

٢ سورة يوسف، الآيات (٢١)، (٣٠)، (٥١).

٣ سورة يوسف، الآية (٢١).

لأن أحدهما كان عقيماً.

وكذلك كانت سارة امرأة إبراهيم عليه السلام لأنها عقيم لا تتجب ليست مؤهلة لأن تحمل كلمة زوج، لافتقادها عنصراً من عناصر الزوجية وهي الإخصاب فقد ذكرت عن نفسها أنها عقيم ، لهذا لما جاءت الملائكة تبشرها بالولد وصفها بأنها امرأة . (فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ (١) ، (وَاِمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ) (٢)

وإذا كانت سارة لعقمها فقدت أحقية كلمة الزوج وأصبحت امرأة، فكذلك كانت امرأة زكريا فقد كانت عاقراً أي أشد من سارة في استجابتها للإنجاب، فجاء التعبير عنها بلفظ (وَكَاَنَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) (٣)، وانظر لما استجاب الله لدعاء زكريا عليه السلام فيها، وأصبحت قابلة لأن تحمل بابنها يحيى، عدل القرآن عن لفظ امرأة ، وقال (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ) (٤).

أما أم السيدة مريم العذراء، فقيل عنها امرأة عمران وذلك لأن زوجها مات عنها وهي حبلى بابنته ، والدليل استخدام كلمة امرأة، وقيامها بما يقوم به الرجل في شأن ابنه، فهي التي تنذر ما في بطنها محرراً لله، وهي التي تقوم بتسمية الوليد. وأطلق القرآن على امرأة أبي لهب، كلمة امرأته لافتقادها أحد عناصر انسجام الزوجية، ولما كانت غير عقيم ولا عاقر، وليست مخالفة له في الدين، ولم تكن وقتها أرملته، فلا بد أنها على تنافر نفسي معه.

١ سورة الذاريات، الآية (٢٩).

٢ سورة هود، الآية (٧١).

٣ سورة مريم، الآية (٨،٥) وانظر سورة آل عامر، الآية ٤٠ ،

٤ سورة الأنبياء، الآية (٩٠).

وجاءت الكلمة تعبر عن البنت قبل الزواج في البنيتين اللتين عرض شيخ مدين على موسى أن يتزوج إحداهما : (وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ) (١)، وعلى امرأة وهبت نفسها للنبي مما يعني أنها لم تكن ذات زوج ، وإلا ما جاز أن تهب نفسها للزوج ، وأطلقت على ملكة سبأ (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ) (٢) وهي امرأة إن ماتت بدليل إطلاقها على المرأة التي يرثونها (وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةً) (٣) ، وكذلك عند الشهادة : (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) (٤).

وهكذا لم تستحق امرأة العزيز كلمة زوج ، لافتقادها عنصر انسجام الزوجية . وبعد أن أجبنا لماذا استعمل كلمة امرأة مع المتزوجة ننقل إلى النقطة الأخيرة لماذا فتح تاء امرأة، ولم يثبتها بالتاء المربوطة ؟

إنه لا يفتحها إلا عند الإضافة المفقدة للزوجة حق الزوجية، فتكون المرأة هنا كالمحتل الذي احتل مكاناً غير مكانه، وطردت الزوجة، وحلت محلها. مما يقتضى إظهار المحتل وبيان اختفاء من قام باحتلاله وهو الزوجة. والتاء المفتوحة في القرآن الكريم بأكمله تشير إلى استحضار الشيء، وهنا هل تشير إلى استحضار المرأة؟؟ وهل هي ليست امرأة؟ نعم تشير إلى استحضار حالة ماضية أو مستقبلية للمرأة ليس مكانها الآن، ومن ثمّ تشير إلى اختفاء الحالة الصحيحة للمرأة، أي أنه طغيان لحالة من حالات المرأة على حالة أخرى، وهذه الحالة ليس مكانها الآن، فهي وهي متزوجة ليست امرأة، هي امرأة إن لم تتزوج أو فقدت الزوج، لكنه هنا يطلق عليها

١ سورة القصص، الآية (٢٣).

٢ سورة التمل (٢٣)

٣ سورة النساء (١٢)

٤ سورة البقرة، الآية (٢٨٢).

وهي متزوجة لقب امرأة، مما يفيد طغيان درجة من درجاتها على الأخرى واختفاء الأخرى. فكان من الواجب إبراز هذا المحتل وأن هذا ليس مكانه (أو زمانه).

فكان الله عز وجل لا يستحضر حاضراً، لكنه يستحضر حالة من حالاته مكانها ليس الآن، ليقرر طغيانها واحتلالها ما لا حق لها.

والأمر هو نفسه لما نقول على العجوز شاباً.. فأنت هنا لن تقول أي إظهار وهو ظاهر، ولكن يجب أن تعرف أن الإظهار هنا لحالة له على أخرى. والمقصود إبراز هذا الطغيان. وبيان اختفاء الزوجية بانسجاماتها العقائدية، والعفافية، والإنتاجية. فكان التركيز على إظهار المرآة لبيان اختفاء الزوجية.



(١٨)

لام التفرغ

إنها لام زائدة نحويًا ، لازمة معنوية لأداء معنى التفرغ للشيء . ستجدها عندما تجد الفعل متعدياً بذاته ، فتفصل بين الفعل وضمير المفعول به ، أو تفصل بين الاسم وضمير الإضافة إليه .

• (١) يكيد :

الكيد معالجة شيء بشدة، ويكيد بنفسه أي يعالجها لتخرج، والكيد أن يُخرج الزندُ النارَ ببطءٍ وشدة^(١)، وهو يتسم بالخفاء ويطلق على كل تدبير خفي يهدف لإلحاق الإذى بشخص لا يدري به، قال أبو تمام:

وَضَعِيفَةٌ فَإِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً قَتَلَتْ كَذَلِكَ قُدْرَةَ الضُّعْفَاءِ

والكيد كل احتيال يريد سوءًا في خفاء، وفي حديث عمرو بن العاص ما قولك في عُقُولِ كَادِهَا خَالِقِهَا؟ وفي رواية تلك عقولُ كَادِهَا بَارِئُهَا أَي أرادها بسوء، وسميت الحرب كيدًا لأن الإنسان يكيد بنفسه أي يوجد بها.

فعل الكيد متعدٍ بذاته ، وقد جاء في القرآن الكريم مسندًا لياء المتكلم المفعولية

١ ابن فارس. المقاييس. مادة (كيد)

أكثر من مرة : يقول الله عز وجل : { فَيَكِيدُونِي } ^(١) ، { ثُمَّ كِيدُونِ } ^(٢) ، { فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا } ^(٣) ، وضع لام التفرغ في سورة يوسف في قوله تعالى :

• ﴿ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ (يوسف).

الأب ينهي ابنه عن قص رؤياه على أخوته ، ويعلل ذلك بأنهم إن عرفوها سيكيدونه ، لكنه لم يقل فيكيدوك كيداً ، بل قال { فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا } : على الرغم من أن الفعل يكيد متعد بذاته ، لا يحتاج لحرف الجر اللام ، وجاء في القرآن الكريم بدون لام ، على لسان إبراهيم عليه السلام : { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ } ^(٤) ، فلم يستعمل اللام ، فلم يقل لأكيدن لكم أصنامكم ،

أما تعليل يعقوب عليه السلام ، فقد أفسح لوجود اللام : { فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا } ولم يقل : { فيكيدوك كيداً } فهي صحيحة لغوياً لأن الفعل كما قلنا متعد بذاته ، بل زاد اللام وهي من الأحرف الوظيفية في القرآن التي وجودها دون سبب نحوي يفيد دلالة زائدة هي التفرغ ، أي يتفرغون للكيد لك . تفرغاً تاماً كأن تلك أبحت رسالتهم في الحياة للكيد لك . فأعطت اللام الزائدة نحوياً هنا معنى وظيفياً لا يمكن الاستغناء عنه هو معنى التفرغ : ويكون المعنى : يا بني ، لا تقصص رؤياك على إخوتك ، لأنك إن فعلت ، تفرغوا في الكيد لك ، سيكون شغلهم الشاغل الكيد لك ، وهذا المعنى لا يعطيه لك (فيكيدوك) التي تفيد مجرد الكيد ، ولا يفيد ديمومته وتفرغ فاعليه له ، وشتان بين أن يكيد أحد لك بين الحين والآخر ، وبين أن يتخذ تدمير حياتك هدفاً كما نرى في الموتورين الذين يتركون كل حياتهم من أجل الانتقام ، فتكون حياتهم كلها متمحورة في التخطيط للنيل من عدوهم ، ولا ينشغلون عن ذلك لحظة . وهكذا تقف على دلالة لام التفرغ :

١ سورة المراسلات . الآية (٣٩) .

٢ سورة الأعراف . الآية (١٩٥) .

٣ سورة هود . الآية (٥٥) .

٤ سورة الأنبياء . الآية (٥٧) .

فيكيديوك : كيد غير متواصل (محدود) .
 فيكيديوا لك كيد متواصل لا يصرفهم عنهم صارف ، الكيد
 لك شغلهم الشاغل ، وهدفهم الذي لا يفترون عنه .
 وانظر إلى قوله تعالى :

• ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) (الطارق) .

أي يكيديون ما استطاعوا، يدبرون احتيالاتهم ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقلب الله كيدهم عليهم، فكل ضرر أرادوه به أصابهم، فكأنهم يسددون الضربة لأنفسهم. فكيدهم مردود عليهم في نحرهم.

ولم يضع (لام التفرغ) لأن الحرب مع الله، فلا يمكنهم التفرغ لمحاربة الله، بل هم يحاربون الرسول ويظنون أنهم بذلك لا يحاربون الله.

• (٢) يستطيع :

الفعل يستطيع متعد بذاته ، فهو يقبل هاء المفعولية ، تقول : هذا العمل أستطيعه وقد جاء في القرآن الكريم متعدياً بذاته في أكثر من موضع :

• { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ }^(١) • { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ }^(٢)

• { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً }^(٣) • { فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا }^(٤)

• { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا }^(٥) • { لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً }^(٦)

١ سورة يس . الآية (٧٥) .

٢ سورة الأعراف . الآيات (١٩٧) .

٣ سورة يس . الآية (٥٠) .

٤ سورة الفرقان . الآية (١٩) .

٥ سورة البقرة . الآية (٢٧٣) . سورة الإسراء . الآية (٤٨) .

٦ سورة النساء . الآية (٩٨) .

- { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا }^(١) • { لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ }^(٢)
- { وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا }^(٣) • { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ }^(٤)
- { لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا }^(٥) • { فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا }^(٦)
- { مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ }^(٧) .

لكن برغم كثرة المواضع التي جاء الفعل (يستطيع) فيها متعدياً بذاته ، إلا أنه هناك غير موضع جاءت لام التفرغ مع الفعل يستطيع ليكشف العجز برغم التفرغ للفعل .

أما الاستعمال الأول الذي جاءت فيه لام التفرغ مع الفعل يستطيع :

- ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا ﴾ (٤١) (الكهف) .

كما ترى ، الفعل متعدٍ بذاته ، إذ يمكن القول : (فلن تستطيع طلبه) ، لكنه لم يقل ذلك ، بل زاد لام التفرغ ، أي ستعجز عن طلبه وإن تفرغت لذلك طول حياتك .

إن القائل هو المؤمن يقول لصاحب الجنة التي لن تكون له جنة سواها ، فهي جنته الوحيدة ، نالها في الدنيا وسكن سواء الجحيم في الآخرة ، ولهذا

١ سورة الأنبياء . الآية (٤٠) .

٢ سورة الفرقان . الآية (٩) . سورة الإسراء . الآية (٤٨) .

٣ سورة الكهف . الآية (١٠١) .

٤ سورة الأنبياء . الآية (٤٣) .

٥ سورة الكهف . الآيات (٦٧ ، ٧٢ ، ٧٥) .

٦ سورة يس . الآيات (٦٧) .

٧ سورة هود . الآيات (٢٠) .

برغم أن القرآن صرَّح أن له جنتين ، إلا أنه أفرد لها لما قال : (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ) فدمج الجنتين وجعلهما واحدة ليس إلا حرمانه إلا منها ، فليس له إلا تلك الجنة الدنيوية وإن كانت اثنتين أو ثلاث .

. إن كل خير في جنتك بمشيئة الله ، إن شاء ضاعفها ، وإن شاء خربها ، فكان يجب عليه أن يقول : (مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ) لتدوم عليك ، ثم يواصل المؤمن كلامه: إن كان عطاء الله لك يجعلك تتعالى عليّ ، يقول الزمخشري : (إن ترني أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى ، فيرزقني لإيماني جنة خيراً من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب بستانك)^(١) .

فعبّر عن الخير الذي ينتظره بقوله (فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ) وعبر عن الفقر الذي أورده إليه الكفر بقوله :

- وَرُسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِّحَ صَعِيدًا زَلَقًا .
- أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا .

وهذا اليقين من المؤمن ، وحسن ظنه في ربه ، قد تحقق تماماً . فأرسل الله عليها هلاكاً فأصبحت خاوية على عروشها ، وبذلك ضاع عليها المال والمجهود الذي بذله في تعمیرها ، ونضب ماؤها فلا يستطيع معه أن يبدأ من جديد .

ولذلك استعان بتاء تستطيع .. أي ولو بذلت أقصى جهدك ، وكذلك استعان بلام التفرغ : أي وإن تفرغت لذلك .

أما الاستعمال الثاني الذي جاءت فيه لام التفرغ مع الفعل يستطيع :

١ الزمخشري . الكشف . ج ٢ . ص ٧٢٣ .

• ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقِبًا﴾ (٩٧) (الكهف).

بعد أن أتم ذو القرنين ردمه الذي يحجز يأجوج ومأجوج عن الناس ، يعبر القرآن عن عظمة الردم ، من خلال عجز يأجوج ومأجوج عبوره بأي طريقة ، وهم كان أمامهم إحدى طريقتين :

طريقة رأسية أقل صعوبة : من خلال التسلق من فوقه .

طريقة أفقية أشد صعوبة : من خلال ثقب الردم والنفاز من خلاله .

وقد فشلوا في الأمرين معاً ، فلا استطاعوا أن يفعلوا العمل السهل بالتسلق من فوقه ، وبالطبع لم يستطيعوا أن يفعلوا الصعوبة بالنفاز من خلاله ، لأنه جعله ملتحماً بالجبل كأنه قطعة من الجبل .

ولذلك ستجد القرآن يستخدم تاء المعاناة في الصعب ، أي برغم معاناتهم في لقد فشل أهل يأجوج ومأجوج في العملين الأسهل والأصعب ، فلا هم تمكنوا من العمل السهل وهو الارتقاء من فوقه ، ولا هم قدروا على العمل الصعب وهو : النفاز من خلاله .

وهذا هو الفارق بين التعبيرين :

• وما استطاعوا أن يظهروه : حذف تاء المعاناة ليكشف أن هذا العمل الأسهل . واستعمل المصدر المنسبك للتطبيقي ليبين أنه لا يتحدث عن مفهوم التسلق ، ولكن يتحدث عن تطبيقه وما صدقاته ، مما يفيد أن هناك محاولات كثيرة منهم لتسلقه لأن هذا كما قلنا هو العمل الأسهل .

• وما استطاعوا له نقباً : أثبت تاء المعاناة ، ليكشف أن هذا أصعب الأمرين وإن كانوا قد فشلوا في الأسهل ، فلن ينجحوا في الأصعب . واستعمل المصدر الصريح (نقبا) فلم يقل (أن ينقبوه) للدلالة على أنهم

وإن حاولوا النقب فلم يتحقق لهم ذلك وكان محاولاتهم وعدمها سواء ،
أو كأنهم لم تكن ، لهذا عبّر عنها بالمصدر الصريح الذي يفيد المفهوم لا
التطبيق

وفي رأينا أن القرآن أشار إلى أنهم إن كانوا قد فشلوا في الماضي ، إلا أنه
صرح بأنهم سينجحون في المستقبل كما قال ذو القرنين :

• { فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا }^(١)

ولذلك نؤكد أن طريقة خروجهم وقتما خرجوا لن تكون إلا بالطريقة
الأسهل وهي أن يظهروا الردم . أما وقتها وبعدها أي قبل الموعد (وعد ربي
(فستكون كل محاولاتهم فاشلة .

وقد عبّر القرآن عن فشل محاولاتهم سواء كانت بالطريقة السهلة)
الخالية من تاء المعاناة (أو الطريقة الصعبة (المثبت فيها تاء المعاناة)
فهم قد عجزوا عن اجتياز الردم الذي أقامه ذو القرنين سواء بالطريقة
السهلة أو بالصعبة ، لكن في الوقت المحدد لا طريقة لهم إلا بالسهلة .

لكنه كان يمكن أن يعبر عن عجزهم عن نقبه بدون زيادة اللام ، فيقول :
وما استطاعوا نقبه ؛ لأن الفعل متعد بذاته فهو يقبل هاء المفعولية ، تقول :
هذا العمل أستطيعه ، أي يمكن أن نقول (وما استطاعوا نقبه) دون حاجة إلى
اللام وقد جاء كثيراً في القرآن بدون اللام منها كما رأينا في أول المبحث مثل :
{ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ }^(٢) ، { فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا }^(٣) ، { لَا يَسْتَطِيعُونَ

١ سورة الكهف . الآيات (٩٨) .

٢ سورة هود . الآية (٢٠) .

٣ سورة الأنبياء . الآية (٤٠) .

نَصْرَكُمْ} ^(١) ، (فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا) ^(٢) ، فلماذا زاد اللام؟

كما قلنا اللام الزائدة تضي على المعنى معنى زائداً هو التفرغ ، أي أن صانعه تفرغ له ، حتى كان هذا العمل هو شغله الشاغل الذي لا يشغله عنه شاغل .

وإن كانوا فرقتنا أنفاً بين الاستعمالين من حيث التاء ، فقلنا إن وجودها إشارة إلى الصعب المستعصي الذي لن يتحقق الخروج من خلاله ، وعدمها إشارة إلى أسهل الطريقتين ، والطريق المتاح عند الخروج ، فلعلنا نحتاج إلى التفرقة بين لام التفرغ وجوداً وعدمًا : بمعنى أن قوله تعالى : (وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا) التي في نظرنا تفيد أن يأجوج ومأجوج تفرغوا تماماً لنقب الردم ، ومع هذا التفرغ الكامل عجزوا أن يفعلوه . والآتي هو الفرق بين الاستعمالين عند حذف اللام وعند إثباتها ؟

• ما استطاعوا نقبه : عجزوا عن نقبه ، وربما لم يحاولوا ، وربما حاولوا قليلاً مما يفيد أنهم ربما لو أعطوه وقتاً أكثر ومحاولات أكثر لربما نجحوا .

• وما استطاعوا له نقباً : أي كان شغلهم الشاغل هو محاولة نقبه ، وكلما فشلوا في محاولة اتجهوا لأخرى . لكنهم عجزوا برغم تفرغهم الكامل لذلك .

أما الاستعمال الثالث الذي جاءت فيه لام التفرغ مع الفعل يستطيع :

• ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (الأعراف) .

رب العزة يتحدث عن الآلهة التي عبدوزها إشراكاً وهو يقول عن تلك

١ سورة الأعراف . الآية (١٩٧) .

٢ سورة يس . الآية (٦٧) وكذلك في قوله تعالى في سورة آل عمران : (مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا) .

الآلهة المزعومة في الآية السابقة :

• ﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١١١) ﴿ (الأعراف) .

فإن الله عز وجل يتحدث عما أشركوهم في عبادته بأنهم لا يخلقون شيئاً ، وما هم إلا مخلوقات مثلهم .

وأبجدية الخلق أن يختلف عن مخلوقه ، فكل صفات الله عز وجل تتمحور في الاختلاف البين عن مخلوقاته : وانظر :

* الواحد : أي ليس له ثاني ، وكل مخلوقاته لها ثاني .

* الأحد : لا أجزاء له ، وكل مخلوقاته لها أجزاء .

* الحي : الذي لا يموت ، وكل مخلوقاته تموت .

* القيوم : لا تأخذه سنة ولا نوم ، وكل مخلوقاته تنام .

* الصمد : لم يلد ولم يولد ، وكل مخلوقاته ذرء تلد وتولد .

* القادر :طلاقة القدرة ، يقدر على الشيء وعكسه ، يميت ويحيى من يميته ، وكل مخلوقاته قدرتها محدودة .

* السلام : أي سلم من الفناء والتغير ، وكل مخلوقاته عرضة للفناء والتغير .

* الغني : غني في ذاته ، وكل مخلوقاته تفتقر إلى غيرها .

فكان من الغريب أن يكون أولى صفات الشيء الذي اتخذه إلهاً أن يكونوا مشاركاً لهم في الصفة ، فهو مخلوق مثلهم ، ويعجز أن يخلق شيئاً ، فكيف ساغ لهم أن يعبدوهم ؟

ولهذا وصف الله عز وجل عجز تلك الآلهة (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا) لأنهم أصلاً لا يمكنهم نصر أنفسهم ، أي أن الناس الذين عبدوهم أكثر قدرة منهم . وقد ضع لام التفرغ في قوله (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا) فلم يقل : ولا يستطيع نصرهم ، وبذلك نرى أنه وضع تاء المعاناة أي يعجزون وإن بذلوا كل جهدهم ، ووضع لام التفرغ للدلالة على أنهم عاجزون وإن تفرغوا لفعل ذلك . وهذا العجز تام لا يشوبه شائبة ، فليس فيه أي نسبة من معكوسه أي القدرة .

فهم عاجزون عن نصرهم مع تفرغهم لذلك ، ولعل المغايرة الآتية في الاستعمال الواحد بين إثبات اللام وعدم استعمالها يكشف وظيفة التفرغ في هذه اللام :

- ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (الأعراف) ١٩٢
- ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (الأعراف) ١٩٧

		مغايرة	
[الأعراف]	﴿ ٤ ﴾ نَصْرَكُمْ	﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾	1
[الأعراف]	﴿ ١٩٢ ﴾ لَهُمْ نَصْرًا	﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾	2

الصورة الأولى 1-ى : { لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ }^(١): الرسول صلى الله عليه وسلم

هو القائل ، فقبلها أمر الله عز وجل له بأن يقول ذلك للكافرين : { قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظَرُونَ }^(١٩٥) إِنَّ وَلِئِيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ^(١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ

١ سورة الأعراف : { وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ }^(١٩٧).

{يَنْصُرُونَ} ^(١) لا يتحدث هنا عن عدم استحقاقها العبادة ، ليضع لام التفرغ ، لكنه يراعي ارجاء الكافرين النصر منها ، فيكتفي بأن ينفي ذلك ، ترجون نصرهم ، لن يحدث .

الصورة الثاني 2ة : { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا } ^(٢) : الله عز وجل هو المتكلم ، فيكشف عجز الآلهة في نصر الكافرين وإن تفرغوا لذلك ، فذكر درجة عجزهم لأنهم في مواجهته هو نفسه ، وهو المتكلم ، وهكذا نرى أن سر المغايرة اختلاف المتحدث ، فإن كان الله فيجب أن يظهر درجة العجز وأنهم عاجزون وإن تفرغوا لذلك ، وإن تجمعوا لذلك ، حتى لا يقال : ربما لم ينصروهم لأنهم كانوا منشغلين بغيرهم . وبذلك كشف عن عدم استحقاقها للعبادة ، فزاد اللام : عاجزون وإن تفرغوا فكيف تعبدونهم ؟

والخلاصة :

{ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا } ^(٣) أي لن تستطيع طلب الماء وإن تفرغت لذلك .
 { وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا } ^(٤) أي أن يأجوج ومأجوج فشلت نقب الردم الذي صنعه ذو القرنين برغم تفرغهم لذلك .
 { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا } ^(٥) : أي يعجزون عن نصرهم وإن تفرغوا لذلك .

فَأَسْتَمِعُوا لَهُ

* الآية تقدم حالة الكفار وهم يتلقون القرآن ، فلا يمكن أن يستعمل لفظ (سمعوه) لأن سمعوه تعني أنه وصل إليهم دون استعداد منهم، فمن ثم لا

١ سورة الأعراف :

٢ سورة الأعراف : { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } {١١٢} .

٣ سورة الكهف . الآيات (٩٧) .

٤ سورة الكهف . الآيات (٩٧) .

٥ سورة الأعراف : { وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ } {١١٢} .

يمكن أن يصف حالتهم عند الاستماع إليهم ، فهم يلعبون عند النطق به ، وهذا اللعب خاص به ، فلا بد أن يكون الاستماع متعمداً منهم حتى يمكنهم أن يقابلوه بما يريدون . فهناك فرق بين السمع العفوي الذي تفاجئ بأنك قد سمعت ، وبين الاستماع العمدي الذي تريد فيه أن تسمع . فالسمع العفوي كما في قوله تعالى في سورة يوسف { فَأَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ } . لأن الكلام وصل إلى مسامعها دون تعمد منها . والسمع العمدي كموقف الكفار وهم يتلقون القرآن .

* وتلاحظ أنه لم يضع لام التفرغ فلم يقل : { فَأَسْتَمِعُوا لَهُ }^(١) ، { فَأَسْتَمِعَ لِمَا يُوحَى }^(٢) ، فاللام تعني أن يتفرغوا للاستماع للقرآن ، وأن يتفرغ النبي للاستماع لما يوحى إليه ، لكن حذف اللام في سورة الأنبياء { إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ }^(٣) دلالة أن الكفار لا يتفرغون للاستماع له ، وإنهم منشغلون عنه . بل كانوا يتناهون عن الإنصات والتفرغ للاستماع له : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ }^(٤) فاستعمل اللام للحث على المداومة عن الانصراف عنه .

قال : إذن فالفاعل رهب . يرهب متعدياً بذاته لأننا ممكن أن نقول : يرهبونه؟؟

قلت : بلى .. القرآن استخدم متعدياً في قوله تعالى : { فَأَرْهَبُونَ }^(٥) ، { تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ }^(٦) .

فلماذا زاد اللام في قوله : أن الآخرين لهم قبل متعددة فيقول : { لِلَّذِينَ

١ سورة الأعراف ، الآية (٢٠٤) ، سورة الحج ، الآية (٧٣) .

٢ سورة طه ، الآية (١٣) .

٣ سورة الأنبياء ، الآية (٢) .

٤ سورة فصلت ، الآية (٢٦) .

٥ سورة البقرة ، الآية (٤٠) ، النحل ، الآية (٥١) .

٦ سورة الأنفال ، الآية (٦٠) .

هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ }^(١) .

قلت : تلك لام زائدة تدخل على الفعل المتعدي لتضمن له التفرغ ، أي الذين هم الآن ، لا يرهبون إلا ربهم ، وتلك الراهبة ممتدة .

وهذه اللام مطردة .. كما سنرى .. انظر إلى قوله تعالى : { وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا }^(٢) . الفعل استطاع متعدٍ بذاته ، فهو يقبل هاء المفعولية ، فتقول : هذا العمل أستطيعه ، لكننا نجده يزيد اللام ، فلم يقل (وما استطاعوا نقبه) ، بل قال : وما استطاعوا (له) نقباً ، فتلك لام التفرغ التي تضيف دلالة إضافية على الحدث هي أن صانعه تفرغ له ، ولم يكتف بالعمل فحسب ، بل كان هذا العمل هو شغله الشاغل . وانظر الفرق :

• **فما استطاعوا نقبه** : أي حاولوا مرة أو أكثر وفسلوا وانتهى الأمر .

• { وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا } : أي كان شغلهم الشاغل هو محاولة نقبه ، وكلما فشلوا في محاولة اتجهوا لأخرى .

فيجب أن تعرف أن اللام إذا زيدت إلى فعل متعدٍ لا يحتاج له ، أضفت عليه صفة التفرغ : ترى ذلك في قوله تعالى :

{ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ } . فلم يقل مكناه ، ليجعل التمكّن فارغاً من الغريم . وسوف تجد فارقاً بين مكناهم في الأرض .. وبين مكنا له في الأرض : فالأولى تصفو له الأرض لكن بعد تغلبه على الغريم ، أما الثانية فهو من القوة بحيث يتوارى منه الغريم ، فلا يقف في وجهه أحد .

وتكرر ذلك في سورة يوسف : { فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا }^(٣) . لم يقل (فيكيدوك

١ سورة الأعراف ، الآية (١٥٤) .

٢ سورة الكهف . الآية (٩٧) .

٣ سورة يوسف . الآية (٥) .

(لأن هذا يعني أن الكيد سيكون محدوداً ، محاولة أو محاولتان فقط ، أما قوله (فيكيدوا لك) يعني أن الكيد سيكون شغلهم الشاغل لا يصرفهم عنه صارف .

والأمر نفسه : { إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }^(١) فلم يقل : إنه عدوكم ، ذلك لأن الشياطين لا يتخذون بني آدم عدواً فحسب ، بل لا هم لهم سوى تفعيل تلك العداوة . هم متفرغون لنا .

وانظر إلى قوله تعالى : { وَنُقَدِّسُ لَكَ }^(٢) فليس خفياً أن الفعل (نقدس) متعد بذاته ، نقول : نقدسك ، ومع ذلك جئ به هنا متعدياً بلام التفرغ فلم يقل نقدسك ، بل قال : { وَنُقَدِّسُ لَكَ } ذلك أنه لو قال نقدسك لكان فيها ما في الفعل من انقطاع ، وزيادة اللام أضفت تفرغ الفاعل للفعل ، فالفعل نقدس لك : يوضح أن تقديس الملائكة لله هو ديدنهم ، فلا عمل لهم سواه .

أرأيت كيف أن القرآن يكشف قدرات هذه اللغة العظيمة ؟ فإذا كان الفعل يحدث وينقطع حتى لو كان كثيراً ، تُرك الفعل يتعدى بذاته أما إذا كان الفاعل مجبولاً على الفعل بحيث يكون الفعل سجيةً فيه ، استخدم اللام ولم يجعل الفعل يتعدى مباشرة للإشارة إلى دوام الفعل وسرمديته في الفاعل ، وهنا الملائكة يقديسون ربهم بصورة سرمدية ، فالتقديس سجية وطبيعة ، لذلك أضاف اللام فقالوا : { وَنُقَدِّسُ لَكَ } . ولو جاء التقديس من الناس لقالوا (نقدسك) ؛ لأن تقديس الناس منقطع .

وحتى تكتمل فكرة لام التفرغ يمكنك الوقوف على مثالين لفعل واحد هو التسبيح مرة بالتعدية المباشرة (سُبِّحَكَ) ، وأخرى بزيادة اللام (يُسَبِّحُ لَكَ) .

١ سورة البقرة . الآية (١٦٨) .

٢ سورة البقرة . الآية (٣٠) .

• { كَيْ نَسِجَكَ كَثِيرًا }^(١) قال (نُسِجَكَ) على لسان موسى ، لأنه وأخاه لن ينقطع للتسبيح ، فهو نعم سيسبح الله كثيراً ، لكنه لن يتفرغ لهذا التسبيح تفرغاً كلياً. لهذا لم يضيف اللام .

• { يُسِجُّ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ }^(٢) : فبيوت الله لا ينقطع فيها التسبيح لله . فمكانياً .. لا عمل لمن يدخلها إلا تسبيحه ، وزمانياً .. لا تخلو لحظة من لحظات الزمن اليومية من تسبيح الله ، فالآذان وحده قبل أن ينتهي ، يكون ثمة مكان آخر قد أخذ في الآذان لاختلاف خطوط الطول . وهكذا فالتسبيح سرمدي .

فالقراءن يستخدم الفعل سَبَّحَ متعدياً بذاته بدون اللام ، إذا كان صادراً ممن لا يتفرغون للفعل أو ليس باستطاعتهم التفرغ له ، ويستخدمه باللام إذا صدر من الملائكة أو الكائنات المجبولة على التسبيح لأن التسبيح سجية فيها فهي متفرغة له .



١ سورة طه . الآية (٣٣) .

٢ سورة النور . الآية (٣٦) .

(١٩)

اعتد . أعد

العد إن لم يكن إحصاءً فهو من الإعداد الذي هو تهيئة الشيء . ومنه العُدَّة . ما أعدَّ لحوادث الدهر كالمال والسلاح ، ومنه قوله تعالى : { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً }^(١) ، ويقال : أخذ للأمر عدته ، يقال أعددت الشيء أعدته إعداداً . وقيل لمجتمع الماء : العدُّ لأن الماء الذي لا ينقطع كأنه الشيء الذي أعدَّ دائماً ، وفي الحديث: أن أبيض بن حمَّال المازني قدم على النبيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَقَطَّعَهُ الْمَلْحَ الَّذِي بِمَارِبَ فَأَقْطَعَهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَدْرِي مَا أَقْطَعْتَهُ؟ إِنَّمَا أَقْطَعْتُ لَهُ الْمَاءَ الْعَدُّ؛ قَالَ: فَارْجِعْهُ مِنْهُ . وذكر صاحب اللسان عن الأصمعي : الْمَاءُ الْعِدُّ الدَّائِمُ الَّذِي لَهُ مَادَّةٌ لَا انْقِطَاعَ لَهَا مِثْلَ مَاءِ الْعَيْنِ وَمَاءِ الْبَيْرِ^(٢) .

* وقد تقول فما الفرق بين (أعد، أعتد) ؟ كلتا الكلمتين بمعنى هيا وأحضر ، وليس كما قال الزجاج في تفسير (وَأَعْتَدْتَ لَهُنَّ مَتَكًا) بأنه من العتاد^(٣) وإن هو إلا معكوس الإدغام ، فكما يتم إدغام التاء في الدال مثل : مُدَّتِر ، وأصلها (مُدَّتَتِر) فقلبت تاء الافتعال دالاً وأدغمت . كذلك أصل

١ سورة التوبة . الآية (٤٦) .

٢ انظر ابن فارس ، مقاييس اللغة ، مادة (عد) وابن منظور ، لسان العرب ، مادة (عد) .

٣ معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣ / ١٠٥) .

(أَعْتَدْتُ) أَعَدَّتْ فقلبت الدال تاءً لمنع الإدغام . أي كما يقلب التاء إلى دال طلباً للإدغام ، يمكن فعل العكس فراراً من الإدغام ، وقد تقول فما الغاية من الفرار من الإدغام ؟؟ والإجابة لإدغام ملامح دلالي هو إن الإعداد لم يتم بأمر الله أو السيد فحسب ، بل أشرف بنفسه على الإعداد ، ويكون الفارق بين أعدّ ، وأعدت أن الأول بأمره ، والثاني بأمره وبإشرافه بنفسه على الإعداد ، وهكذا نرى أن الله لم يستعمل في القرآن أبداً : أعددنا ، لأننا المتكلمين تقتضي إشرافه بنفسه على الأمر ، بينما لم تأت (أعدت) إلا مصحوبة بنا المتكلمين التي ترجع إلى الله عز وجل ، أي أن أعد إذا كان الله قد أمر بالإعداد ، وأعدت : إذا كان الله أشرف بنفسه على هذا الإعداد . ولهذا وجدنا في سورة يوسف امرأة العزيز لم تأمر خدماها بإعداد المتكأ ، لكنها أشرفت بنفسها على تجهيزه ليخرج كما تريد ليتحقق مجلس كل منهن كما أرادت .

* وقد تقول لكن إسناد الفعل إلى نا الفاعلين يفك المثليين إجباراً لأنه يبني المثلث الثاني المتحرك على السكن ، وتنتقل فتحته إلى الساكن قبله ، فلم يكن هناك حاجة إلى إبدال الدال إلى تاء لإتمام الفك ؟ وأقول لك وماذا لو أسندت الكلمة إلى تاء التأنيث كما حدث عند إسنادها لامرأة العزيز ، تاء التأنيث لن تفك المثليين ، وهنا لأن القرآن يتبع قانوناً لغوياً ثابتاً ، لذلك فك المثليين بطريقة ثابتة تتم سواء كان الضمير متحركاً أو كان تاء التأنيث الساكنة ليجب الفك في الحالين بتغيير الدال إلى تاء لتضفي ملامح أن الإعداد بلغ إلى الدرجة القصوى في الاهتمام حتى أن السيد يقف على إتمامه بنفسه .

* وقد وردت (أعدت) بفك الإدغام وتحويل الدال إلى تاء ثلاث عشرة مرة على لسان رب العزة (أعدتنا) لتعرف أن الإعداد بإشرافه بنفسه ، ومرة

واحدة للتعبير عن قيام امرأة العزيز بالإشراف بنفسها على إعداد المتكأ لتقابل مكرهن بمكر أشد ، وليتم ذلك كما أرادت ، لم تترك للخدم تجهيز المكان ، بل وقفت بنفسها تشرف على ذلك .

* وانظر إلى المغايرات الآتية :

(أ) مع العذاب الأليم :

- { أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }^(١) ، { وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا }^(٢) : لم يذكر ضمير المتكلم الخاصة باسم الجلالة ، لذلك استعمل أعد . والأمر نفسه مع العذاب الشديد والعظيم : { وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا }^(٣) ، { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا }^(٤) .
- { أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }^(٥) ، { وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا }^(٦) ، { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا }^(٧) : كما ترى عدل عن أعد إلى أعتد مع ذكر ضمير التكلم لرب العزة .

(ب) مع العذاب المهين :

- { إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا }^(٨) ، { وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا }^(٩) : لم يذكر ضمير المتكلم الخاصة باسم الجلالة ، لذلك استعمل أعد .
- { وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا }^(١٠) : كما ترى عدل عن أعد إلى أعتد مع ذكر ضمير التكلم لرب العزة .

- ١ سورة الإنسان . الآية (٣١) .
- ٢ سورة الأحزاب . الآية (٨) .
- ٣ سورة النساء . الآية (٩٣) .
- ٤ سورة المجادلة . الآية (١٥) . سورة الطلاق . الآية (١٠) .
- ٥ سورة النساء . الآية (١٨) . سورة الإسراء . الآية (١٠) .
- ٦ سورة الفرقان . الآية (٣٧) .
- ٧ سورة النساء . الآية (١٣١) .
- ٨ سورة النساء . الآية (١٠٢) .
- ٩ سورة الأحزاب . الآية (٥٧) .
- ١٠ سورة النساء . الآية (٣٧) . سورة الإسراء . الآية (١٥١) .

(ج) مع النار :

• { وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }^(١) ، { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا }^(٢) ،
 { أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }^(٣) : لم يذكر ضمير المتكلم الخاصة باسم الجلالة ، لذلك
 استعمل أعد .

• { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا }^(٤) : كما ترى عدل عن أعد إلى أعتد مع ذكر ضمير
 التكلم لرب العزة .

(د) مع جهنم :

• { وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ }^(٥) : لم يذكر ضمير المتكلم الخاصة باسم الجلالة ، لذلك
 استعمل أعد .

• { إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا }^(٦) : كما ترى عدل عن أعد إلى أعتد مع ذكر
 ضمير التكلم لرب العزة .

(هـ) مع السعير :

• { فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا }^(٧) : لم يذكر ضمير المتكلم الخاصة باسم
 الجلالة ، لذلك استعمل أعد .

• { وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ }^(٨) ، { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَالًا

١ سورة آل عمران . الآية (١٣١) .

٢ سورة الفتح . الآية (١٣) .

٣ سورة البقرة . الآية (٢٤) .

٤ سورة الكهف . الآية (٥٢) .

٥ سورة الفتح . الآية (٦) .

٦ سورة الكهف . الآية (١٠٢) .

٧ سورة الأحزاب . الآية (٦٤) .

٨ سورة الكهف . الآية (١٠٢) .

وَسَعِيرًا^(١) ، {وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا^(٢)} : كما ترى عدل عن أعد إلى أعتد مع ذكر ضمير التكلم لرب العزة .
(و) : مع الأجر :

• { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ^(٣) } ، { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(٤) } ،
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(٥) } { فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ
أَجْرًا عَظِيمًا^(٦) } ، { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^(٧) } { وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَرِيمًا^(٨) } { أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ^(٩) } : لم يذكر ضمير المتكلم
الخاصة باسم الجلالة ، لذلك استعمل أعد .

• { وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ رِزْقًا كَرِيمًا^(١٠) } : كما ترى عدل عن أعد إلى أعتد مع ذكر
ضمير التكلم لرب العزة .

(ز) مع الأجر :

• { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ^(١١) } ، { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(١٢) } ،
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^(١٣) } { فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا

١ سورة الإنسان . الآية (٤) .

٢ سورة الكهف . الآية (١٠٢) .

٣ سورة آل عمران . الآية (١٣٣) .

٤ سورة التوبة . الآية (٨٩) .

٥ سورة التوبة . الآية (١٠٠) .

٦ سورة الأحزاب . الآية (٢٩) .

٧ سورة الأحزاب . الآية (٣٥) .

٨ سورة الأحزاب . الآية (٤٤) .

٩ سورة الحديد . الآية (٢١) .

١٠ سورة الأحزاب . الآية (٣١) .

١١ سورة آل عمران . الآية (١٣٣) .

١٢ سورة التوبة . الآية (٨٩) .

١٣ سورة التوبة . الآية (١٠٠) .

عَظِيمًا^(١)، { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }^(٢) { وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا }^(٣)
 { أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ }^(٤): لم يذكر ضمير المتكلم الخاصة باسم
 الجلالة ، لذلك استعمل أعد .

• { وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا }^(٥) : كما ترى عدل عن أعد إلى أعتد مع ذكر
 ضمير التكلم لرب العزة .

(و) مع الناس :

• { لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً }^(٦) : لم يذكر ضمير المتكلم الخاصة باسم الجلالة ، لذلك
 استعمل أعد .

• { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا }^(٧) : كما ترى عدل عن أعد إلى أعتد مع وجود المشرف .



-
- ١ سورة الأحزاب . الآية (٢٩) .
 - ٢ سورة الأحزاب . الآية (٣٥) .
 - ٣ سورة الأحزاب . الآية (٤٤) .
 - ٤ سورة الحديد . الآية (٢١) .
 - ٥ سورة الأحزاب . الآية (٣١) .
 - ٦ سورة التوبة . الآية (٤٦) .
 - ٧ سورة يوسف . الآية (٣١) .

(٢٠)

بئس . ساء

ما الفرق بين التعبير (ساء الشراب) أو (بئس الشراب) ؟ قبل أن نتعرض للتفريق بينهما نقف على سر حذف المخصوص بالذم في قوله : بئس الشراب ، فحذف المخصوص بالذم ، لأنه يريد أن يجعله ليس فرعاً من الشراب ، فهذا يعنى وجود أنواع أخرى من الشراب ، بل يريده هو ذاته جنس الشراب ، فلا شراب إلا هو .

أما لماذا قال (بئس الشراب) ولم يقل (ساء الشراب) ؟ وذلك لأنه استقر به المقام في جهنم ، وليس أمامه مجال للإقلاع عن هذا الشراب ، فهو شراب حتمي لا يمكنه العدول عنه إلى عكسه . أي أن التعبير (بئس) عند حتمية الأمر وانفراده ، فلا يكون هناك اختيار غيره .

والسوء عكس الحسن ، أي لا يذكر السوء وكذلك الحسن إلا أحد ضدين ، فقوله ساءت مصيراً أي هناك الجنة التي حسنت مصيراً ، وكذلك قوله : ساءت مرتفقاً ، وساءت مستقراً ومقاماً ، وقوله فساء مطراً المنذرين أو صباحهم للإشارة إلى حسن المبشرين ، وقوله فساء سبيلاً : لبيان أن الطهارة حسنت سبيلاً ، وقوله (ساء ما يحكمون ، أو يعملون ، ما يزرعون) ، دلالة على أن هناك العكس الحسن .

* وقد تقول فما الفرق بين : ساء ، وبئس ؟ أما ساء فيتم استعمالها إذا كان متاحاً له أن يقلع عن هذا الاختيار إلى عكسه ، أي يمكنه العدول عن السوء إلى الحسن ، فإن انعدم الاختيار وأصبح هذا الاختيار السيء حتمياً لا يمكن العدول عنه فهنا يستعمل بئس ليكون فضحاً له بأنه الأسوء في جنسه .

* وأقف عند ستة اشتراكات جاء التعبير عنهما بالفعالين (بئس ، ساء) :

(١) : القرين :

• { وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا }^(١) استعمال ساء لأنه مازال في الدنيا ، يمكنه أن يقلع عنه إلى عكسه .

• { حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ }^(٢) استعمال بئس لأنه في الآخرة ، فلا قرين أسوأ مما أورده جهنم . ولا مجال لذكر السوء فحسب .

(٢) : المصير الجهنمي :

• { وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا }^(٣) ، { فَأُولَٰئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا }^(٤) ، { نُؤَلِّهِمْ مَا تَوَلَّوْا وَنُصَلِّهِمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا }^(٥) استعمال ساء لأنه مازال في الدنيا ، والله يتوعد بسوء المصير ليقلع عنه إلى عكسه .

١ سورة النساء. الآية (٣٨) .

٢ سورة الزخرف. الآية (٣٨) .

٣ سورة الفتح. الآية (٦) .

٤ سورة النساء. الآية (٩٧) .

٥ سورة النساء. الآية (١١٥) .

• {وَيْسَ الْمَصِيرُ} (١)، {وَمَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَ الْمَصِيرُ} (٢)، {وَمَا أَوْلَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَ الْمَصِيرُ} (٣)، {حَسْبُكُمْ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فَيُسَ الْمَصِيرُ} (٤) استعمل بس لأنه يتحدث عنهم إذا أصبحت جهنم مأواهم فهنا لا مجال أمامهم للاختيار والإقلاع عن السيء إلى عكسه . فهي الأذم في كل مصير .

(٣) : الماء :

• {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ} (٥) استعمل ساء لأنه لا يخاطب من ماتوا ، لكنه يخاطب الأحياء حتى لا يكونوا مثلهم ، فهناك وضع السوء لأن المخاطبين يمكنهم أن يحددوا عنه ويتجنبوا مصير من حدث لهم ذلك .

• {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ} (٦) استعمل بس لأنه يتحدث عن شراب لم يعد منه مفر ، فقد استقروا في جهنم ، وليس في مقدورهم العدول عنهم ولا عن مستلزماتها ، فهو شراب حتمي لهذا لم يصفه بالسوء لتجنبه إلى عكسه ، بل لما لم يعد أمامهم من خيار ، ولم يعد هناك مجال للإقلاع عن السيء إلى عكسه ذكر أنه الأذم في شراب .

(٤) : المثل :

• {سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا} (٧) مثل الذين كذبوا بآياته بالكلب إن تتركه يلهث ، وإن تحمل عليه يلهث ، وأيضاً هنا لا يخاطب بلعام أو مثيله ممن كذبوا بالآيات وكانوا كالكلب ، لكنه يخاطب الأحياء حتى لا يكونوا

١ سورة البقرة. الآية (١٢٦) سورة الحج . الآية (٧٢) . سورة الحديد . الآية (١٥) سورة النور . الآية (٥٧) .

سورة التغابن . الآية (١٠) . سورة الملك . الآية (٦)

٢ سورة آل عمران. الآية (١٦٢) . سورة الأنفال . الآية (١٦) .

٣ سورة التوبة . الآية (٧٣) . سورة التحريم . الآية (٩)

٤ سورة المجادلة . الآية (٨) .

٥ سورة الشعراء. الآية (١٧٣) . سورة النمل . الآية (٥٨) .

٦ سورة الكهف. الآية (٢٩)

٧ سورة الشعراء. الآية (١٧٣) . سورة النمل . الآية (٥٨) .

مثلهم ، فهنا وضع السوء لأن المخاطبين يمكنهم أن يحدوا عنه ويتجنبوا مصير من حدث لهم ذلك .

• { مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }^(١) استعمل بئس لأنه يحكم عمن فعل هذا ، وقد قطع الأمل في هدايتهم لذلك ذمهم بأن هذا أسوأ مثل ، ولو كان هناك مجال لهدايتهم لوصف المثل بالسوء ليحثهم على تجنبهم ، لكنه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم كان عليهم أن يؤمنوا بمحمد .

(٥) : العمل :

• { إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }^(٢) استعمل ساء لأنه يحذر غيرهم من فعلهم بهدف أن يتجنبوه ، فوضع السوء لأن المخاطبين يمكنهم أن يحدوا عنه ويتجنبوا مصير من حدث لهم ذلك .

• { لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }^(٣) ، { كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ }^(٤) استعمل بئس لأنه يحكم على فعلهم فلا مجال عند الحكم للاختيار والإقلاع عنه إلى عكسه ، فهذا يكون مع غيرهم ، لكن عند الحكم على الفعل يستعمل الذم أي لا مثيل له في السوء .

عن شراب لم يعد منه مفر ، فقد استقروا في جهنم ، وليس في مقدورهم العدول عنهم ولا عن مستلزماتها ، فهو شراب حتمي لهذا لم يصفه بالسوء لتجنبه إلى عكسه ، بل لما لم يعد أمامهم من خيار ، ولم يعد هناك مجال

١ سورة الجمعة. الآية (٥)

٢ سورة التوبة. الآية (٩) . سورة المجادلة . الآية (١٥) سورة المنافقون . الآية (٢) .

٣ سورة المائدة. الآية (١٣)

٤ سورة المائدة. الآية (٧٩)

للإقلاع عن السيء إلى عكسه ذكر أنه الأذم في شراب .

(٦) : جهنم :

- إذا وصفها في ذاتها وصفها بالسوء لأن هناك مقابل لها حسن هو الجن ، وفي قوله تعالى (وساءت مرتفقاً) يصفها في ذاتها .
- بينما لو وصفها بالنسبة لساكنيها ، فهي الأسوأ مادام انتهوا إليها ، لهذا يعدل عن السوء إلى : **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، وَبِئْسَ الْقَرَارُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ، فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ، وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ .**
- والأمر نفسه في (نعم) ، وحسنت ، وانظر إلى قوله (**نِعْمَ الثَّوَابُ**) ، وسترى أنه أيضاً حذف المخصوص بالمدح ، لأنه لا يريده فرعاً من الثواب ، بل يريده هو ذاته جنس الثواب ، فلا ثواب إلا هو .

أما لماذا قال (**نِعْمَ الثَّوَابُ**) ولم يقل (حسن) ؟ وذلك لأنه استقر بهم المقام في الجنة ، فهو ثواب حتمي تحقق في يدهم ، فلا مجال لبيان عكسه ، ولا استخدام للحسن إلا عند المقارنة ، أي كان أمامه سيء وعدل عنه إلى الحسن ، وهذا لا يكون إلا في الدنيا ، حتى لو كان يتكلم عن الجنة وهي من أشياء الآخرة ، فهو يكلمه وهو مازال في الدنيا كان من الممكن ألا يختارها . وانظر إلى قوله تعالى { **وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** }^(١) ، لم يقل عنده نعم الثواب ، لأنه يخاطبهم وهم مازالوا في الدنيا ، والمجال مفتوح أمام خيارين ، فلا يصلح نعم ، بل يصلح الحسن والسوء .

والاستعمال القرآني لأسلوب المدح (نعم) جاء عند حتمية الاختيار ، وعدم وجود فرصة متاحة لاختيار العكس ، ولهذا كان استعماله مع رب العزة

١ سورة آل عمران . الآية (١٩٥) .

: { نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ }^(١) ، { وَنِعَمَ الْوَكِيلِ }^(٢) ، { فَنِعَمَ الْقَدِيرُونَ }^(٣) ،
 { فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ }^(٤) ، { فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ }^(٥) ، واستعمالها عن الجنة بعد استقرار
 أهلها فيها ، فلا مجال لغيرها : { فَنِعَمَ عَقَبَى الدَّارِ }^(٦) ، { نِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ }^(٧) ،
 ولم يوصف به إنسان في الدنيا سوى لسليمان عليه السلام ذي القرنين {
 نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ }^(٨) ، وكذلك أيوب عليه السلام { نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ }^(٩) ،
 وكلاهما لا مثيل له في عصره ، فسليمان أوتي ما لم يؤت أحد قبله ولا بعده
 من الملك ، وأيوب كان وحده من سمح للشيطان أن يكون له سلطان عليه
 ومع ذلك فشل معه ، فحسن العبودية فيهما لم يكن هناك فرصة للشيطان
 ليجعلها العكس .

لا استعمال للحسن والسوء إلا إذا كان متاحًا استعمال أي منهما ، فإن تحتم
 واحد منهما فحسب فهذا مجال المدح والذم (نعم ، بئس) ، وهنا الحديث
 للبشرى في الدنيا للمؤمنين ، وكان أمامهم مثل الكافرين أحد الاختيارين ،
 فاختر الكافرون الانصراف عن الحق فقال (وساءت مرتفقًا) لأنه كان
 أمامه العكس ، واختار المؤمنون إتباع الحق فقال (وحسنت مرتفقًا) لأنهم
 أيضًا كان أمامهم العكس .



١ سورة الأنفال . الآية (٤٠) . ومثلها بزيادة الفاء . سورة الحج . الآية (٧٨) : { فَنِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ }
 ٢ سورة آل عمران . الآية (١٧٣) .

٣ سورة المرسلات . الآية (٢٣) .

٤ سورة الذاريات . الآية (٤٨) .

٥ سورة الصافات . الآية (٦٥) .

٦ سورة الرعد . الآية (٢٤) .

٧ سورة العنكبوت . الآية (٥٨) ومثلها بزيادة الفاء . سورة الزمر . الآية (٧٤) : { فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ }
 وبزيادة الواو في سورة آل عمران . الآية (١٣٦) { وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ } .

٨ سورة ص . الآية (٣٠) .

٩ سورة ص . الآية (٤٤) .

(٢١)

هذه الشجرة . تلك

فما تلك الشجرة؟؟ لم تكن شجرة خلد، لأن إبليس هو من وصفها بذلك ليخدع آدم: { قَالَ يَتَكَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى }^(١).. ولأنه يخدعه، فلم يكن الوصف بصادق، وقد أكل آدمُ وزوجه من الشجرة التي زعم إبليس أنها شجرة الخلد، فما أصابا خلدًا، بل بدأت رحلة الفناء .

وكذلك لم تكن الشجرة شجرة معرفة، لأن المعرفة لا يترتب عليها شقاء، وكذلك لن تكون لتلك الشجرة دورٌ بعد ذلك، فبنو آدم ستكون الجنة كلها لهم دون استثناء، فلن يقول لهم ربهم: الجنة كلها لكم إلا هذه الشجرة! فالشجرة بخروج آدم من الجنة، انتهى دورها في الجنة هي الأخرى، أو قل خرجت مع خروجه . كيف خرجت، ألم يكن لها جذور؟؟ لا .. فهي شجرة بلا جذور، وبلا اسم، ولم يحدد لآدم اسمها، فقد ظلت تحمل اسم الشجرة . { وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ }^(٢). وانظر إلى اسم الإشارة (هذه) إنه لا يفيد القرب هنا، لأنه يطلب منها أن يظلا بعيدين عنها . ، لكن استعمل القرآن هذا التعبير مرتين : مرة قبل الدخول إلى الجنة، وأخرى بعدها . ثم لما جاء الشيطان أيضاً استعمل اسم الإشارة نفسه : { مَا نَهَيْكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ }^(٣). فقال (هذه الشجرة)، فاسم الإشارة هنا لا يفيد القرب ، لكنه يفيد الظهور ، فالشجرة ظاهرة واضحة للعيان ، سواء في نهي الله لهما عنها ، أو في كلام

١ سورة طه . الآية (٢٠) .

٢ سورة البقرة . الآية (٣٥). سورة الأعراف. الآية (١٩) .

٣ سورة الأعراف. الآية (٢٠) .

إبليس عنها ، أي أن القرب تحول إلى معنى الظهور ، فكل إشارة بهذه إلى الشجرة يفيد ظهورية الشجرة .

فاسم الإشارة (هذا، أو هذه) يشير إلى شيء ظاهر في الأساس . بخلاف (تلك أو ذلك) فهو يشير إلى شيء بعيد، ومن ثمّ خفي . ولذلك رأينا القرآن يستخدم للقريبة الحاضرة اسم الإشارة (هذا، هذه) : (هَذِهِ الْقَرْيَةُ) ، (هَذِهِ الْبَلَدَةُ) ، (هَذَا الْبَلَدُ) لكنه يعدل عنها إلى تلك مع القرى المهلكة { وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا }^(١).

فمتى استعمل اسم الإشارة (تلك) للإشارة إلى الشجرة، ولماذا؟ جاء ذلك بعد الأكل من الشجرة : { وَنَادَيْنَاهُمَا رُبُّهُمَا ألمَ أَنهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ }^(٢) .. مما يعني أنّها اختفت . ولن يكون لها بعد ذلك وجود .

لقد أدّت دورها، ولم يعد هناك حاجة إليها، وفي الآخرة لن يكون هناك اختباراً لأهل الجنة، فلذلك ستكون الجنة صافية لهم دون هذا الاستثناء . لقد وُجدت لمدة معينة لتؤدّي دوراً معيناً، ألم تكن هناك أرض رأّت الشمس مرةً واحدة لما ضرب موسى عليه السّلام العصا بيده، ثم رجعت ثانية تحت البحر، كذلك هذه الشجرة لم يأكل من ثمارها أحدٌ بعد آدم وزوجه، لأنّها شجرةٌ تؤدّي وظيفة الرمز، فهي منهجّ الشيطان، لن يقترب منها إلا من يزلّه الشيطان .

ويعيش آدم في الجنة بعد ذلك، ولا وجود لتلك الشجرة، فقد طرد إبليس الرجيم من الجنة والسماء .

فإذا نزل آدم إلى الأرض، وجاءت ذريته تملأ الأرض ، ستكون الشجرة موجودة بوجود إبليس ، تؤدّي وظيفتها الرمزية، لا يرونها، فإن أطاع أحدهم إبليس فلن يرجع إلى الجنة ، وكأن الله عزّ وجلّ : يقول لآدم كنت في الجنة .. فطلبت منك ألا تأكل من الشجرة أو بمعنى آخر لا تطع إبليس، فإن أطعته (وهو ما يساوي في الوقت نفسه الأكل من الشجرة) فهو الخروج من الجنة .

١ سورة الكهف . الآية (٥٩) .

٢ سورة الأعراف . الآية (٢٢) .

النهي عن الأكل أو الذوق من الشجرة، لكنه بالغ في التحذير، وبالغ في الأخذ بأيديهما بعيداً عن موارد الشبهات، وفي الحديث « وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ. فَكَانَ عَدَمُ الْاِقْتِصَارِ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْأَكْلِ وَالِاتِّسَاعِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْاِقْتِرَابِ سَدًّا لِلذَّرَائِعِ .

وما أولادك يا أبي آدم إلا أنت، القانونُ نفسه، كلُّ إنسانٍ منهم معه شجرته المحرمة، يمكنه ألا يقربها، فيأتي يوم القيامة، وقد فتحت الجنة له أبوابها، ويمكنه أن يأكل منها، فإذا مرَّ على النار التي تطلع على الأفئدة عرفت النارُ رائحةَ الشجرة، فجرته إليها . مهر الجنة اجتناب تلك الشجرة، وأقول تلك لأنها أصبحت خفيةً .



(٢٢)

الكافرون . الذين كفروا

الكفر ضد الإيمان لأن أصل الكفر هو الستر والتغطية ، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص ، ويسمي البحر كافراً لستره ما فيه ، والكفر تغطية للحق . وكفران النعمة جحودها وسترها ، والكافور : هو كم الثمرة لأنه يغطيها قبل أن تنور^(١) . وسميت الكَفَّاراتُ بذلك لأنها تستر الذنوبَ ، وكانت كنانة الرسول صلي الله عليه وسلم تسمى الكافور لأنها تستر السهام التي فيها ، وسمي وعاء كل شيء من النبات كافوراً ، وكذلك سمي القبر بالكفر ومنه قيل اللهم اغفر لأهل الكُفُور أي لأهل القبور ، وسميت القبري النائبة بالكفور لبعدهم عن الأمصار ومجتمع العلم وفي الحديث لا تسكن الكُفُورَ فإن ساكن الكُفُور كساكن القبور أي بمنزلة الموتى ، والكافر الليل المظلم لأنه يستر بظلمته كل شيء ، وكذلك السحاب المظلم يقال له أيضاً كافر ، والكفر الظلمة لأنها تستر ما تحتها ، والكفر : التراب لأنه يستر ما تحته ، فالكفر هو التغطية ، والكافر يغطي الكفر قلبه^(٢) .

وقد يقال لكن الكفر أيضاً ضد الشكر ، ونقول له لا تناقض ، فما الشكر إلا الإقرار بالحق ، وكل من يشهد أن الله هو الإله فقد شكره ، ولذلك وصف

١ انظر ابن فارس ، مقاييس اللغة ، وكذلك الراغب الأصفهاني ، المفردات ، مادة (كفر) .

٢ انظر ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (كفر) .

إبراهيم عليه السلام بأنه كان عبداً شكوراً لأنه لم يفعل مثل قومه في صرف العبادة لغير صاحبها فكل من يشهد للخالق بأنه واحد لا شريك له فهو شاكر .. فكل مؤمن شاكر .

ما الفرق بين كلمتي (الكافرون) ، (الذين كفروا) : الاسم الموصول يفيد الظرفية الزمنية ، فهو يعبر عن طبقة زمنية محددة ، وإن جمع عدة طبقات زمنية فهو يعبر عنها لكن كل مع مراعاة أن تكون كل طبقة وحدها ، بينما كلمة (الكافرون) تفيد المتصفين بالصفة على مدى العصور : وانظر إلى قوله تعالى في سورة الكهف : الذي جمع الكلمتين معاً :

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ (١٠٢) (الكهف) .

ورد في الآية تعبيران (الذين كفروا) ، (والكافرين) : واجتماعهما يعني المغايرة بينهما ، فالذين كفروا هو تعبير عصري يعبر عن كل عصر على حده ، فهو مناسب لطبقات الزمن ، أما الكافرون فهو تعبير عام يعبر عن كل من اتصف بالصفة على مر الأزمان ، دون مراعاة للطبقية الزمنية ، ولهذا كان استعمال الذين كفروا أولاً لأنه يعبر عن متخذين للعباد آلهة على مر العصور ، فجاء التعبير الطبقي ليناسب الذين اتخذوا عذير من اليهود في وقتهم ، ثم الذين اتخذوا المسيح وأمه في وقتهم ، ثم الذين اتخذوا الملائكة في وقتهم ، ويأتي الكافرون صالحة لجمع كل هؤلاء وغيرهم في جهنم دون ارتباط بطبقية العصور . أي كل طبقة زمنية عبت عبداً من عباد الله ، لكن كل الكافرين في جهنم . والتعبير عن الطبقة بالاسم الموصول ، والتعبير عن العموم بالاسم العام (للكافرين) .

وانظر هذه المغايرة :

[النساء]	{ ١٠١ }	لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا	كَانُوا	{ إِنَّ الْكَافِرِينَ }	1
[البقرة]	{ ١٦٨ }	لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا		{ إِنَّهُ }	2

مما سبق ترى أنهم لا يختلفون عن إبليس ، كلاهما عدو مبين ، ولا مغايرة سوى في زيادة (كانوا) مع الكافرين ، بينما لم نضع (كان) مع الشيطان في شأن عداوته للناس ، وذلك لأن الكافرين تشمل كل من اتصف بالكفر على مر الأزمان الماضي والحاضر والقادم ، وهؤلاء لا يجتمعون معاً في الدنيا ، فالقول يصلح بعد انتهاء الدنيا : إن الكافرين في كل الأزمنة كانوا لكم عدواً مبيناً ، لم يختلفوا في زمن عن زمن. وقد جمعت الآية تعبيرى الذين كفروا ، والكافرين معاً : { إِنَّ خِفْتُمْ أَنْ يَقْبَلِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا }^(١) فجمعت بين (الَّذِينَ كَفَرُوا) ، و(الْكَافِرِينَ) والمعنى إن خفتهم في عصركم أن يفتنكم الذين كفروا (تعبير خاص بعصر واحد) ، ثم عمم الحكم فلم يقل إن الذين كفروا كانوا لكم عدواً مبيناً ، بل قال : إن الذين كفروا كانوا لكم عدواً مبيناً ، أي يا أهل كل عصر احذروا من الذين كفروا في عصركم .. لأنهم لا يختلفون عن كافرين كل عصر .

وأقف على مقابلة تعبير له : {الَّذِينَ آمَنُوا} ، {الْكَافِرِينَ} :

- ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران) .
- ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَانْتِخَاذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ جَعَلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء) .
- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (محمد) .

إن مقابلة الاسم الموصول (الَّذِينَ آمَنُوا) بالاسم العام (الْكَافِرِينَ) والأول يفيد الظرف الزمني الذي فيه فحسب ، والثاني يعبر عن كل من يتصف بالكفر على مر

العصور .. هي مقابلة دقيقة ، لأن الله يخاطب الذين آمنوا ، فهو يخاطب المؤمنين جميعهم ، لكن كل عصر على حده ، ويتجدد الخطاب بالاستبدال الطبيعي ، فكل عصر توجد فيه مجموعة يطلق عليها الذين آمنوا ، فهو يخاطب مجموعة كل عصر ، وكل مجموعة منهم مأمورة بمهمة محددة ، فالمنطقي ألا يخاطب المؤمنين عموماً ، لأن خطاب المؤمنين جميعاً ، يشمل من مات وهذا لا يجوز ، ويشمل من لم يولد بعد ، وهذا لا يجوز أيضاً .

إذن يتضح أن التوضع متحقق في استعمال الاسم الظرفي (الذين آمنوا) لأن هذا التعبير برغم أنه يعبر عن فترته الزمنية فحسب ، إلا أنه مع الله عز وجل يمتد على مدى الزمن ، لأنه يكون كما الراكب في القطار : هو واحد ، وممتد ، لأنه لما ينزل ويركب غيره ، فكل واحد منهم على حده ، وهم معاً ممتدون على مدى الزمن ، فالدنيا كالقطار ، والذين آمنوا كالراكب ، فإذا انتهى عصرهم ، ركب راكب جديد (مجموعة أخرى) يطلق عليها أيضاً (الذين آمنوا) فإذا خاطب الله عز وجل الذين آمنوا ، فهو يخاطب الجميع ، لكنه يخاطب كل مجموعة على حدة ، فلما تأتي المجموعة الجديدة تسمع الأمر بتنفذه ، وهكذا كأن أمر الله تعليمات معلقة على القطار ، يطلع عليها الراكب ، ويطلع عليها من يأتي بعده لما يحل محله ، وهكذا يمكن أن نسمى تلك العملية : المنقطعة المتصلة .. الديمومة بالإحلال .

أما التعبير المقابل وهو استعمال الكافرين في مواجهة الذين آمنوا .. فالأمر موجه للذين آمنوا فلا يصلح بشكل عام كما قلنا ، بل يجب أن يكون للجميع : لكن على مراحل ، كل مرحلة على حده .. ويكون موقف كل جماعة متحداً نحو كل كافر في أي زمن ، حتى من سبق ، فعليه أن يتخذ موقف من سبقه تجاه هذا الكافر ، ولو ظهر في الزمن السابق يفعل نفس موقفه مع كافر الزمن السابق ، وكذلك يتخذ نفس الموقف مع الكافر القادم ، فهو موقف ديمومي من كل كافر ، فلا ينبغي الاقتصار على القول (الذين كفروا) لأن هذا موقف سرمدى من كل كافر ، ولو بالقلب .

وانظر قوله تعالى في الآية الأخرى :

• ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ (١١) ﴿ (محمد) .

فالله مولى الذين آمنوا ، أي مولى كل مجموعة منهم ، إلى أن تحضر الأخرى فيكون مولاها ، وهكذا ، لكن مع العدم يمكن أن تجمع المجموعات كلها في سلة واحدة .

والتعبير الثالث :

• ﴿وَلِيْمَحْصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفْرِينَ﴾ (١٤) ﴿ (آل عمران) .

الحديث عن وقعة أحد ، فهو تمحيص الذين آمنوا أي المجموعة المعاصرة للنبي صلى الله عليه وسلم التي شاركت في المعركة ، وعند التمحيص حتى لو سحبت المعنى ليكون على مدى الزمن فلا يناسبه إلا الذين آمنوا ، ليكون التمحيص لكل مجموعة زمنية على حده ، وتصنع المجموعات المترابطة التي تحل بعضها محل البعض ، الامتداد الشامل .. أما محق الكافرين لأن في هزيمة الذين كفروا هزيمة لكل من بعدهم .

وما أروع اجتماع التعبيرين في آية واحدة مثل قوله تعالى :

• ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّ خِفْتُمْ أَنْ يُفْنِتَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكُفْرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (١٠١) ﴿ (النساء) .

انظر إلى قوله (إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْنِتَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكُفْرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا) فعند الموقف الذي حدث في زمن محدد وهو خوف الفتنة ، فجاء ذلك في ظرف زمني فلم يقل : إذا خفتكم أن يفتنكم الكافرون ، بل قال (إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يُفْنِتَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا) ليكون هذا خطاب لكل مجموعة مؤمنة في زمنه إذا خافت من الذين كفروا في زمنهم . ثم لما انتقل إلى الحديث عن موقف الكافرين بشكل عام على مر الأزمان انتقل من التعبير (الَّذِينَ كَفَرُوا) إلى التعبير (إِنَّ الْكُفْرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا) .

في قوله تعالى (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّ خِفْتُمْ أَنْ يُفْنِتَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكُفْرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا) (١٠١) ، ورد تعبيرى الذين كفروا ، والكافرين معا .. فلماذا لم يستعمل الضمير (إنهم ..) ولماذا أراد إظهار الاسم وعدم استعمال الضمير لم يكرر الاسم المستعمل

(الذين كفروا) ..

الذين كفروا .. اسم زمني يعبر عن المعاصرين في زمن واحد، والكافرون : اسم عام يشمل المتصفين بهذه الصفة على مر العصور .. لذلك عند مخاطبة فئة مؤمنة في أي عصر .. فهي لن تخاف أن يهجمها عليها الكافرون من أزمان مختلفة ، بل ستخاف أن يفتنها كافرو عصرها ، وهنا لا يصلح إلا الذين كفروا لتعبر عن معاصر زمني ، وقد استعمل (الصلة ماضية) ليقدر أن الكفر محسوم .

وقد انتقل الله عز وجل في الحكم العام من الاسم الخاص للاسم العام الشامل لكل الأزمان أي في كل زمن هم عدو مبين للمسلمين .

استعمل اللفظ العام الذي يشمل كل من يتصف بالكلمة على مر العصور عند الانتساب : (وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ) .

وفي هذا الاستعمال يتحدث عن أناس محددة بقوله (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) ، (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) ، (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ، (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا) فهو يتحدث عن مجموعات تعيش في زمنها ، وقد تتصف بهذه الصفة في وقت ، وتتصف بالأخرى في وقت ، وقد يتصف بعضهم تلك الصفة وبعضهم الآخر الصفة الأخرى لكنهم جميعاً لهم موقف ثابت من الآخرة : ولو رفع أحدهم من زمنه ووضع في زمن آخر قبله أو بعده لكان له نفس الموقف ، لهذا جاء التعبير الذي يعبر عن سرمدية موقفهم :

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰفِرُونَ
وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمٰنِ هُمْ كٰفِرُونَ
بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كٰفِرُونَ

ويبقى التفرقة بين الكافرين والكفار والكفرة والكوافر .. فالكوافر هي خاصة بالنساء ، وقد اختار وزن فواعل وهو جمع لوزن فاعل غير العاقل تشبيهاً لمن بغير العاقل . (وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكٰوٰفِرِ) يأمر الله عز وجل الذين آمنوا (معاصري النبي) بأن يفارقوا النساء الكوافر . أما الفرق بين الكافرين والكفار

: يسمى المتصف بالكفر في حياته كافراً مادام يتصف بالكفر في حياته ، لأنه من المحتمل أن يتركه ، فإذا وصل إلى الآخرة كافراً فهذا هو الكفار وجمعه (كفار) . لفظة (كُفَّارٌ) تفيد من مات على الكفر ، ويتضح ذلك في قوله (وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ) . فهذه اللفظة تدل على أن الذين كفروا ماتوا على الكفر . وكذلك قوله (كَمَا يَسَّ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) . وفي المواضع الأخرى التي لم يذكر فيها موته على الكفر ، نجد الأمر بالجهاد والقتال مثل (جَاهِدِ الْكُفَّارَ) ، (فَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) ، فوصفهم بأنهم كفار منطقي لأنهم لو ماتوا في الحرب فلا فرصة للتوبة ، فهو موت على الكفر ومن ثم يصلح وصفهم بلفظة (كُفَّارٌ) .

ويتساوي مع ذلك وصفهم بالكفار يوم القيامة ، فهذا يعني أنهم بعد أن ماتوا هذا الاسم معهم مثل قوله تعالى (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) . وفي الآية السابقة تلاحظ أنه استخدم الذين آمنوا في مقابل الكفار ، ولم يقل المؤمنين ، ذلك لأن الموقف يوم القيامة ، ولفظة المؤمنين لفظة سلمية وكل درجة من درجات السلم مرحلة زمنية ، والكلمة تشمل كل ما في الدرجات المتتالية ، فلا حاجة لها الآن بعد أن أصبح الجميع في مكان واحد ، ولا يوجد سلم زمني . وقد تقول فلماذا لم يقل في مقابل ذلك (الذين كفروا) بدلاً من الكفار ، فذلك لأن مقابلتهم للذين آمنوا يعني أنهم ماتوا على الكفر واللفظة الدقيقة للتعبير عن الموت على الكفر هي الكفار . أما قوله تعالى : ﴿ وَدَكَّيْثٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (البقرة) .

فهذا يعني أن أهل الكتاب من شدة حسدهم يريدون أن يردوهم بعد الإيمان إلى الكفر ، لكنها ردة بلا عودة ، أو كفر بلا توبة فيموتون على الكفر ، ولهذا صلحت لفظة كفار . وفي هذه الآية تلاحظ أنه لم يقل المواضع الأخرى التي لم يذكر فيها موته على الكفر ، نجد الأمر بالجهاد والقتال مثل (جَاهِدِ الْكُفَّارَ) ، (فَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) ، فوصفهم بأنهم كفار منطقي لأنهم لو ماتوا في الحرب فلا فرصة للتوبة ، فهو موت على الكفر ومن ثم يصلح وصفهم بلفظة (كُفَّارٌ) . ويتساوي مع ذلك وصفهم بالكفار يوم القيامة ، فهذا يعني أنهم بعد أن ماتوا

هذا الاسم معهم مثل قوله تعالى (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) .

إن الفارق بين الكافرين والكفار هو الموت على الكفر ، وقد جاء التعبير : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ }^(١) { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ }^(٢) وقد حكم على من ماتوا وهم كفار : (فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) ، (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) ، (فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أُفْتَدِيَ بِهِ^٣ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

وقد نقول لكن الكفار لم ينفردوا بتعبير (وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ) فقد شاركهم فيه الكافرون فجاء في سورة التوراة : وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ . لكن هذا لا ينقض تعريفنا القائم على أن الكافرين هم من اتصفوا بالكفر وما زال لديهم الفرصة للتراجع عنه ، بينما الكفار ماتوا على الكفر .. أما قوله سورة التوبة بشأن الموت وهم كافرون فتوضحها تلك المغايرة :

وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ^(٢) : يتحدث عن مسلمين منافقين ، في قلوبهم مرض ، فهنا يقرر أن موتهم لم يكن على الإسلام الذي ادعوه تظاهراً .. فهنا هو يحكم عليهم وقت الموت بأنهم لم يكونوا على الإسلام الذي يعلنونه .

أما قول الرسول صلي الله عليه وسلم (يَتَأَيَّأُ الْكَافِرُونَ) فلم يقل (قل يا أيها الذين كفروا ، وإلا لاقتصرت على كافري عصره ، بل قال له : { قُلْ يَتَأَيَّأُ الْكَافِرُونَ }^(٤) . ليكون كلامه شاملاً لكل من اتصف بالكفر في كل العصور .

وثمة فارق بين أن يتكلم الله ، أو أن يأمر نبيه بالكلام : فلو تكلم الله لقال : يا أيها الذين كفروا . وتصبح صالحة لكل العصور ، لأن الله حي لا يموت ، ففي كل عصر سيسمعه أهل العصر . لكن لو قالها النبي فستكون موجهة لأهل عصره . لذلك إذا أرادها عامة لكل العصور يقول : يا أيها الكافرون . وهي تماثل

١ سورة البقرة . الآية (١٦١) . سورة آل عمران . الآية (٩١) .

٢ سورة محمد . الآية (٣٤) .

٣ سورة التوبة . الآية (١٢٥) .

٤ سورة الكافرون . الآية (١) .

قول الله عز وجل في سورة النور : قال عز وجل : { يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا }^(١) فلأنه نداء من الله عز وجل وهو حي لا يموت، فهي صالحة لكل العصور، في كل عصر يسمعه أهل هذا العصر، فهي شاملة للزمن لكن متعاقبة بتعاقبه، أي تشمل كل العصور، لكل كل عصر على حده . لكن لو قالها الرسول صلي الله عليه وسلم لشمكت أهل عصره من صحابته . ولذلك لما في السورة نفسها أراد الله عز وجل من رسوله أن يوجه أمراً (غص البصر، وحفظ الفرج) لأتباعه على كل العصور، لم يقل له : قل يا أيها الذين آمنوا، التي يستعملها الله عز وجل، بل انصرف عنها، وقال له : { قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ }^(٢) ذلك لأنه لو قال له قل يا أيها الذين آمنوا لاقتصرت على أهل عصره فحسب لكن قوله (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ) أي اترك وصية لكل من يتصف بالإيمان في كل العصور، فكل من يأتي بعد ذلك يحمل صفة الإيمان يكون ملزماً بتنفيذ وصيتك التي تركتها .

فهي موجهة لكل مؤمن في كل عصره ، فلما طلب من النبي أن يأمرهم بغض البصر ، انصرف عن لفظ (يا أيها الذين آمنوا التي كان يستخدمها الله) إلى لفظ (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ) لأن الرسول لو قال : يا أيها الذين آمنوا ، لكان يقولها لأهل عصره . لذلك قال له قل للمؤمنين ، أي قلها ، وكل من يرى نفسه مؤمناً في أي عصر يكون قد تلقاها منك .

● قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ (النور) .

وقد تقول : لا يصلح الرسول أن يقول : يا أيها الذين كفروا حتى لا يقتصر أمره على الذين كفروا في عصره ، لكن كيف يخاطب الرسول العصور التي لن يعيش فيها ، ونقول لك : إنها صرخة أطلقها النبي على جدار الزمن ، فيأتي كل عصر فيقرأها ، وأنتم تعلمون أن إرسال الرسالة صالحة وإن لم يكن صاحبها موجوداً .

١ سورة النور الآية (٢٧) .

٢ سورة النور الآية (٣٠) .

فالاسم الموصول يعبر عن أهل عصر فحسب، فهم مستحضرون لمن يناديهم، فلو قال الرسول صلي الله عليه وسلم: (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا) فهو يقصد صحابته الذين عاصروه. أما لو قالها الله عز وجل وهي الذي خلق الزمن، فهي تدل على أهل كل عصر، لكن كل على حده، بمعنى أن النداء يطلق من الله فيوافق أهل عصره، فإذا رحلوا وجاء أهل عصر آخرين، فالنداء يوافقهم وهكذا، فإذا صدر النداء من الله عز وجل للذين آمنوا فهو يقصد كل من اتصف بالإيمان، لكن ليس في لحظة واحدة، بل تعبر عن أهل كل عصر في تعاقباتهم عصراً عصراً.

وهكذا يمكن أن نقف على التفريق الآتي:

الذين كفروا : وهم الذوات اللاتى يتصفن بالحدث في الزمن الواحد .

الكافرون : من جحد الحقيقة الإيمانية ، وما زال لديه الفرصة للتراجع عن الكفر

الكفار : من مات على الكفر ، أى عاش حياته كلها كافراً ومات على الكفر .

الكفرة : فئة خاصة من الكافرين مثلما النسوة فئة خاصة من النساء ، والقردة فئة

خاصة من القرود .

(الْكُفْرَةُ) جمع كافر ، وجاءت مرة واحدة في وصف الوجوه قبل الحساب ، فالوجوه السوداء هي المقطوع بهلاكها ، فالقرآن يختار للفئة المخصوصة وزناً مخصوصاً وهو وزن (الكفرة) فالكفرة هم رءوس الكفر في كل زمان ، مثل شقى الناقة ، ومثل فرعون ، ونمرود ، وأبي جهل ، وغيرهم . الكفار هم من ماتوا على الكفر ، والكفرة هم رءوس الكفر ، والذين كفروا : هم كافرو زمانهم ، والكوافر : هي النساء الكافرة .



(٢٣)

جميعاً . أجمعين

أصل الكلمة : يدل على تَضَامُّ الشَّيْءِ وَالْجُمَاعِ الْأَشَابَةِ مِنْ قِبَائِلَ شَتَّى .
ويقال للمرأة إذا ماتت وفي بطنها وُلْدٌ: ماتت بِجَمْعٍ . وَجَمَعَ: مَكَّةَ ، سَمِّيَ
لاجتماع النَّاسِ بِهِ وكذلك يوم الجمعة . ويقال فَلَاةٌ مُجَمَّعَةٌ: يجتمع الناس
فيها ولا يتفرَّقون خَوْفَ الضَّلَالِ . والجوامع: الأغلال . والجَمَعَاءُ من البهائم:
التي لم يذهب من بدنها شَيْءٌ (١) .

لماذا أثر أجمعين على جميعاً ؟ أو ما الفرق بينهما ؟

يتشابه اللفظان: أجمعين ، وجميعاً : وكلاهما حال ، ويفيد استيعاب
جميع أفراد المعداد ، أو مكونات المحجوم . لكن الفرق بينهما الذي يحسم
اختيار أحدهما دون الآخر هو التزامن ، فإن كان هناك غرق لقوم: وغرقوا
كلهم في الوقت نفسه فإن الكلمة الصالحة للتعبير عن ذلك هي (جميعاً) ،
وإن كانت الغرق لهم كلهم لكن على مراحل فالكلمة الصالحة لتلك التطبيقية
الزمنية هي (أجمعين) . وهذا يعني أن تنجية آل لوط ستتم على مراحل ،
بدليل قوله تعالى في سورة أخرى لوط عليه السلام : واتبع أدبارهم ..

١ انظر مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة جمع .

كلاهما يدل على الشمول .. فمتى نستخدم أحدهما دون الأخرى ؟

□ أَجْمَعِينَ

لفظة (أَجْمَعِينَ) تعنى شمول الجمع لكن في أزمان مختلفة ، وليس في وقت واحد ، لذلك لم يضع القرآن لفظة (أَجْمَعِينَ) بعد قوله { مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } : لأنها استعاذة من الثقلين معاً ، ولفظة أجمعين تفيد الجميع لكن ليس في زمن واحد ، لهذا لم تصلح أن يضعها في الموضع الذي يقصد فيه الاثنين معاً في نفس الزمان . في حين ذكرها في قوله تعالى : { مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } : لأن دخول جهنم لن يتم في لحظة واحدة ، ولكن في تعاقب . لهذا صلت لفظة أجمعين . وكذلك صلت في { إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ }^(٤٠) : لأنه يتحدث عن إنكارهم للبعث ، فيحدد أنه سيشهد حضور الجميع مع اختلاف أزمانهم .

جاءت أجمعين ثلاث مرات في تنجية آل لوط ، منها اثنتان عند وصف امرأة لوط بالعجوز (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ)^(١) ومغايرة امرأته إلى عجوز ، يفيد انفصام العلاقة بينهما ، نعم كانت وهي معه العلاقة غير سوية بدليل العدول عن استعمال لفظ (زوج) واستعمال امرأة ، لكانت برغم أن العلاقة غير سوية ، ففيه علاقة ، وهي على ذمته ، لكن بإنجاء لوط وآله دونها ، حدث الانفصام بينهما ، وهذا يدل أنها لما هلكت لم تكن امرأة النبي الكريم . فماتت مطلقة منه بأمر ربه عز وجل .

وهذا يعني أن التنجية هنا للوط وأهله كلهم لأن امرأته لم تعد منهم ، فصلح التوكيد بأحد التوكيدين (جميعاً) ، (أجمعين) .. لكن لا بد من أحدهما مع فسخ العلاقة بين لوط وامرأته التي لم تعد امرأته ، وتم التعبير عنها بصفتها المستقلة المنقطعة عنه .

١ سورة الشعراء ، الآية (١٧١) ، سورة الصافات ، الآية (١٣٥) .

والمرة الثالثة التي جاء فيها التوكيد كانت هنا في سورة الحجر ، واستخدم فيها امرأته إلا أن العلاقة مازالت موجودة ، وخاصة أن الكلام على لسان الملائكة لإبراهيم عليه السلام ، وهي كانت امرأته حتى هذه اللحظة ، لأنها لن تنفسخ علاقته به إلا لما يذهبوا إليه . فما سبب وجود التوكيد بأجمعين هذه المرة ؟ وهو سؤال مباح : إذا كنت تعلق لوجود أجمعين بانفساخ العلاقة بين لوط وامرأته ، ومن ثم فهي ليست من أهله ، إذن تم تنجية كل الأهل ، فماذا عن سورة الحجر التي استعملت فيها امرأته ولم يستعمل العجوز دلالة على أنها مازالت امرأته ، فلماذا استخدم أجمعين هذه المرة ؟

والحقيقة أن التوكيد مبرر هذه المرة مثل المرتين السابقتين ، فكما استعملها لما لم تصبح من أهلها في مرتين ، وعدل عن استعمالها في أربع مرات لما كانت امرأته ، فلا يجوز أن تقول أجمعين وهي التي من أهله لم تكن من الناجين ، لذلك حجب أجمعين في المرات الأربع التي ذكرت فيها تعبير امرأته .. وبقي تلك المرة في سورة الحجر التي كانت امرأته ، ومع ذلك ذكر أجمعين .

والحقيقة أنه كان لا بد أن يستعملها كما استعملها مع لفظ العجوز ، وذلك لأنها لما كانت عجوز فقد خرجت عن دائرة لوط فلم تعد من أهله ، وإذن نجا جميع أهل لوط ، فصلحت أجمعين مع خروجها عن دائرة أهل لوط .

أما سورة الحجر ، فلم يستعمل لفظ الأهل ، وإلا لوجب حجب أجمعين ، لأنها يقيناً من أهله ولم يحدث الانفصام بعد بدليل (امرأته) لكنه استعمل الآل ، والمرأة ليست من دائرة آل الرجل ، لذلك وهي على ذمته ليست من آله ، ولما يتم تنجية الجميع دونها ، فقد تم تنجية كل الآل . وهكذا صلح استعمال أجمعين هنا أيضاً .

وهكذا ترى أن أجمعين جاءت ثلاث مرات ، مرتين وهي عجوز ، فخرجت عن أهل لوط . فالتنجية وهي خارج دائرة الأهل تكون للجميع (وهي ليست معهم) .

أما عند الحديث عن الآل فهي من البداية خارج الآل حتى وهي على ذمة زوجها ، فالتنجية وهي خارج دائرة الآل أيضاً تكون للجميع وهي ليست معهم .

أما المرات الأربع الأخرى فقد ذكر كلمة الأهل : وهي إن كانت على ذمته فيه من أهله ، وإن لم تكن على ذمته فهي ليست من أهله ، فلما استعمل كلمة (امرأته) منسوبة إليه فهي على ذمته ، وإذن فهي من أهله ، فلا يجوز أن تقول أجمعين لأن أجمعين تخلو من الاستثناء ، فهي من الأهل ولم تصحبهم في التنجية ، فإذن تم تنجية أهل لوط ، لكن ليسوا أجمعين ، لهذا لم يثبتها أبداً في المرات التي كانت فيها تلك المرأة على ذمته ، أي من أهله ، فعدم تنجيتها معهم يفيد أن التنجية لم تكن للجميع .

والدليل على أن آل فرعون لا تشمل الزوجة استعمالها مع آل فرعون ، والمعلوم أن ما حاق بآل فرعون لم يلحق امرأته ، وقد استعمالها القرآن ومازالت امرأة فرعون على ذمته لأنه استعمالها وآل فرعون يلتقطون موسى عليه السلام من اليم ، { فَأَلْقَطَهُ ءَأَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا }^(١) ، والمعلوم أن امرأة فرعون كانت موجودة ، فلو كان كلمة آل تنطبق عليها وهي زوجته لكان معنى هذا أن موسى سيصير عدواً لها وحزناً كما كان لزوجها وهذا لم يحدث ، فدل أنها ليست من آل فرعون . وقد تكرر استعمال آل فرعون في القرآن كثيراً حتى وصل إلى أربع عشرة مرة في ثلاث عشرة آية ، تكشف جبروت هذا الآل والتنجية منهم وعقابهم ، فهي خارج كل هذا لأنها

١ سورة القصص . الآية (٨) .

خارج الآل ، وقد حاق بآل فرعون العذاب ، وهي ممن ضرب الله بها المثل للذين آمنوا ، وكذلك {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} ^(١) وهي التي لها بيت في الجنة كما في سورة التحريم .

إذن الآل لا يشمل الزوجة ، وبرغم أن هذا الدليل كاف ، إلا أن كل القرآن يعضد بعضه بعضاً فقد قال في سورة البقرة عن تابوت بني إسرائيل : {وَمِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ} ^(٢) وما كان التابوت ليحتفظ بأشياء لنساء الأنبياء ، وكذلك لما قال زكريا : {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} ^(٣) فهو يريد ولياً يرث النبوة ، فما كان آل لتشمل النساء .

وهذا كلام الله لسليمان عليه السلام بعد موت أبيه : {أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا} ^(٤) فدل أن الولد من الآل . وقال يعقوب عليه السلام لابنه يوسف : {وَيَسِّرْ لِي عُيُوبَهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ} ^(٥) فدل أن الولد من الآل . وقال يعقوب عليه السلام لابنه يوسف :

ولاشك أن هذا التعريف لكلمة آل وأنها لا تشمل الزوجة ، يقرر أن استعمالها مع آل لوط يعني أن الملائكة لما وصلوا إلى لوط لم تكن المرأة هناك لأن الله قال : {فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ} ^(١) وهي ليست من الآل ، إذن المرسلون ذهبوا وهي ليست موجودة .

كذلك لما قوم لوط قالوا : {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهُرُونَ}

١ سورة غافر . الآية (٤٦) .

٢ سورة البقرة . الآية (٢٤٨) .

٣ سورة مريم . الآية (٦) .

٤ سورة سبأ . الآية (١٣) .

٥ سورة يوسف . الآية (٦) .

٦ سورة الحجر . الآية (٥٩) .

{^(١) نستفيد من ذلك أمرين : أنهم كانوا يريدون استبقاء امرأته ، وعدم خروجها مع آل لوط ، وتحقق لهم ما يريدون فقد أبقاها الله معهم ولم يخرجها لما أخرج هو آل لوط . والأمر الثاني أنها كانت لا تلتزم بما يقوم بها آل زوجها من تطهر .

وكذلك لما قال : { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ }^(٢) لم يقل إلا امرأته ، لأنه ليست من آله . ولذلك لم تأت آل عند التنجية مع لوط إلا مرتين ، مرة لم يذكر إلا امرأته لأنها ليست من آله حتى يستثنيها ، والثانية لما ذكر الاستثناء ذكر أجمعين لأنها ليست استثناء من الآل فلذلك يصلح الشمول برغم استبعادها .

● قانون التفريق :

يفرق القرآن الكريم بين (أَجْمَعِينَ) ، و (جَمِيعًا) أجمعين تقال إذا كان الأمر يشملهم جميعاً لكن ليس في نفس الوقت . فلو شملهم كلهم في وقت واحد يستخدم (جميعاً) ، ولو شملهم كلهم لكن في تعاقب زمني يستخدم (أجمعين) . ومن تبعه قد غرقوا كلهم في توقيت واحد فاللفظة المناسبة (جميعاً) .

فعندما تحدث القرآن عن إغراق قوم نوح استعمل (أجمعين) لأنهم لم يغرقوا في لحظة واحدة ، وقد كان بعضهم يصعد إلى الجبال فيتأخر غرقه عن البعض الآخر :

● ﴿ وَصَرَّفْنَا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوْءٌ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنبياء) .

أما قوم فرعون فقد عبّر عن غرقهم مرتين مرة بلفظة أجمعين ، والأخرى

١ سورة النمل . الآية (٥٦) .

٢ سورة القمر . الآية (٣٤) .

بلفظة جميعاً : فاستعمل أجمعين عندما تحدث عنهم كلهم دون تفرقة ، وذلك لأن الإغراق تم على دفتين : إغراق لفرعون وحده ، وإغراق لمن تبعه ، فعند جمع الكل في المرحتين فاللفظة المناسبة هي اجمعين التي تشير إلى عدم التزامن .

● ﴿ فَلَمَّا أَسْفُونَا أَنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٥٥) (الزخرف) .

لاحظ التعبير عن المفعول بضمير واحد (فَأَغْرَقْنَاهُمْ) .

□ جميعاً :

عندما عبّر عن فرعون وحده ، وعن القوم وحدهم وصف القوم بكلمة جميعاً لأن غرقهم تم في لحظة واحد فاللفظة المناسبة للتعبير عن القوم وحدهم لأن غرقهم كان متزامناً هي لفظة (جميعاً) التي تفيد الشمول التزامني :

● ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِظَ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ (١٠٣) (الإسراء) .

لاحظ أنه أخبر عن إغراق فرعون بقوله (فأغرقناه) مما يعني أن الإغراق خاص به دون سواه ، ثم جاءت كلمة (جميعاً) لتصف من غرقوا من قومه دونه فوصفهم بكلمة جميعاً ، فالحال في كلمة جميعاً لا يصف سوى (ومن معه) . وهكذا يعلمنا القرآن الفرق بين كلمة جميعاً وكلمة أجمعين ، فالأولى تصف الجميع في الوقت نفسه ، والثانية تصف الجميع في تفاوت زمني .

□ أجمعين : جمع للتعبير عن الكل غير متزامنين .

□ جميعاً : جمع للتعبير عن الكل متزامنين .

● { فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا } [المائدة] (٣٣)
● { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [البقرة] (١١١)

[المائدة]

{ ٣٣ }

جَمِيعًا

{ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ }

1

مغايرة :

[البقرة]

{ ١١١ }

أَجْمَعِينَ

{ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ }

2

الصورة الأولى ① : { فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا }^(١) : لفظة جميعاً تعني الشمول في الوقت نفسه ، فكأن من يقتل نفساً واحدة ، كأنها قتل في هذه اللحظة كل النفوس سواها ، ومن أحيائها كأنه أحيى كل النفوس في هذه اللحظة . والأمر نفسه جاء في سورة الرعد (لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا) فمعناها لو يشاء الله ، لهدى الجميع في لحظة واحدة ، كلهم سواها ، وليسوا متعاقبين . ومثلها { بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا }^(٢) ، { أَلَمْ يَأْتِصِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا }^(٣)

الصورة الثانية ② : { أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }^(٤) : عليهم لعنة الله ولعنة الملائكة ، فماذا عن الناس ، إن الناس متعاقبة ، منها ما هو موجود الآن ومنها ما سيولد فيما بعد ، فلو قال الناس جميعاً لكان المعنى عليهم لعنة الله والملائكة وكل الناس والناس كلها ليست موجودة ، لهذا قال أجمعين ، أي شمول الناس في تعاقبهم ، يلعنهم جيل بعد جيل .

ومثلها { أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }^(٥) ، { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانَنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }^(٦) ، { وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }^(٧)

١ سورة المائدة : { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ }^(٣٢) .

٢ سورة الرعد . الآية (٣١) .

٣ سورة الرعد . الآية (٣) .

٤ سورة البقرة : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }^(٣١) .

٥ سورة آل عمران . الآية (٨٧) .

٦ سورة هود . الآية (١١٩) .

٧ سورة السجدة . الآية (١٣) .

٠ { فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ } (١)

العبارة على لسان هود عليه السلام لقومه ، وقد استخدم الفاء في مطالبته لهم بالكيد لأنه لا يحفل بهم ، وكان عدم الإمهال لأنهم قالوا له إن بعض آلهتهم قد آذته ، فرد عليهم مطالباً إياهم بسرعة الكيد ، وكشف أنه لا يخافهم جميعاً . واستخدم بعد ذلك (ثم) لا تنظرون : فأعطى لهم المهلة للكيد وأنهم لو أخذوا كل الزمن فلن يستطيعوا أن يفعلوا معه شيئاً .

وزاد كلمة جميعاً لأنه واثق من عجزهم لثقتة في الله . وكلمة جميعاً تعنى الكل في الوقت نفسه ، فكانت الكلمة مناسبة لقولهم (بعض آلهتنا) ، فإن كانت بعض آلهتهم آذته ، فقد اقتضى الرد عليهم بالقول بأنهم مجتمعين لا يقدرين عليه .



١ سورة هود: { مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ } .

(٢٤)

لا الطلبية

لا الناهية التي تسبق المضارع المأمور هي أداة جزم ، وهي قولك : لا تهمل
 . وقد جاءت لا الطلبية (الناهية) وجاء بعدها المضارع غير مجزوم ، ليقنن
 القرآن الكريم قانوناً جديداً:

● ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ
 وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) (البقرة) .

(٧) في قوله (لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ) ليست ناهية بل نافية
 ، لأن (لا) الطلبية هي الناهية التي تجزم الفعل ، أما (لا) الخبرية فهي نافية
 لا تؤثر على الفعل ، فإذا نهيت زيداً عن فعل شيء فنحن أمام لا الناهية ،
 أما إذا أخبرتنا بما قلته له فليست ناهية لأنك لا تنهانا ، بل تخبرنا بما
 نهيت عنه زيداً . فلو قلت لزيد هذا : لا تحزن . (نهى) فإذا قلت له بعد ذلك
 :أتذكر إذ قلت لك لا تحزن . تتحول العبارة من طلبية إلى خبرية . وتصبح
 لا نافية وليست ناهية . وعلى هذا يمكنك قياس التعبير القرآني (لَا تَسْفِكُونَ
 دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ) : فهو لا يأمر بني إسرائيل الآن ، بل أمرهم قبلاً
 فقال لهم : لا تسفكوا دماءكم ، لا تخرجوا أنفسكم من دياركم . لا ناهية

والفعل مجزوم . وقد أقر بنو إسرائيل بالطاعة والتنفيذ .

ثم جاء الله يذكرهم بهذا الميثاق : فقال لهم أتذكرون يوم أخذنا ميثاقكم وفحواه : لا تسفكون دماءكم ، لا تخرجون أنفسكم من دياركم .. فهو هنا يخبرنا بما أمرهم به بالأمس ، فهذا الكلام نهي لهم عندما قيل لهم ، لكنه الآن نفي لأنه يخبرنا (أو يخبرهم) بما قيل لهم . والأمر نفسه نجده في قوله تعالى في الآية القرآنية :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۗ (البقرة) ﴾

فقوله لَا تَعْبُدُونَ :

(لا) هنا ليست ناهية ، لكنها نافية لأنه يخبرنا اليوم بما نهاهم عنه بالأمس . وأيضاً نجده في قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ أَمْلَقَ مَعَنُ رِزْقِكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَنَّمُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۗ (الأنعام) ﴾

ولا يصلح أن نقول أن (ولاً) للنهي ، كما قال الزمخشري؛ لأن الله لا ينهاي المسلمين مباشرة ، بل يخبرهم النبي بما حرم الله عليهم انتهاكه . وعند الإخبار : لا يجوز أن تكون (لا) ناهية ،

وثمة شبهة أخرى قيلت في الآية السابقة أن (لا) يجب ألا تأتي ، لكنها لو حذفت ، لم تصلح الإشارة في قوله ذَٰلِكُمْ وَصَنَّمُ بِهِ ، فلو حذفت (لا) ، لكان قولنا : أن تشركوا به .. ذلكم وصاكم به . وهو لا يستقيم ، فيجب أن توجد (لا) لتصلح الإشارة إليه . أما قولهم أن لفظة (حَرَّمَ) تستوجب الإثبات ، حتى لا يكون أنه حرم عليهم عدم الإشراف .

فالرد : أن كل ما شملته الإشارة يمكن أن تسد عنه بالإشارة ، فلو حذفنا الكلام وأبقينا الإشارة لقلنا : ذلكم وصاكم به ربكم .. وقد حرم عليكم أن تخرجوا عما وصاكم به . فالتقدير : تعالوا أتْل ما حرم عليكم ما حرم ربكم عليكم ،

قد حرّم عليكم أن تخرجوا عما وصاكم به ، وما وصاكم به هو :

أن لا تشركوا به ،

أن تحسنوا بالوالدين إحسانا .

وأن لا تقتلوا أولادكم

وأن لا تقربوا الفواحش

وأن لا تقتلوا النفس التي حرم الله .

كلها مصادر مؤولة ، في محل رفع مبتدأ ، والخبر الجملة الاسمية ذَلِكُمُ
بِهٖ وَصَّكُمْ هناك فارق بين الحديث إلى الناس بالأمر ، وإخبار غيرهم
بتلك الأوامر (أو تذكيرهم بها فيما بعد) ، فعندما تأمر أناساً بشيء سيكون
الأمر هكذا : لا تعبدوا إلا الله .

فإذا جاء الحديث عن هذا الأمر ، نقول طلبنا منكم : لا تعبدون إلا الله
 . فالفارق بين النهي المباشر ، وحكاية هذا النهي ، أن النهي المباشر (جوم)
 بلا الناهية ، وأن الحكي عن النهي رفع مع لا . قيفاندا



(٢٥)

المتوكلون

التوكل هو تفويض أمورك إلى الله ، وقد أدخل عليها ال الكمال : أي المتوكلون كما يجب أن يكون التوكل . ، وفي هذا تنديد بالمشركين : عندما يبين لهم أن محمداً صلَّ الله عليه وسلم يعتمد على ربه ، بينما يعتمدون هم على أصنام لا تضر ولا تنفع .

ويأتي التوكل بتقدم لفظ الجلالة على الفعل للقصر ، فلا توكل إلا على الله . وجاء الاختلاف في المأمور ، فالمأمور بالتوكل على الله هم المؤمنون ، وقد جاءت التعبير مقتصرًا على المؤمنين في كل القرآن إلا مرة واحدة حدث الاختلاف ، فجاءت المتوكلون بدلاً من المؤمنين .

وأقف على تعبيرين قرآنيين :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [١٢٢] ﴿ آل عمران ﴾

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [١٢٢] ﴿ إبراهيم ﴾

اختلاف الفاعل ، في الصورة الأولى { الْمُتَوَكِّلُونَ } ، { الْمُؤْمِنُونَ } في

الصورة الثانية . وانظر إلى هذه المغايرة التي تكشف سر العدول عن المؤمنين إلى المتوكلين :

① } وَعَلَيْهِ } فليَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ { ١٧ } [يوسف]

② } وَعَلَى اللَّهِ } فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ { ١١ } [إبراهيم]

الصورة الأولى ① : { فليَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ }^(١) : الله يطلب التوكل من المؤمنين ، فإذا توكلا أصبحوا متوكلين ، ويمكنهم أن يقولوا { وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } فهذا التعبير لا يقال إلا بعد أن يقوموا بالتوكل فعلاً .

الصورة الثانية ② { فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }^(٢) : الأمر الأساسي أن يطلب الله التوكل عليه من المؤمنين .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ { ١٢٢ } [آل عمران]

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ { ١٦٠ } [آل عمران]

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ { ١١ } [المائدة]

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ { ٥١ } [التوبة]

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ { ١١ } [إبراهيم]

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ { ١٠ } [المجادلة]

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ { ١٣ } [التغابن]

فعند صدور الأمر من الله عز وجل بالتوكل لا يمكن أن يوجه هذا الأمر للمتوكلين ، لأنهم لم يصدر لهم الأمر بعد حتى ينفذوه ، ولذلك عند توجيه الأمر بالتوكل ، يتوجه إلى من يطيع أوامره وهم المؤمنون . فصيغة {

١ سورة يوسف : { وَقَالَ بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابَ وَحِيدٍ وَادْخُلُوا مِنِّي أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنْ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن سَمَاءٍ وَرَأَيْتُمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُحْصَىٰ } .

٢ سورة إبراهيم : { وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فليَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } .

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ { لأن التوكل خليق بهم ، ومادام كل ذلك فيجب أن يقصروا التوكل على الله ، فإذا استجاب المؤمن ونفذ الأمر أصبح متوكلاً .

وقد جاءت الآية الوحيدة التي حدثت فيها المغايرة في سورة إبراهيم على لسان من استجاب وأصبح متوكلاً بالفعل ، فحدثت المغايرة . فسر المغايرة هو اختلاف الأمر ، فإذا أمر الله ، فهم لم يستجيبوا بعد للأمر ، لأنهم سيستجيبون للأمر بعد صدوره ، فهم مؤمنون ، لم يقوموا بعد بالفعل ، فإذا صدر الأمر وأطاع المأمور فقد أصبح متصفاً بالفعل ، وأصبح يستحق أن يقال عليه (متوكلاً) . ولعل سورة إبراهيم أوضح السور في توضيح تلك المغايرة لأنها شملت المعنيين :

فقد جاء الأمر من الله في الآية الحادية عشرة :

١. { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } (١١)

٢. في الآية التالية جاءت الاستجابة السريعة من المؤمنين : { وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا } .

٣. وبعد أن استجابوا وأعلنوا استجابتهم : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ (١) أصبحوا متوكلين فعلا ، فهنا عدل القرآن الكريم عن قوله (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) إلى (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) فقال على لسانهم : { وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ } ؛ لأنهم أصبحوا متوكلين فعلا .

فسر المغايرة هو اختلاف القائل ، وموقف المأمور من الفعل : فعندما صدر الأمر من الله فهم لم يفعلوه بعد ، فقال (المؤمنون) ولا يجوز أن يصفهم بالمتوكلين قبل فعلهم للتوكل ، لكن عند تلبسهم بالفعل فهم متوكلون ، وهنا يعدل إليها : وهكذا فالأمر بالتوكل يكون للمؤمنين ، فإذا توكلوا فعلاً جاز أن

يقولوا فليتوكل المتوكلون .

والأمر نفسه تكرر في آية أخرى في سورة يوسف : ، وأيضاً لم يصدر عن الله ، بل صدر ممن توكل فعلاً ، وهو يعقوب عليه السلام ،

١. أعلن توكله أولاً : عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ^(١)

١. وبعد أن أصبح متوكلاً ، أي من جنس المتوكلين ، قال : وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .

وهكذا لم تأت لفظة المتوكلين إلا على لسان المتوكلين فعلاً ، بينما ظلت لفظة المؤمنين في أمر الله عز وجل لهم .

وهكذا تكتشف أن العدول عن لفظة المؤمنين إلى لفظة المتوكلين في الأمر بالتوكل ، لا يأتي ذلك من الله عز وجل ، بل لابد أن يكون ذلك على لسان من يستجيب للأمر الإلهي ويتوكل ، وقد رأينا ذلك في مثالي سورة إبراهيم ويوسف ، أما ما جاء في سورة الزمر ، فهو من جنس السورتين : فالقائل هو محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول حسبي الله ، وهو تعني أنه قد استجاب لأمر التوكل ، ومادام قد أصبح المؤمن متوكلاً ، فاللفظة المناسبة هي : (فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) . فسر المغايرة هو اختلاف القائل ، وموقف المأمور من الفعل : فعندما صدر الأمر من الله فهم لم يفعلوه بعد ، فقال (الْمُؤْمِنُونَ) ولا يجوز أن يصفهم بالمتوكلين وهم لم يفعلوا التوكل بعد . وبعد استجابة المؤمنين للأمر وتوكلهم على الله أصبحوا متوكلين ، فجاءت لفظة (الْمُتَوَكِّلُونَ) على لسانهم بعد أن قاموا بالفعل واستجابوا للأمر .



(٢٦)

أناس ، أناسي

أصل الكلمة من التذبذب ، وسمي أبو نؤاس لذؤابتين له كانتا تتوسان . وهو ظهور الشيء ، وكلُّ شيءٍ خالفَ طريقةَ التوحُّش . قالوا : الإنس خلاف الجنِّ ، وسمُّوا لظهورهم . يقال أنستُ الشيء إذا رأيتَه (١) .

وأصل كلمة الناس كما يقول الراجب الأصفهاني في مفردات : أناس ، فحذف فاؤه لما أدخل عليه الألف واللام ، وقيل : قلب من نسي ، وأصله إنسيان على إفعال (٢) .

ويرى ابن منظور أن الألف واللام في الناس ليست عوضاً من الهمزة المحذوفة لأنه لو كان كذلك لما اجتمع مع المعوض منه في قول الشاعر إن المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا ، وقال أيضا إن الأنس خلاف الوحشة . جارية أنسة إذا كانت طيبة النفس ، وكذلك من الإبصار : أنسته أي أبصرته وقيل للإنس إنس لأنهم يؤنسون أي يبصرون كما قيل للجن جن لأنهم لا يبصرون (٣) .

١ ابن فارس ، المقاييس ، مادة (نوس) .

٢ الراجب الأصفهاني ، المفردات ، مادة (نوس) .

٣ ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (نوس) .

وواضح أن الملمح الرابط بين الاستعمالات هو الظهور الذي يترتب عليه الألفة ، وهو الصالح للمقابلة مع الجن التي لا فارق بينم وبين الإنس إلا الظهور والخفاء .

وعائلة الكلمة : الأنس ، والناس ، والأناس ، والأناسي : فالأولى خاصة بالمقابلة مع الجن ، فإن لم يكن للجن حضور مقابل فهم الناس مهما كان عددهم في زمانهم .

فإن قصد كل من اتصف بالصفة في كل الأزمان معاً فالجمع المناسب أناسي : ولهذا لما أنزل الله الماء الأول من السماء كان هذا الماء لكل الأجيال الزمنية جيلاً بعد جيل فلذلك استعمل الجمع الجامع لكل الناس في كل الأزمان فقال : { لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا }^(١) . أما كلمة أناس فهي تطلق القسم الخاص من الناس دون غيره ، وأشبه الأمثلة لها : هو صفوف المدرسة ، ففي الطابور يقف فصل ثالثة أول ، وثالثة ثان ، وهكذا ، فكل فصل منها أناس . وكذلك في المطار لو قيل كل جنسية تتجمع وحدها ، فكل منها أناس ، وهكذا ، وهنا جاءت أناس لا يصلح أن يحل محلها أي كلمة من أخواتها لأنها تعبر عن أسباط بني إسرائيل ، فكل سبط لما يكون وحده دون الآخر فكل سبط في هذه الحال أناس .

واستعملت الكلمة في القرآن للتعبير عن أسباط بني إسرائيل عند التوزع على الشرب ، وللحجر الذي ضربه موسى عليه السلام ستة أوجه ، وجه يلاصق الأرض ، والوجه الأعلى الذي تم الضرب عليه ، وبذلك يتبقى أربعة أوجه ، فإن أسفرت ضربة العصا عن ثلاث فتحات متساوية الأبعاد في كل وجه ، إذن يمكن أن يشرب جميع الأسباط في الوقت نفسه ، كل سبط منهم (أناس) يشرب من فتحة من الفتحة ، وكل ثلاثة أسباط يقفون في وجه من

١ سورة الفرقان . الآية (٤٩) .

الأوجه .

* واستعملت الكلمة في القرآن إلى جوار التعبير عن كل سبط من أسباط بني إسرائيل دون أن يتغله أحد من غير السبط : {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ} ^(١) . كذلك أطلقت على آل لوط دون أهل القرية : {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ} ^(٢) . كذلك جاءت أيضًا يوم القيامة عندما تقف كل مجموعة بأمامها أمام الله ، وفي هذا اليوم لا يختلط أحد فيدخل على غير جماعته : {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئَاتِهِمْ} ^(٣) . على الشرب ، وللحجر الذي ضربه موسى عليه السلام ستة أوجه ، وجه يلاصق الأرض ، والوجه الأعلى الذي تم الضرب عليه ، وبذلك يتبقى أربعة أوجه ، فإن أسفرت ضربة العصا عن ثلاث فتحات متساوية الأبعاد في كل وجه ، إذن يمكن أن يشرب جميع الأسباط في الوقت نفسه ، كل سبط منهم (أناس) يشرب من فتحة من الفتحة ، وكل ثلاثة أسباط يقفون في وجه من الأوجه .



١ سورة البقرة . الآية (١٠) . سورة الأعراف . الآية (١٦٠) .

٢ سورة الأعراف . الآية (٨٢) . سورة النمل . الآية (٥٦) .

٣ سورة الإسراء . الآية (٧١) .

(٢٧)

يسألونك

جاءت الأسئلة بصيغة المضارع ، وسر المضارعة : لأن الإجابة كانت محجوبة ، فيظل السؤال قائماً باحتجاب الإجابة ، أما السؤال الوحيد الذي جاء بصيغة الماضي { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي }^(١) لأن الإجابة متزامنة مع السؤال ، ليست متأخرة عنه .

وعند الإجابة نجد أن الله عز وجل يلقن نبيه صلى الله عليه وسلم الرد باستخدام الفعل (قُلْ) ، أو (فقل) أو بإسقاطهما ، والسري في ذلك : يرجع إلى استعماله صلى الله عليه وسلم وسيلة لتوصيل الإجابة أو أنه لا يريد أداة لتوصيلها كما نرى في المغايرة الآتية :

		مغايرة :	
[الأنفال]	{ ١ }	قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ	1 { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ }
[البقرة]	{ ١٨٦ }	فَإِنِّي قَرِيبٌ	2 { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي }

الصورة الأولى 1-ى : { قُلْ الْأَنْفَالُ }^(٢) : جاء الجواب مصحوباً بالفعل { قُلْ } ؛ لأن

١ سورة البقرة . الآية (١٨٦) .

٢ سورة الأنفال : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا

الناقل للإجابة إلى السائلين : هو النبي صلى الله عليه وسلم .

الصورة الثاني 2 : {—} (١) : لم يذكر في الجواب (قل) ، للاستجابة السريعة ، فالله لا يحتاج لواسطة لإجابة عبده حتى لو كانت تلك الوساطة هي النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأن الله لم يشأ لعبده أن يطول انتظار لاستجابة الله مدة نطق (قل) فاخترتها حتى لا يطيل انتظاره لاستجابة ربه ، فحذفها يكشف عن سرعة الاستجابة . واللا واسطة بينه وبين عبده .

ولذلك لما سأل الكفار محمداً صلى الله عليه وسلم أن يُنزل عليهم كتاباً من السماء (٢) ، جاءت الإجابة بدون قل ، لأن الله يعزي رسوله دون حاجة إلى أن ينقل لهم ما قيل له ، أن ما سأله أهل الكتاب لك ، قام أجدادهم بسؤال موسى أشد منه ، فالإجابة لمحمد وليست لإخبار الناس أو الرد على السائل ، فلم تكن بحاجة للفظ (قل) لأن منتظر الإجابة هو النبي صلى الله عليه وسلم ذاته . فهكذا لو كانت الإجابة للنبي دون الحاجة لنقل الإجابة للسائل يعزف عن (قل) .

ولم تحذف بعد ذلك إلا مرة واحدة في قوله : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ } (٣) جاءت الإجابة بدون للاستجابة السريعة ، فالله لا يحتاج لواسطة لإجابة عبده حتى لو كانت تلك الوساطة هي النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأن الله لم يشأ لعبده أن يطول انتظار لاستجابة الله مدة نطق (قل) فاخترتها حتى لا يطيل انتظاره لاستجابة ربه ، فحذفها يكشف عن سرعة الاستجابة . وإلى جوار إلى أن الله لا يريد جواباً بينه وبين من يدعوه ، وسرعة الرد ، وكذلك لتكون الإجابة معهم فلا

اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

١ سورة البقرة . { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ .

٢ ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا

أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴿١٥٣﴾ ﴿ النساء ﴾ .

٣ سورة البقرة . الآية ١٨٦ .

للنبي جاءت الإجابة خالية من الفاء ،مثل الإجابات عن :المحيط ، والأنفال ، والأهله ، وذو القرنين ، والخمر ، والميسر ، والقتال في البيت الحرام ، والروح : فليس فيها أحداث استقبالية .

الصورة الثاني 2ة : { فُقِلَّ }^(١) : السؤال عن الجبال ، وهو سؤال لم يحدث بعد ، ويقرر القرطبي أن السؤال عن الجبال سؤال افتراضي ، علم الله أنهم سألوه ، فبادرهم بالإجابة قبل أن يسألوا فالفاء دلالة على افتراض سؤال ، والتقدير : (سوف يسألونك عن الجبال ، فإذا سئلت فقل ينسفها ربي نسفاً) وكذلك تحقيق الإجابة سيكون أيضاً في المستقبل (فنسف الجبال سيقع فيما بعد في المستقبل) . بينما جاءت سائر الإجابات الأخرى بدون الفاء لأنها ليست أحداثاً استقبالية : مثل المحيط ، والأنفال ، والأهله ، وذو القرنين ، والخمر ، والميسر ، والقتال في البيت الحرام ، والروح .

• ويقال إن الفاء جاءت في هذا الجواب فحسب لأنه سؤال مرتبط بأحد وجهي القضية المحورية : الله هو الخالق ، ولذلك هناك يوم القيامة للحساب ، فالسؤال عن الجبال يحمل في طياته اعتراض على البعث وإنهاء الأرض . لذلك جاءت الإجابة بالفاء أي لا تنتظر ، فإن كانت الجبال مما توهمهم على انتفاء البعث ، فقل ينسفها ربي نسفاً .

فالسؤال الافتراضي الذي لم يتم سؤاله بعد هو أسلوب شرطي يقبل الفاء ، والإجابة تحتاج قل إلا إذا كان الاستجابة الفعلية أسرع من الإجابة القولية ، أو إذا كانت الإجابة للنبي وليس مطلوباً تبليغها لأحد .

ومن ملامح هذا التعبير القرآني المغايرة في عمود الإجابة ، عند الإجابة متي يعيد الكلمة المسئول عنها بنصها ، مثلما جاء السؤال عن الأنفال ، فجاءت الإجابة : قل الأنفال بإعادة اللفظة المسئول عنها بنصها ، ومتى يعبر عنها بضمير يعود عليها كما جاء السؤال عن (الْأَهْلَةَ) ، فيتم الاستعاضة عن

١ سورة طه . { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا } .

الكلمة والتعبير عنها بالضمير ، فلا يقول : قل الأهله ، بل : (قُلْ هِيَ) .

مغايرة :

[الأنفال]



لِلَّهِ وَالرَّسُولِ

قُلِ الْأَنْفَالُ

{ يَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْأَنْفَالِ }

1

[البقرة]



مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ
وَالْحَيِّجِ

قُلْ هِيَ

{ يَسْأَلُونَكَ
عَنِ الْأَهْلِ }

2

الصورة الأولى 1-ي : { قُلِ الْأَنْفَالُ }^(١) : لم يستعمل القرآن الكريم الضمير في

التعبير عن الأنفال كعادته دوماً في التعبير بالضمير مادام الاسم الظاهر قد سبقه ، بل أعاد الكلمة نفسها المستؤل عنها مرة أخرى فقال : (عَنِ الْأَنْفَالِ) : (قُلِ الْأَنْفَالُ) ولم يقل : (قل هي) ؛ وذلك لأن سؤال المسلمين للرسول كان عن أنفال غزوة بدر ، فلو جاءت الإجابة بالضمير لكانت إجابة خاصة بتلك الأنفال المخصوصة ، وليس كل أنفال ، ولأصبح هناك حاجة للحديث عن أنفال كل غزوة ، ولهذا عدل عن الضمير لتكون الإجابة عامة تشمل هذه الأنفال وغيرها : أي أنهم سألوه عن أنفال غزوة بدر ، فأجابهم عن عموم الأنفال . ويكون المعنى : يسألونك عن الأنفال (الخاصة ببدر) قل الأنفال (أي أنفال) لله والرسول . وهذا هو المعنى المقصود لا يحققه الضمير وتحققه إعادة اللفظة .

يسألونك عن الأنفال قل هي : إجابة خاصة بأنفال بدر .

يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال: إجابة عامة تشمل أنفال بدر وكل أنفال أخرى .

إن المخالفة في الاستعمال القرآني تابعة لاختلاف المضمون ، فقد استعمل الضمير عند عدم تغير الشيء ، ولم يستعمله عند تجدد الشيء كالأنفال . ليكون الحكم ثابتاً . فإعادة اللفظة نفسها بما تحمل من معنى الجنسية

١ سورة الأنفال : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا

اللَّهِ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } .

لتكون عامة شاملة لكل الأنفال في كل زمان ومكان (أنفال بدر وما يستجد من أنفال في قادم الغزوات) .

وقد تكرر ذكر الاسم الظاهر مرة أخرى إلى جوار الأنفال: { وَيَسْأَلُونَكَ } عن الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾^(١) فكرر الاسم الظاهر (قُلِ الرُّوحُ) لأن اليهود أرادوا بهذا السؤال السخرية من النبي ، فهم يسألون عن أمر مطلق مفتوح ، فلو أجاب النبي أى إجابة قالوا لم تكن نقصد ذلك بل نقصد الروح التي بمعنى كذا . لهذا لم يستخدم الله الضمير لأنهم لا يقصدون أمراً محدداً ، بل هم يمحرون ، فلم يأت بالضمير لعدم تحديدهم الاسم ، فكما اختلفت الأنفال في السؤال عن أنفال الإجابة فلم يستخدم الضمير في إشارة إلى التباين بينهما ، كذلك هنا : هم يسألون عن الروح بمعانيها المتعددة ، بحيث لو أجاب بأنها سر الحياة قالوا ليس هذا ما نقصد ، ولو قال : جبريل : قالوا ليس هذا ما نقصد ، ولو قال : عيسى : قالوا ليس هذا ما نقصد . لهذا فلفظة الروح المسئول عنها غير مستقرة وقابلة للتغير عندهم ، فمن ثم لا يمكن أن يرجع عليها ضميراً وهي مختلفة لهذا أعاد بذاتها ، قائلاً : الروح التي تسألون عنها أياً كانت سواء هذه أو تلك هي من أمر ربي ، ولهذا لم يعط إجابة ، لأن السائل لم يعط سؤالاً .

الصورة الثانية 2ة : { قُلْ هِيَ }^(٢) : لم يكرر الكلمة المسئول عنها ، لأنه سبق ذكرها ، وعندما يسبق الاسم ، فتكفى إعادة الضمير ليدل عليه مادام الشيء هو نفسه ، وحدث هذا مع الخمر والميسر ، والمحيط والجبال ، لأنها ثابتة دائماً لا تتغير على مر الأيام والسنين والقرون . وذلك لأن المسئول عنه وما يجاب عنه متحد ، هو هو ، فإذا جاءت الإجابة بالضمير دل هذا على ثبات المسئول عنه .

وهكذا نرى أنه يستعمل الضمير عند ثبات المسئول عنه وعدم تغيره ، وعند حدثية المسئول عنه (أى إمكانية تجدده مثل تجدد الأنفال) لا يستعمل الضمير ، ليكون الحكم ثابتاً على كل الأنفال ، وليس على تلك الأنفال)
١ سورة الإسراء . الآية ٨٥ .

٢ سورة البقرة . { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِمَّنْ أَنْتَقَى وَتَوَأَّمُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ } .

الخاصة بغزوة بدر) فحسب ، فالنص يستعمل الضمير إذا كان الضمير والاسم الظاهر كلاهما يدل على شيء واحد ، فإن لم يدل على شيء واحد ، لم يصلح الضمير .

وكان يمكن أن تكون الإجابة كالاتي :

١. ويسألونك عن ذي القرنين ، قل : ذو القرنين ... كما فعل في سؤالي الأنفال والروح .

٢. ويسألونك عن ذي القرنين ، قل هو ... كما فعل في سؤال : المحيض ، الأهله .

لقد انصرف عن الصيغة الأولى ، لأنها خاص بالعام والخاص ، فالأنفال هناك أنفال خاصة ببدر ، وهناك أنفال في أي غزوة أخرى ، فلو قال هي لاتجه المعنى إلى أنفال بدر خاصة ، لذلك كرر الكلمة لیتجه بالمعنى إلى عموم الأنفال . وكذلك الروح : هم يقصدون دلالة محددة ، وهي تشمل أكثر من دلالة ، فقد يكون المقصود محمداً ، أو جبريل ، فالإجابة عن واحد منها تعطي السائل المتعنت فرصة أن يقول ليس عن هذا سألت ، لذلك أعاد الكلمة ليحتفظ لها بالعموم .

وانصرف عن الصيغة الثانية لأنه لا يريد أن يعطى لهم تعريفاً لذي القرنين ، فلو قال لهم هو سليمان ، لقالوا : لا نحن نسأل عن آخر يسمى ذا القرنين ، فالتعريف يعطى للمؤمنين ، وليس للمراوغين .

ولأن السائل يسأل عن أحداث في حياة المسئول عنه جاء بصيغة فعلية . ومضارعة لأن الإجابة ستعبر عن حدث يفعله النبي صلي الله عليه وسلم (سَأَلْتُوْا) بخلاف السؤال عما أحل لهم ، جاءت الإجابة ماضية لأن الحدث

سابق .

والملمح الأخير في هذا التعبير القرآني هو صيغة الإجابة بين الفعلية والاسمية ، فالاسمية : للتعبير عن ثباتها مثل الأهله ، والمحيط ، والروح ، والخمر والميسر ، ، وموعده القيامة والحكم على القتال عند المسجد الحرام ، وكذلك للتعبير عن المستحقين للإنفاق ، واستجابة الله للداعي . بينما جاءت فعلية إذا كانت حدثاً واحداً ، أو أحداث غير متماثلة مثل أخبار ذي القرنين ، أو الطيبات التي لا تكون نفسها لأهل كل عصر ، فطيبات هذا العصر تختلف عن طيبات عصور أخرى . وتأتي الصيغة الفعلية ماضية ومضارعة : فالمضارعة إذا كان الحدث لم يحدث بعد مثل نسف الجبال الذي لم يحدث بعد ، وكذلك ما سيتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم من أخبار ذي القرنين وهو لم يتله بعد ، بينما جاءت ماضية إذا كان الحدث قد حدث فعلاً ، مثل الطيبات التي أحلت من قبل ، ومثل سؤال أهل الكتاب لموسى من قبل .

والخلاصة : السؤال الافتراضي الذي لم يتم سؤاله بعد هو أسلوب شرطي يقبل الفاء ، والإجابة تحتاج قل إلا إذا كان الاستجابة الفعلية أسرع من الإجابة القولية ، أو إذا كانت الإجابة للنبي وليس مطلوباً تبليغها لأحد . وتأتي الإجابة بالضمير يعود على الكلمة المسئول عنها إلا إذا كانت الإجابة أعم ، أو إذا كان السؤال مطاطاً ، هنا يعيد الكلمة نفسها لتعطي العموم ، أو تكون مطاطة مثل السؤال . وتأتي الإجابة في صيغة فعلية ماضية إذا كانت تتحدث عن حدث واحد سابق ، وتأتي في صيغة مضارعة إذا كان الحدث مستقبلياً .

وتأتي الإجابة بالضمير يعود على الكلمة المسئول عنها إلا إذا كانت الإجابة أعم ، أو إذا كان السؤال مطاطاً ، هنا يعيد الكلمة نفسها لتعطي العموم ، أو

تكون مطابقة مثل السؤال . وتأتي الإجابة في صيغة فعلية ماضية إذا كانت تتحدث عن حدث واحد سابق ، وتأتي في صيغة مضارعة إذا كان الحدث مستقبلياً . دلالة على أن هذا سؤال لم يتم سؤاله بعد ، وأنه من المنتظر أن يسأله ، فجاء الفاء على جواب الشرط : إن سألك فقل .

